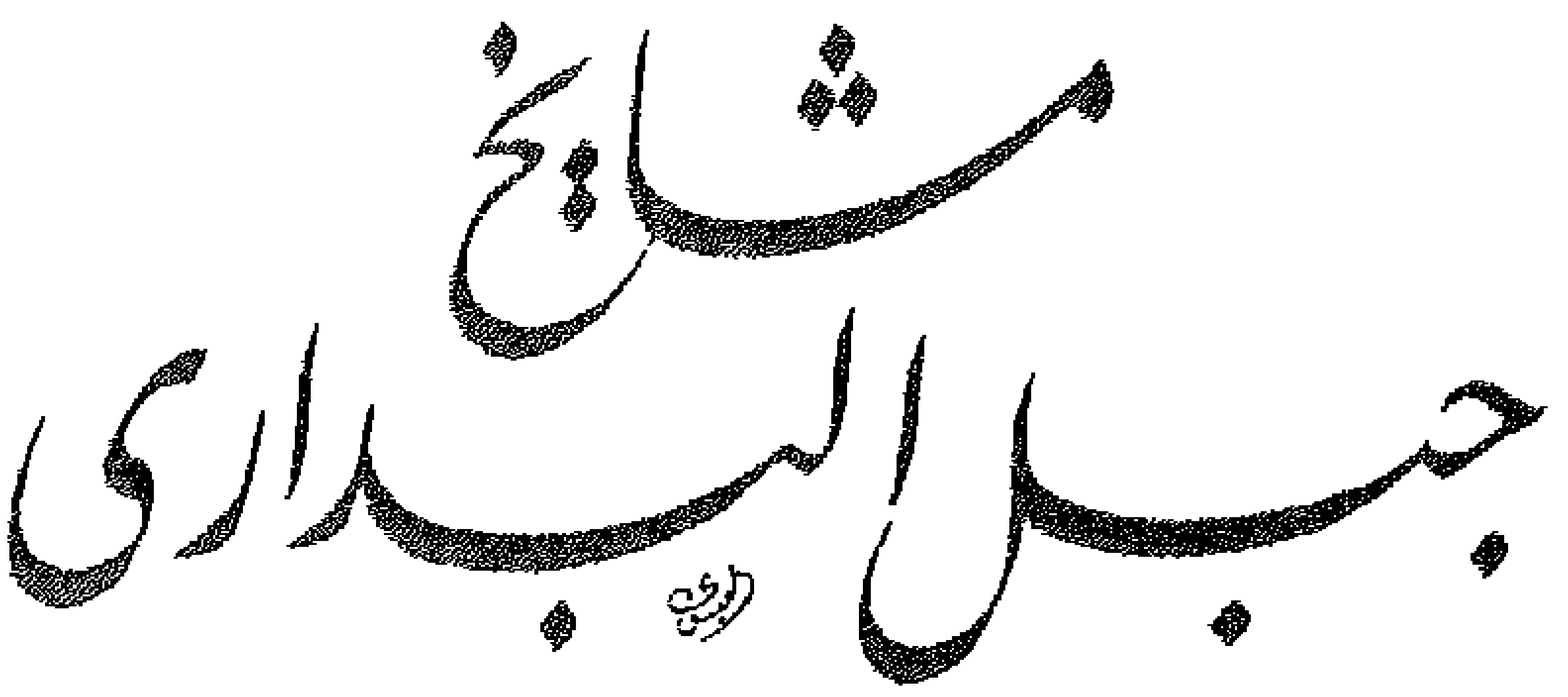


(الجزء الثاني من مذكرات قرية)

يرويها: د. عصمت سيف الدولة



KITAB
AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

مكرم محمد أحمد — رئيس مجلس الإدارة

عبدالحميد حمروش — نائب رئيس مجلس الإدارة

مركز الإدارة

دارالهلال ١٦ ش محمد عزالعرب. تليفون: ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

العدد ٥٤٥ – ذو الحجة – مايو ١٩٩٦ No- 545-MA- 1996

فاكس FAX-3625469

مصطفى نبيل — رئيس التحرير

عادل عبدالصمد — سكرتير التحرير

أسعار بيع العدد فئة ٣٥٠ قرشا

سوريا ١١٥ ليرة – لبنان ٧٠٠٠ ليرة – الأردن ٢٧٠٠ فلس – الكويت ١٧٥٠ فلسًا – السعودية ١٥ ريالا

مشايخ
جبل البدارى

الجزء الثانى من مذكرات قرية

يرويها

د . عصمت سيف الدولة

دار الهلال

الغـلاف للفـنان

حلمى التونى

مقدمة

بقلم .. مصطفى نبيل

● طلبت من د. عصمت سيف الدولة أن يكتب سيرته الذاتية فآثر كتابة السيرة الذاتية لقريته «الهمامية»، فلقد توحد مع أهلها، وكان على أكثر أحداثها شاهدا، فهو ابن القرية التى تسربت حكاياتها إلى مسامعه.

ومن يقرأ «مذكرات قرية» يدرك كيف يعيش الكاتب معاناة وحياة أهله، وكيف يعبر عن مشاعرهم بدقة وإيجاز، وكيف خسره عالم الأدب وكسبه عالم السياسة والقانون .

يقول في مقدمة كتابه : «تلقيت من كل مجتمع حكايته فاجتمع لي منها خليط من الخبرات الفائقة لو أردت لأنشأت منها مذكرات شائقة ، إلا أني لا أريد، فقد تعلمت من علم النفس وعلمائه أن السير الذاتية لايمكن أن تكون صادقة ولو كان أصحابها من الصادقين، لأنها استجابة لغريزة إنسانية مسيطرة، النزوع إلي البقاء بعد الفناء، خوفا دفينا من الموت فحرصا متينا علي الخلود، إنها ذات الغريزة التي تولد في الإنسان نوازع عاطفية غير عقلانية، يحب أولاده أكثر من ذاته حتي ولو كانوا مارقين؟!» .

ورغم أنه كتب مذكرات قريته ولم يكتب سيرته، فإن هذا الكتاب يجعله من الخالدين بجدارة، ويكاد يكون أهم ماكتب عن

الصعيد، وهو عمل غير مسبوق، قدم فيه رؤية صادقة تتجاوز كتابات وأبحاث الأنثروبولوجيين، ذلك أن نشأته ورهافة حسه ويقظة نفسه علمته أن يحيط إحاطة واسعة بحياة أبناء قريته، يعرف العادات والأمثال والحكايات والفنون والألعاب، فرسم ذلك كله في لوحات معبرة، واستطاع بنفسه الحساسة وإخلاصه لقريته اختراق ما حوله بقدرة عالية علي صياغة عبارات رائقة هذا بعد أن أعد نفسه إعدادا كبيرا بكثرة الخبرة وسعة التجربة.

ومن النماذج الدالة علي ما أقول: الصورة التي رسمها للمرأة الصعيدية والتي قدمها بقوله: «تملك الزوجة، ربة البيت، وحدها كل الأجوبة الروحية والعاطفية والمادية علي أسئلة الرجل، الزوج، وهي بعد التي قدمت حجر الأساس الاقتصادي لبيت الزوجية الذي تديره، ولها فيه فضلان، فضل الادارة وفضل التمويل، ولزوجها فضل العمل، فلا ينكر عليها أحد بعد هذا أنها ملكة البيت وما فيه.. إنها لاتخدم أحدا، ولا زوجها، وإنما تدير مملكتها في بيتها وتعد فيه كل الأجوبة الروحية والعاطفية والمادية علي اسئلة الرجل الزوج، والأولاد من بنين وبنات.

الزوجة في القرية لا «تحب» ولا «تعشق» زوجها، تلك وأمثالها أوصاف أدلي بكثير من تلك العلاقة بين الزوجين، أدني وصف الي حقيقتها إنها وحدة مصير. لا بل وحدة وجود. فهما لايلتقيان منفردين إلا نادرا، وإن تحادثا فلا يهزران، ولايتلامسان غزلا، ولايتغازلان حديثا، ولايعرفان عادة القبل علي الشفاه، ولايتعانقان اذا تقابلا بعد غياب، ولايفقدان في كل الظروف الوقار والتوقير والحياء، ولاتنادي المرأة زوجها باسمه

ولايناديها باسمها إلا اذا كانا منفردين، وإن تجادلا فصيغة النداء تدل علي مدي الاتفاق والاختلاف والتودد. إن قالت له «ياخوي» فهي متلفقة، وإن نادته «ياولد عمي» فهي تتودد.. وإن قالت له «ياولد الناس» فهي غاضبة. فالزوجة تعرف وزوجها يعرف إنها إن غضبت فسيشقي. ستظل اسئلة في بيته بدون أجوبة.. يخسر هو كل شيء ولا تخسر هي شيئا.

ولايعني هذا أن المرأة في القرية لاتعرف الحب، بالعكس إنها تعرفه عاطفة متأججة منذ أن بلغت مبلغ النساء، كل ما في الأمر إنها أحبت حتي الوله، وعشقت بكل كيانها الزوج بصفته وليس شخصا بعينه».

وهكذا ينتقل الكاتب واصفا كل مناحي الحياة في الهمامية.

وما بين نشر الجزء الأول في كتاب الهلال في أغسطس ١٩٩٥، وبين نشر الجزء الثاني الذي سيصدر خلال شهر مايو ١٩٩٦، رحل عنا د. عصمت سيف الدولة والكتاب بين يديه يراجعه، وتركه لنا وكأنه ترك لنا وصيته وهي خلاصة حكاية قريته التي تقدم نموذجا لكل قري مصر وإن اختلفت بعض القسمات من قرية لأخري، وتؤكد تجربة قرية «الهمامية» علي المساواة بين جميع أهل القرية، فسكان القرية جميعا يعودون إلي أصل واحد، ومن عائلة واحدة، وعانت القرية طويلا من فساد السلطة وتحيزها أحيانا للمستعمر البريطاني وأحيانا أخري للإقطاع الذي انتزع أرض الجزيرة من أصحابها، ورغم شيوع الخوف من السلطة الي حد فرار شباب القرية الي الجبل أو حقول الذرة أو القصب بمجرد اقتراب رجل بملابس رسمية من

القرية فإن المقاومة الذكية التي قادها الشيخ عباس نجحت في حماية شباب القرية من اصطيادهم وترحيلهم لخدمة المجهود الحربي البريطاني خلال الحرب العالمية الأولي. ونجحت القرية مرة أخري مع قيام ثورة ١٩١٩ في استرداد أرض الجزيرة، ويقي الصراع مع الطبيعة، الفيضان والجفاف ورمال الجبل، وفي مواجهة الفقر والظلم. وتقدم تجربة «الهمامية» التي نقلها د. عصمت سيف الدولة وسائل كسب هذا الصراع.

عندما طلبت من الكاتب سيرته الذاتية، كنت انتظر قصة وظروف جيل بأكمله، وأعرف أن مفتاح شخصية الكاتب تتمثل في نبعين لعبا أهم الأدوار في حياته، أحدهما الصعيد والثاني تيار الوطنية الصادقة، خرج الكاتب من أعماق الصعيد، وترك الصعيد بصمات واضحة علي تكوينه، الصلابة التي لاتعرف المساومة، الشجاعة في التمسك بالحق كالقابض علي جمرة، وقصة الكاتب تقدم رؤية جديدة علي أن الوجه البحري يستقبل الموجات الوافدة علي مصر. ويأتي من الصعيد رياح تأكيد الهوية ومقاومة المؤثرات الأجنبية، ومن تفاعلهما تتشكل البوتقة المتوازنة التي تصنع السبيكة المصرية..

ويصدق هنا قول د. حسين مؤنس في كتابه مصر ورسالتها .. «لايزال الصعيد وأهله موضع فخار مصر ومصدر قوتها وحصنها التي تركن إليه.، وما من شيء تراه في مصر إلا ولأهل الصعيد فيه الأثر البعيد.

يقدمون لهذا البلد أجيالا من خيرة رجاله الذين قادوا أموره ووجهوا سياسته ورفعوا رأسه في كل ميدان.

أما النبع الثاني الذي استمد منه الكاتب مواقفه وتكوينه فهو تيار الوطنية الصادقة التي أثرت في جيل بكامله، يتمثل فيه أصل من أصول فكره في الوطنية المثالية الثابتة والمناضلة، بعد أن دخل هذا الجيل مرحلة نضال وطني ضد الاحتلال البريطاني، وأدرك أهمية الاستقلال وأهمية تحرير الاقتصاد المصري من سيطرة الأجانب.

وتفتحت عينا كاتبنا للحياة في الثلث الأول من هذا القرن، أي أنه عاش طفولته في فترة غنية بالتحولات الفكرية، كما أن خروجه من أعماق الصعيد، دفعت - بالضرورة - إلي الأمام الصراع بين القديم والجديد، وشهدت الساحة الفكرية ألوانا من النقاش حول شروط وكيفية اللحاق بالغرب، مع وعي كامل بالتمايز بين الغرب التقدم والغرب الظاهرة الاستعمارية، وتولدت شخصية المفكر الذي يبحث عن أجوبة في مواجهة اسئلة شديدة التعقيد..

وأعرف بعض تجاريه الأولي فقد كان ضمن التنظيم السري للحزب الوطني، حزب مصطفي كامل ومحمد فريد، بما يمثله هذا الحزب في السياسة المصرية من الطهر والبراءة والمثالية، والتمسك الشديد بالمباديء، والتعامل مع النظرة التاريخية لا النظرة الآنية، وهم أصحاب شعار «لا مفاوضة إلا بعد الجلاء» والذي يعبر عن رفضهم للمفاوضات مع بريطانيا، وعمل الكاتب بعد تخرجه في كلية الحقوق في مكتب أحد أقطاب الحزب الوطني وهو مكتب زكي علي باشا والذي تشرب منه مهنة المحاماة هي مهنة «إغاثة الملهوف والوقوف إلي جانب المظلوم».

وانتهي بكاتبنا الحال إلي أن أصبح محاميا في معظم القضايا السياسية والوطنية، يصول ويجول في ساحات المحاكم مدافعا عن حق جميع القوي السياسية في التعبير عن نفسها، وحقها في تنظيم صفوفها، وحمل رسالتها، وكان شرطه الرئيسي الذي يردده.. «إنه يتبرع ولكنه لايتطوع» كما قدم خبرته السياسية الي كل من يطلبها سواء الأحزاب السياسية أو النقابات العمالية أو المهنية.

وربما كان أعظم ما في د. عصمت سيف الدولة ثباته علي مبدئه، باع نفسه لأمته ولم يتحول عن ذلك قط، وظل يجاهد علي الدرب حتي لقي ربه.

وما أحوجنا إلي تسجيله لتجربته عندما كان ضمن كتائب الفدائيين الذي قاتلوا الانجليز في القناة عام ١٩٥١. بعد إلغاء معاهدة ١٩٣٦، كنا ننتظر روايته وأن يقدمها للأجيال الجديدة، خاصة وهو من القلائل الذين يقفون الي جانب الشباب بلا تحفظ ويؤمن بقدرته علي صنع المستقبل، ولايري كما هو شائع إنه لايوجد أفضل من أيام شبابه. يقول.. «الذين غادروا مرحلة الشباب يفتقدونها ويتمنون لو عادت إليهم أو عادوا اليها اكثرهم شعورا بافتقادها أولئك الذين لايكفون عن إدانة الشباب، إنها حيلة نفسية يعرفها علماء النفس، وموضوع الاحتيال إنهم يحاولون علنا استرجاع شبابهم في شباب غيرهم بأن يعظوه لعله يسلك ما كانوا هم سالكيه لو كانوا شبابا».

وياليته سجل قصته مع الرئيس السادات، الذي بدأ حكمه بسجنه وانتهي حكمه بسجنه ثانية، فكان من أوائل المسجونين

بتهمة تشكيل تنظيم عربي في مصر، وفي آخر عهده أودع السجن في اعتقالات سبتمبر ١٩٨١ مع عدد من السياسيين، كان نزيلا في الزنزانة رقم ١٦ في ملحق ليمان طره.

انتقل د. عصمت سيف الدولة من الثورة المصرية الي الثورة العربية. فمن الطبيعي أن تكون الخطوة التالية لأبناء الوطنية الصادقة والقادمين من أعماق الصعيد، أن يقودهم الدرب إلي الفكرة العربية.

كان مكتبه في وسط القاهرة ملتقي العرب ، لا يكاد يصل زائر عربي إلي القاهرة إلا ويسرع الي مكتبه يشهد ندوة دائمة تضم الكثير من المفكرين، تناقش خلالها العديد من القضايا العربية.

وكان الدكتور عصمت من النوع الذي تزداد حبا له كلما ازددت معرفة به، وبقدر ما كان تفكيره مثيرا للإعجاب، كان في مناقشاته يعبر عن أعصاب هادئة وعقل منظم، ويستعمل أسلوب الاقناع الهاديء.

وهو من أوائل المبشرين بالفكرة العربية، والباحث عن طرق ملائمة لتحقيق أحد صور الوحدة، مع الاستفادة من تجارب الماضي، لذا اهتم بكبريات القضايا التي كانت تشد اهتمام الانسان العربي، ومن هنا كان تفهمه وتفتحه علي التيارات الفكرية المختلفة في كل انحاء العالم.

وبعيدا عن أي انغلاق في اطار الوطنية الضيقة، يبحث دائما علي وسائل عملية وخطط وبرامج محددة لتحقيق الأهداف العربية.، ولايكتفي بالعواطف والمشاعر المشتركة، ولايركن

للتراث الثقافي المشترك وحده، ومن كلماته المأثورة «أن قابيل قتل هابيل، رغم الأخوة التي بينهما، فلا يكفي مجرد الانتماء، إنما المهم هو خلق المصالح المشتركة والعمل المشترك .

اشترك في كل التحركات العربية أيام ازدهار الفكر القومي، أو في زمن التراجع والضعف، يبحث وينقب عن وسائل تحقيق مشروع النهضة العربية، والفكرة العربية عنده محورها القاهرة، التي لها دور حيوي في حياة العرب، تجددهم وتوحدهم وتقود نهضتهم.

وأجمل أيام حياته هي تلك الأيام التي كانت القاهرة فيها مركزا للثوار العرب من كل الأقطار العربية، وبعدها وضع اهتمامه في دعم الثورة الفلسطينية يتشاور مع قادتها، ويرجع بعضهم اليه فيما يعترضهم من مشاكل، ويؤمن أن جوهر القضية الفلسطينية ومكانتها تقع في قلب القضية العربية يقول في كتابه الاعتراف المستحيل .. «لانملك الا أن نقول كيف تغرق الهزائم أفئدة الناس، فيجزعون وتثير الاضطراب في عقولهم فلا يعقلون وتعمي أبصارهم فلا يبصرون حتي مايقبضون عليه بأيديهم من أسباب النجاة، إن المرحلة المقبلة مرحلة الثورة العربية.. إن مسئولية هذا الميلاد التاريخي لاتقع علي الثورة الفلسطينية وحدها، وإن كانت تتحمل قدرا من المسئولية، أما باقي المسئولية فيقع علي أولئك الذين يطيب لنا الحديث عنهم تحت عنوان القوي القومية» .

ويرتبط بعلاقات وثيقة بالقادة العرب، وعندما أتجول في العواصم العربية، التقي بالعديد من تلاميذه ومحبيه، وكنت

أدهش لشعبيته في البلاد العربية التي تزيد كثيرا عن شعبيته في مصر!

وعندما سألت أحد الرؤساء العرب عن المفكر الذي تأثر بأفكاره أجاب علي الفور إنه. د. عصمت سيف الدولة، وقد نشر الحديث في حينها في مجلة المصور.

ولم يجف قلم عصمت سيف الدولة طوال عقود أربعة، وتوزعت كتاباته في موضوعات شتي وفي كتب متعددة، كان آخرها «مذكرات قرية» ويتميز الكثير من كتبه، «الشباب العربي» ، و«ما العمل» و«النظام النيابي»، و«مشكلة الديمقراطية» و«الطريق إلى الوحدة العربية» و«بيان طارق» والطريق الي الاشتراكية العربية الذي أكد فيه امكانية قيام الاشتراكية بدون تأثيرات أجنبية ، وغيرها بتقديم افكار حية تساهم في إحياء الشعور بحق الشعب العربي في أن يحكم نفسه بنفسه وتجعل العدل رسالة خالدة.

وكما يكتب بقلمه يرسم بريشته فهو فنان متعدد المواهب، في مكتبه تمثال جميل لإنسان يتخلص من قيوده ويتوق إلي الحرية، ولايعرف أحد إنه صنع هذا التمثال عندما كان معتقلا، ولا تقتصر كتبه علي القضايا العامة وحدها بل تشمل أعمالا درامية مثل بيرون وحريق روما.

وبعد.. نتساءل.. هل يغادر كاتبنا دنيانا، وهو يري أحلامه تبعد، وآماله لاتتحقق؟ ولكنه ترك لنا أعماله حية بيننا. كمن زرع الشجرة وسوف يحين يوما نضج الثمار.

فهل تحل العبرات محل الكلمات؟!

قال الراوى :

ياسادة ياكرام سئل أهل الذكر عما يتذكرون من تطور الحياة فى القرية .

فقال فلان ، وتذكر علان ، وذكر ترتان ، وكثير غيرهم مالا يخرج عما قاله آخرون ، كل منهم، وقد أوهنته الشيخوخة، يجهده اعتصار الماضى من ذاكرة ضامرة ، يستبدل بمذكرات القرية جمعا ذكرياته عن ذاته فردا . لم يجب أحد على سؤال صريح عن تاريخ القرية جوابا صريحا . أهملوه . وتحدث كل من سئل عن أكثر ما يعرفه واقعية ، ذاته والدور الذى أداه ومع الصبر الطويل على الاستماع طالت وعرضت وتفرعت الروايات فكشفت ، وهى لا تجيب على سؤال محدد ، عن مفردات من مذكرات القرية غير محددة. قد نجد من يريد فى تلافيف الروايات المائعة اجابة على السؤال الأصيل حتى لو لم تكن قاطعة فننتقى من ركام ما رواه أصحاب الحكايات ما قد يفيد من يريد ويكفينا ما كشفت عنه الروايات من وقائع أولى بها المذكرات ، ولكن ليس قبل أن نرجع إلى أهم المراجع لعلنا أن نعرف منه ما أخفاه الآخرون من تاريخ القرية وعلة الاخفاء .

هز رأسه مرات ومسح على لحيته البيضاء ثم قال : إن بعض ماتريد ان تعرفه ، ياولدى، ثم ابتسم والتفت وقال : ياأستاذ قد بقى

مستورا فلم يعد مذكورا . تلاشى فى ظلام الستر ..

لا تؤخذنى ياعم الشيخ إن قاطعتك . إنما هو الحرض على أن أروى عنك من مذكرات القرية ما قد لا يعرفه سواك . فقد كنت وكيل شيخ الخفراء ، ثم شيخهم ، والخفراء هم مثقفو القرية ، فما الذى تعنيه «بالستر»، أو ما الذى كان «يعنيه» الستر وقد وصفته بأنه كان ظلاما .

آه . أصل المسألة أو الأصول التى نشأنا عليها فاتبعناها منذ قديم الزمان أن لا أحد فى القرية أفضل من أحد من أسرته ولا أسرة أفضل من أى بيت . ولا بيت أفضل من بيت فى عائلة . ولا عائلة أفضل من عائلة فى القرية . بصرف النظر عن العدد والثروة . كلنا أولاد فرج قداح. وهكذا ترى أن «الستر» هو الاخفاء . ليس اخفاء أى شىء أو أى موقف بل اخفاء ما يعتبز عيبا أو عورة ، ومع أن ناس «الهمامية» مثل كل الناس يختلفون فيما بينهم حول مايهم الافراد والأسز والبيوت والعائلات أو القرية جميعا فقد كان الإختلاف يتوقف عند حدود «الستر» الذى يحول بين أى فرد و«فضح» ما يدور فى الأسر والبيوت والعائلات، فحين تسأل أى واحد منهم عن شىء مما مضى يروى لك مامضى من تاريخه شخصياً ، لايستطرد إلى غيره خشية أن يهتك أسرار غيره وهذه فضيلة أم أنك لا تراها كذلك .

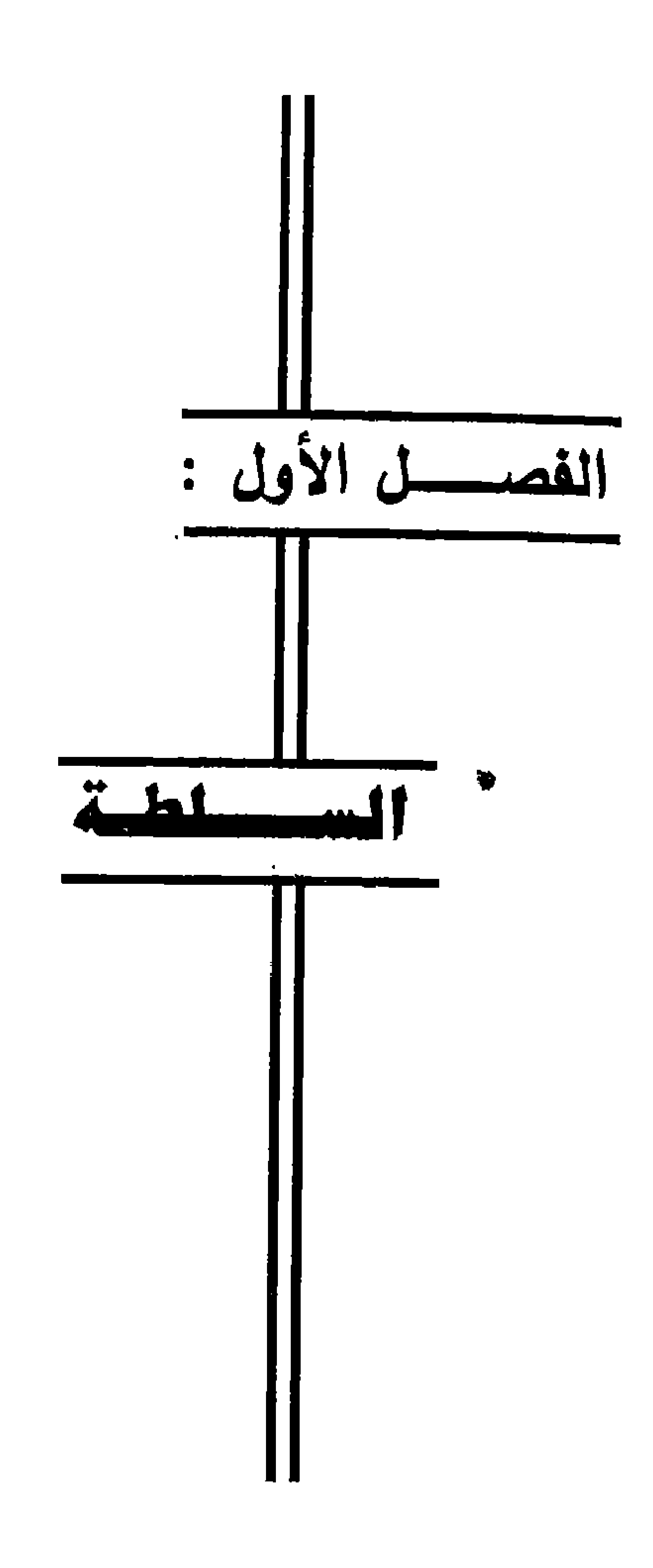
كيف تراها أنت فضيلة ؟..

لست أنا فقط . القرية تراها فضيلة . ألا ترى ياولدى كيف تنشىء كل عائلة منضرة مزوقة تنبىء عن أسرة مالكة ميسرة لاستقبال واكرام أضياف الفقراء من الأسرة سترا لفقرهم . أوَ لاَ ترى كيف يكفلون فى أفراحهم نفقة الفرح لصاحبه سترا لعجزه عن نفقاته ويسمونها نقوطا . ويتكلفون فى الجنائز والمآتم سترا لعجز أهل المتوفى عن نفقاتها . كذلك يفعلون حين يسألون عن أمر القرية فيجيبون بأمرهم . انهم يتسترون على ماقد يعيب قريتهم بما يجيبون به عن أنفسهم ومع ذلك إن سألت صغيرهم عن «الغارة» التى سبقت مولده بخمسين عاما أو أكثر لروى لك تفاصيلها ، لأن المصائب العامة شائعة فهى فى غير حاجة إلى الستر ولا تقبله وهى وحدها التى «يجوز» أن تنسب إلى القرية جملة بدون فضح فرد أو أسرة أو عائلة.. فاسألهم إن شئت أو إسأل من تشاء عما مر بقريتهم من مصائب عامة فتسمع منهم جميعا ما يتذكرون فيذكره كل واحد منهم لايختلفون فيه ولا يخفون منه ثم اجمع ما يقوله كل واحد إلى ما يقول غيره ، تعرف ما تقوله القرية .

مثلا ياعم عزيز؟.

إسألهم عن أيام السلطة . أو عن كوارث الفيضان . أو اسألهم عن اغتصاب أرضهمْ فى الجزيرة ..

نفعل بإذن الله .



الفصـــل الأول :

السـلطـة

قال الراوى ..

(١)

منذ أن شاع أن يونس عبد الله قد عاد من «السلطة» قبل أن يعود غيره، وهو جالس في مقعد داره يحكي ويعيد لاينقص ولا يزيد لمن يحيط به من رجال وشباب وصبية بصوت تسمعه في فناء الدار أمه ومن يتوافدن اليها مهنئات بسلامة عودة ولدها من حيث لم يكن أحد يعرف قبل أن يحكي يونس عبد الله .

استطرد قائلا : وبعد خمسة وأربعين يوماً في «الغليون» وسط البحور، رسونا عند بلد من بلاد الفرنساوية اسمها «كالى» . عرفنا اسمها فيما بعد حين كانوا يسمحون لنا بأن نذهب إلى تلك البلد كل يوم أحد «قال عشان إيه قال عشان تتفسحوا» . نزل الخلق إلى الرصيف قبل غياب الشمس . أكثر من خمسمائة من جميع البلاد لكن أغلبهم صعايدة . قسمونا فرقا كل فرقة من خمسة وعشرين نفرا من ضمنهم الريس . يعني الفرقة أربعة وعشرين نفرا وفوقهم الريس . وكان من حظى أن فرقتنا فيها أنا من الهمامية وسبعة من الرياينة وستة عشر من قاو العتمانية . يعني بلديات ، وهذا من ستر الله . لأن «اللى تعرفه أحسن من اللى ماتعرفوش» . وعينوا ريسا علينا ثابت

نصار ولد نصار معوض من العتمانية . ولد ولا كل الرجالة . واستلمنا واحد مغربي اسمه خليفة لابس ضابط فرنساوى ويتكلم عربى «مكسر» ليتفاهم معنا، حطوا كل فرقة فى عربية «كمبيل» كبيرة وساقوا بنا مسافة كمثل المسافة بين بلدنا والبدارى . دخلنا فى المزارع . مزارع لا لها أول ولا لها أخر ، ولا فيها جبل ولا بحر ، بعد حوالى ثلاث ساعات وصلنا منطقة المعسكرات. خيام وعساكر وعربيات ومدافع بالألوف . أدخلوا فرقتنا خيمة كبيرة ، وسلموا كل واحد ثلاثة ألواح من الخشب يرصها على الأرض وينام عليها . وثلاث بطاطين صوف يفرش واحدة ويتغطى بواحدة والثالثة يفرشها أو يتغطى بها أو يعمل منها مخدة «هو حر» . وأعطوا كل واحد خد جزمة جلد برقبة طويلة لحد الركبة منها فيها . كنا ميتين من التعب وجعانين . الريس ثابت كلم خليفة المغربى فى مسألة الاكل . قال الاكل بالميعاد و«لسه فاضل على العشا ساعة وربع».. ناس تعبانة نامت من غير أكل والجعان انتظر . فى الميعاد جاءت عربية طويلة تجرها أربعة خيول فوقها «قازانات» مثل البراميل . وقفنا قدام الخيمة طابورا وكل واحد صحنه فى ايده . واحد فرنساوى صب فى صحن كل واحد مغرفة سليقة فيها « حاجة » زى قرى العصيرة . وأعطاه باكو ورق ملفوف ورغيف عيش طويل «ومبروم» وملأنا الجرادل ماء . كانت السليقة ساخنة حين غرفوها ولكنها بردت

بسرغة وظهرت عليها طبقة سميكة من الدهان الأصفر «زى الزبدة» . شربناها . فتحنا «البواكى» لقينا فيها لحم ورز . اللحم أغلبه دهن «زى لية الخروف» . والرز أصفر «زى الكركم» . رائحة الاكل زفرة . ولكنا «جعانين يابوى» فأكلناه ونمنا...

بعد نصف ساعة الولد قبيصى ولد سالم من «أولاد مصبح» من الريانية «عيط على الريس ثابت» ياريس ثابت . ياريس ثابت . صحونا على صوته . ما الذى بك ياقبيصى أقلقت نومنا الله يخرب بيت أبوك. قال وهو يتلوى : ياريس ثابت «عاوز أعمل زى الناس بطنى وجعانى . فالى أين أذهب». أخذه الريس ثابت ليذهب إلى بيت الراحة وهو خيمة صغيرة قريبة . ولكن ما أن خرجا حتى سمعنا صوت قبيصى وهو يستفرغ ويتأوه . عاد . فسألنا قبيصى مم يشكو . فقال «والله العظيم، والله العظيم ، تلاتة بالله العظيم أن أولاد .. الكلب الكفار دول شربونا سليقة خنزير ووكلونا لحم خنزير .. يعنى قرفان ياقبيصى قال : آى . قلنا طيب نم والصباح رباح ونشوف شغلنا معاهم . فسكت ونام . لكن احنا توغوشنا ومصارينا كركبت . انما «برضه» نمنا من التعب .

أيقظونا فى الفجر . كل واحد يطبق البطاطين ويضعها على الألواح. وأعطونا صابونة بريحة . غسلنا وجوهنا وتوضأنا وصلينا الصبح بعد أن سألنا المغربى عن القبلة . وفطرنا عيش من المبروم

«أصله مافيش غيره» ولبن بارد وجبنة ملفوفة في ورقة وشربنا قهوة خفيفة «زى الشاى الخفيف». وأخذتنا العربيات ومشيت بنا ساعتين أو أكثر وسط الخيام، وساعة فى المزارع بعد أن فارقنا المعسكر .. وقفت بنا عند جمع من الضباط والمهندسين فى أيديهم خرائط وقد رسموا الأرض بالجير الأبيض خطوطا ممتدة إلى مالا نهاية وقالوا لنا احفروا ابتداء من هنا ما بين الخطين على عمق متر .. أما الرديم فيلقى بالجرادل فى الجهة الشرقية مثل الجسر ..

كان ذلك هو عملنا من الصبح إلى الليل كل يوم ماعدا ساعة فى الظهر للغداء ويوم الأحد . يوم الأحد تأخذنا العربيات ومعنا المغربى خليفة وتودى بنا إلى كالى «علشان ايه قال عشان تتفسحوا» . نمشى فى الشوارع الفرنساوية وأغلبهم رجال «عواجيز» وحريم وعيال يشيرون إلينا ويضحكن . خليفة المغربى تركنا ودخل أحد البيوت «قال إيه قال عشان نبقى على راحتنا» . لما نتعب من المشى ونحب نقعد على قهوة الأهالي يمنعونا . مرة بعد مرة «معدناش نروح لا كالى ولا بالى» .. وقعدنا فى المعسكر .

بعد شهرين كنا قد حفرنا ثلاثة كيلو . «زى من هنا للرياينة». والريس ثابت عرف يتعامل مع الفرنساوية . مسك عليهم مسكة وعلمنا حيلة. حيلة ولكن نفعت . أهم ما يهمهم هو الا نتوقف عن العمل . فكلما

أردنا شيئا نتأخر فى النوم فيأتى الفرنساوية ويرطنون بلسانهم فيقول المغربى أننا لا نريد أن نشتغل لأن الجراية قليلة فيعطونا المزيد . كل ما نريد حتى الشاى الثقيل حتى الدخان حتى اللحم الأحمر لا نطلبه . تعلمنا أننا إذا طلبنا لا نحصل على مانطلب، وأن «الناس تخاف وماتختشيش» . وسلاحنا جاهز . نتوقف عن العمل وثابت يقول : «أصل الرجالة عاوزين كذا» فيحضرونه على طول». وانبسطنا آخر انبساط .. إلى أن جاء الشتاء ..

المطر مثل السيل ينحط من أفواه قرب مفتوحة فى السماء . الأرض برك صغيرة وطين . ألواح الخشب تغرز فى الأرض . الوحل يتجمع داخل رقبة الحذاء فتثقل أقدامنا . ماحفرناه أصبح مثل الترع أيام الفيضان . ننزح المياه بدلا من الحفر فيدفع المطر طين الجسر إلى ماحفر . وجبات الاكل تتأخر لانقطاع الطرق . أشنع من هذا أن مياه المطر الجارفة تملأ حفر المراحيض فتفيض «الوساخة» وتسيل حتى تدخل الخيام وترى الفضلات عائمة فى برك المياه كالضفادع . ثم البرد، البرد . أعوذ بالله من الزمهرير . هم يتقونه «بالخمرة» ليل نهار يشربون خمرا . أما نحن فنعوذ بالله من «الخمرة». يلف الواحد بطانية صوف حول رأسه لا يترك مكشوفا منها إلا أنفه . يخرج من الخيمة فيشعر أن أنفه وقع . غير موجود . يتحسسه بيده ليطمئن فلا يحسه لأن أصابع

يده لم تعد تحس من البرد . وفى ليلة سوداء ، وبالمناسبة حتى النهار هناك أسود لأن الشمس لا تطلع طوال الشتاء ، أقول فى ليلة سوداء ، نزل الثلج بدلا من المطر ونحن نيام. وكان الولد قبيصى «عيان» منذ ثلاثة أيام ولم يحضر له دكتور لأن السيول قطعت الطرق . كان نائما بجوار طرف الخيمة . الريح قلعت الوتد فدخل الثلج في الخيمة وردم قبيصى. استيقظنا فى الصباح وجدنا أنه مات وجسمه أزرق «زى النيلة». أول واحد مننا يموت فى الغربة . طلبنا ماء ساخنا لنغسله ثم نصلى عليه وندفنه بأيدينا . لا .. قالوا لا . أخذوه منا ولفوه فى بطانية ورموه فى صندوق عربية خشبية يجرها بغل أخذته إلى حيث لا ندرى . يومها لم نذهب إلى العمل . عملنا جنازة فى الخيمة وجاء خليفة المغربى ومعه مصحف قرآن وبقى الريس ثابت طول النهار يقرأ قرآن ونحن صامتون لا نتكلم . لم نأكل . رفضنا الاكل . كان كل واحد منا يفكر أن عليه الدور وأنه سيموت كما مات قبيصى فى الغربة من غير غسيل ومن غير صلاة . فى العشاء قال الريس ثابت «كلوا يارجالة عشان عايزين نتكلم» أكلنا وتكلمنا واتفقنا على ألا نعمل ووضعنا أيدينا على المصحف وتعاهدنا على أن نبقى يدا واحدة حتى نعود إلى بلادنا . فى اليوم التالى أحضروا الافطار فأوصانا الريس ثابت أن نأخذ منه كثيرا «احتياطى» ربما لا يدوم . أخذنا ورفضنا الذهاب إلى العمل . قال لهم

خليفة المغربي أنهم يقولون أنهم لن يعملوا أبداً ، وقد ألقوا العهدة خارج الخيمة ، وأنهم يريدون العودة إلى بلادهم . فى اليوم الثالث قطعوا عنا الاكل إلا الافطار . رابع يوم دعونا فى الصباح إلى الخروج من الخيمة، أمرونا بأن نلتقط العهدة . الريس ثابت قال : «كل واحد ياخد كريك وبلاش الجردل ». لم نفهم ماذا يريد ولكن نفذنا ما أراد . أخذونا وراء صف الخيام ، ووقفونا صفين وأمامنا الريس ثابت المطر نازل فوق رءوسنا . وأمامنا صف عساكر « ماسكين سلاح » . قال خليفة المغربى أنه ذاهب ليرى حتى متي ذاك الوقوف . ثم حذرنا من أن نقعد وأنذرنا بأن العساكر ستطلق النار على من يخالف الانذار . طالت غيبة خليفة . قال لنا الريس ثابت وهو غضبان : « انتم رجالة ولا حريم » . قلنا : «رجالة» . قال : «الرجل من ظهر أبوه وشارب من بز أمه يقعد» .. قعدنا كلنا مرة واحدة . العسكر استغربوا الحركة . ولم يطلقوا « لا نار ولا حاجة زى مقال خليفة» . لقد ذهب «ولد الكلب» ليحتمى من المطر . فلما توقف المطر عاد ومعه خمسة ضبا ط ومعهم «جن النار» (جنرال) . ووقفنا ووقف قدامنا الريس ثابت . أنا كنت واقفا فى الصف الخلفى . أخذ «جن النار» يتكلم بلسانهم وخليفة يترجم بالعربى . أول الكلام حلو أنا زرت مصر وأحب مصر وأنتم مثل أولادى وأنا عارف ظروفكم لكن نحن فى حرب ، وأولادنا يموتون كل يوم ، وليس فى الحرب «حكاية اشتغل وما اشتغلش» ، لابد لكم من أن تشتغلوا ولو بالقوة . «لازم

تعرفوا كده كويس» . وارتفع صوته وهو يقول : ثم أني أعرف حالتكم قبل أن تحضروا إلى هنا . انكم متعبون ولكنكم تعيشون حياة الآدميين بدلا من حياة الكلاب التي كنتم تعيشونها في بلادكم .

ما أن قال هذا حتى سمعنا الريس ثابت يصرخ ويقول : «يوه. عيشة كلاب ياولد الكلب» . وطخ ضرب «جن النار» الواقف قدامه بالكريك في صدره شقه وقع «مانطقش». والعساكر والضباط ضربونا بالنار «طوالي» وقعنا كلنا . بعد أن توقف اطلاق النار بصيت بعيني وأنا نايم فوجدت الرجال كلهم «غرقانين في دمهم». ماتوا كلهم وأولهم الريس ثابت ضربوا فيه الرصاص فتتوا جسمه. لمحني خليفة فجاء ووقف فوق رأسي وقال لي لا تتحرك. بعد نصف ساعة جاءت العربة الخشبية التي يجرها البغل. لا. جاءت عربتان يجرهما بغلان ، وبعد أن يتأكد العساكر من موت الواحد يلقوه في العربة كما هو . وصلوا عندي فقال لهم خليفة كما قال لي بعد ذلك أنه جريح ولا يجوز قتل الجرحى . والآن سأحملك إلى المستشفى. وحملني على ظهره وأنا «عامل نفسي ميت» حتى خيمة المستشفى . هناك قال لي خليفة هامسا تحرك حتى لا يظنوك ميت فحركت رأسي وفحصوني وانتهوا إلى أنني غير مصاب بل أُغمي عليَّ . حبسوني في خيمة صغيرة وعينوا لي حارسا . وبعد أسبوع أخذوني إلى كالي . ومنها إلى «غليون» وصلت بورسعيد بعد خمسة وأربعين يوما، وهناك تركوني على الرصيف . مشيت لغاية الاسماعيلية وسألت عن محمد سلمان . رحب بي وأعطاني جنيها و«نص» . وهنا أنذا عدت .. والحمد لله ..»

قال شيخ جالس : حمد الله على سلامتك . شوف حكمة الله.

«ماحدش راح السلطة من الهمامية غيرك . وما حدش رجع من السلطة حي غيرك . نجاك الله وجزاك خيرا على ما عملته .. قال يونس : الحمد لله . والله تعبت وتعذبت كثيرا ولكني ، ويعلم الله ، غير نادم على ماعملته..

ما الذى عمله يونس ؟..

(٢)

أصل الحكاية وفصلها أنه فى صيف عام ١٩١٤ اندلعت حرب مجنونة بين دول أوروبا . حرب مثل المعارك التى تنشب بين رواد المقاهى فى المولد . تبدأ بضربة تطفىء النور « وتخليها ضلمة » ثم يتعارك الجميع : يضرب كل واحد القريب منه قبل أن يضربه بدون أن يكون ثمة سبب إلا أن المعركة بدأت . وهى فرصة للهرب من دفع اثمان المشروبات على الاقل . كذلك فعلت دول أوروبا المتجاورة فى قارتها . ضرب شخص مجهول من الصرب الارشيدوق فرديناند بالرصاص فى سراييفو فقتله . فضربت النمسا الصرب . فضربت المانيا فرنسا . وبالمرة ضربت بلچيكا . فضربت روسيا هنغاريا . فضربت تركيا روسيا. فضربت انجلترا المانيا . فضربت ايطاليا النمسا .. الخ وانداحت أمواج العنف المجنون من أوروبا حتى اجتاحت الكرة الأرضية فأسموها الحرب العالمية وهى حربهم . المهم أن أمواجها قد أغرقت مصر واندفع منها تيار من الاثار هز الحياة فى مركز البدارى . وامتد إلى الهمامية فدخلت الهمامية الحرب العالمية .

أما بالنسبة إلى مصر فقد كانت تحت الاحتلال الانجليزى،

والانجليز طرف فى الحرب ، وكانت فى الوقت ذاته تابعة لتركيا (العثمانية) وهذه دخلت الحرب ضد انجلترا وحليفتها روسيا وبالتالى باقي حلفائها . فقطعت انجلترا خيط العنكبوت الرسمي الذى كان يربط مصر بتركيا ، وفرضت الحماية على مصر فأصبحت مصر تابعة لها . واكتمل الاحتلال الانجليزى شكلا بعد أن كان موضوعا . كان الجنرال كتشنر الحاكم الفعلى لمصر ، قبل الحرب فى لندن عاصمة انجلترا حين اندلعت الحرب . وكان الخديو عباس الثانى ، الحاكم الصورى لمصر ، قبل الحرب فى الاستانة عاصمة الدولة العثمانية حين اندلعت الحرب . لم يعد أيهما إلى القاهرة مقر سلطاته الفعلية أو الصورية . أصبح كتشنر وزير الحربية فى الحكومة الانجليزية فلم يعد ومنع الانجليز عباس الثانى من العودة وعزلوه فلم يعد . وفرض الانجليز الاحكام العسكرية على مصر ووضعوا أرضها وشعبها تحت تصرف قادة الحرب التى لا يعلم سببها أهل مصر .

أما بالنسبة إلى مركز البدارى خاصة فقد كان الانجليز يفتشون عمن يلى العرش الخديوى بعد عزل عباس الثانى . كان أمراء ونبلاء أسرة محمد على قد رفضوا توليه فشاع فى القاهرة همسا وأشيع فى مركز البدارى جهرا أن الانجليز قد اختاروا محمود باشا سليمان ليكون ملكا على مصر . محمود باشا سليمان هو عميد «بيت الباشا» وكبير عائلة السلينية التى مركز تجمعها قرية ساحل سليم التابعة لمركز البدارى . فاعتبر أهل مركز البدارى جمعا أن قد آل إليهم الملك جميعا .

فتقاطر أعيان القرى وعمدها ومشايخها وكل ذى رداء لائق مملوك أو مستعار، على «سراى» بيت الباشا فى ساحل سليم . عشرات أو مئات يفدون يوميا راجلين أو راكبين ليقدموا التهنئة على المُلك مصحوبة بفروض الطاعة مقدما . وهناك يجدون أن الحكومة كلها هناك . المدير ووكيل المديرية والحكمدار من أسيوط، يحييهم تحية عسكرية المأمورون وضباط الشرطة من مراكز مديرية أسيوط . البدارى وصدفا وأبو تيج . بعض الوافدين يحمدون الله على أن عاشوا حتى دخلوا سرايات الملوك وصافحوا، بأيديهم ، الامراء . وبعضهم يحلم بمستقبل مثل ما كان للاغوات والحجاب وابناء الجوارى فى سراى عابدين . يزكى أحلامهم مايلمسونه من تواضع رجال الحكومة أمام الامراء الجدد اذن، اشارة من الامير ويحقق «بلدياته» حلمه، ويزكيها من كان يستقبلهم ويصافحهم ويوحى إليهم بما يحلمون، أذكى أبناء محمود باشا سليمان وأظرفهم وأكثرهم سخرية وعبثا بأحلام الناس ، حفنى محمود ، ولقد أوحى حفنى بك إلى الملك إلى من يستحقه . فأقام العمد الأفراح الشعبية . واقترح عليهم أن يمنعوا الفتيات من الاستمرار فى ترديد تلك الأغنية المعبرة عن حب عباس الثانى.

«بَحرً بابور عباس . قَبِّل بابور عباس. واسق دهابية. من مصر لاسطنبول . شبك الهوى فيه» ، والاعلان عن جائزة لمن يؤلف من مدرسى المدارس أغنية بديلة تعبر عن «حب» محمود . وحين أعلن أنه قد قبل الامير حسين كامل ، عم عباس، أن يكون سلطانا على مصر لم

يصدق أهالى البدارى الخبر الا بعد أن اختفى من ساحل سليم «الامير حفنى» . ولقد عاد الحديث والحلم مرة أخرى حين رفض الأمير كمال الدين حسين ابن السلطان أن يكون ولى عهد سلطان ولاه الانجليز . ثم تبدد الحلم نهائيا حين قبل الأمير فؤاد الابن السادس للخديوى اسماعيل مارفضه الأمير كمال الدين حسين . المهم أن أهالى مركز البدارى قد عاشوا شهوراً فى حالة هياج عاطفى وأحلام خيالية واهتمام منفعل «بالسياسة العليا» منحازين افتعالا ثم فعلا إلى استحقاق «بيت الباشا» للملك . ولقد بقوا على هذا الانحياز حتى بعد أن انحسرت أمواج الحرب التى لم يكسب منها إلا «بيت الباشا» .. كسبوا الولاء غير المحدود وارتفعوا عند الشعب إلى منزلة ملوك الاقطاع فى أوروبا . نقصد شعب مركز البدارى . وستبقى لهم تلك المنزلة أمدا طويلا حتى بعد أن ساعدوا السماسرة المحترفين على دفع الشعب إلى أتون الحرب.

فقد حصل رجل من مصر اسمه الشيخ الدمرداش على «امتياز» امداد جيوش الانجليز وحلفائهم «بمتطوعين» من أبناء مصر يعملون وراء خطوط القتال فى الجبهة الغربية من أوروبا وفى الجبهة الشرقية من سيناء وما يليها شمالا ، وله عن كل رأس «متطوعة» قرش . لم يتطوع إلا قليل من المعدمين . فانهى الدمرداش إلى رجال السلطة الانجليز أن رجال الادارة المصرية يحرضون الناس على عدم التطوع . فصدر الأمر من رجال السلطة الانجليز إلى رجال الحكومة المصرية الذين أبلغوه إلى رجال الادارات المحلية بأن يساعد هؤلاء ممثل الدمرداش على جمع «المتطوعين» من القرى . فوضعوا لذلك نظاما

عاما. يحضر العمد والمشايخ والخفراء الرجال ما بين سن العشرين وسن الأربعين من غير المتزوجين والذين لا يعولون فى كل قرية أمام لجنة «تطوع» يرأسها المأمور . يعرض عليهم المأمور التطوع ويغريهم به ويشجعهم عليه ويحصل على قبولهم توقيعا أو بصما على اقرار بالتطوع والتزام بالحضور يوم استدعائه . يتم كل هذا فى القرية تحت رقابة مندوب الدمرداش وحراسة رجال البوليس . يطلب العدد الذى يختاره مندوب الدمرداش فى الوقت الذى يحدده . من يحضر يرحل إلى حيث لا يدرى أحد . ومن لا يحضر يضبط «لاخلاله بالتزامه اضرارا بالمجهود الحربى» لا يفلت أحد منهم إلا إذا أحضر متطوعا بدلا منه .

ولما كان هذا لا يمكن أن يحدث فى مركز البدارى إلا إذا صادق عليه «بيت الباشا» مثل أى شىء آخر فقد صادقوا عليه . فبدأ التنفيذ مطاردة للشباب بدون نظام و«تطويعهم» كرها ثم ترحيلهم إلى حيث لا يدرى أحد . ومع ذلك لم يخطر على بال أحد من الفلاحين فى قرى مركز البدارى أن لبيت الباشا يدا فيما اكتوت به قراهم وعائلاتهم وبيوتهم وأسرهم من نيران الحرب ونسبوه إلى نير الحكومة . فعادوا يطلبون الغوث من بيت الباشا . والواقع أن قد أغاثهم بعض «النبلاء» أو من دونهم من أطراف العائلة العتيدة ووسطاؤهم من العمد والمشايخ . من يطلب للجندية فى جيش الحكومة يعفى منها إذا ما افتدى نفسه بعشرين جنيها . والجندية لمدة محدودة وداخل الحدود ، ولما كان «المتطوع» للخدمة لدى «السلطة» يعتبر كالمفقود كان عدلا ألا يعفى منها

إلا إذا افتدته عائلته بأربعين جنيها يقبضها وسطاء النبلاء من العمد ويقتسمونها مع مندوب الدمرداش فيعود المتطوع إلى أسرته ، ويعبر أهله عن الولاء لبيت الباشا بمزيد من الدعاء، وأصبحت تجارة ، ومهما يكن في التجارة من خسارة فإن البقاء في القرية ودروبها خير من الفناء في أوروبا وحروبها ، ومع ذلك فإن أحدا من قرية الهمامية لم يذهب إلى السلطة إلا واحدا هو يونس عبد الله . ذهب متطوعا فعلا أما الباقون فلم يتطوعوا ولم يطوعوا ولم يدفعوا .

(٣)

فقد صحب الشيخ عباس صديقه يونس عبد الله يوما الى البدارى، وقدمه إلى مكتب البريد «لاعتماده» نائبا عنه في استلام ما يرد إليه من صحف ورسائل إذا لم يحضر بذاته ، ثم دعاه إلى «البورصة» التى اعتاد أن يجلس فيها كلما ذهب إلى البدارى ، بورصة الخواجة كوستا . كان يونس يعرفها كما يعرفها كل الذين يترددون على البدارى يوم سوق الاثنين . إنها في زاوية من الدروب التي تقاطع شارع المركز . يتأملها الفلاحون ويتهيبون دخول أبوابها الزجاجية اللامعة . على واجهتها لافتات ملونة عليها كتابات وصور زجاجات ، يتردد عليها الحكام والاعيان ، يعلوها مسكن من طابق واحد له شرفة بارزة تطل على الدرب وشارع المركز . يحملق فيها بعض الناس حين يرون زوجة الخواجا كوستا البدينة تقرأ «الجرنان» واضعة فخذا ملفوفة على ساق مكشوفة فيستعيذون بالله من الشيطان الرجيم . ويتناقلون من أخبار كوستا أنه قد اشترى وارتهن كثيرا من أطيان الأعيان في البدارى ، ويقولون أن أمواله حرام لأن بورصته خمارة . لم تكن أمثال تلك

البورصة غريبة علي الشيخ عباس ، أنها مرصوصة في شارع القاهرة وقد ارتادها كثيرا ، فهي مقاه لمن لا يشربون الخمر وخمارة لمن لا يشرب القهوة ، وهي مطعم لمن يلتمسون الطعام . فما أن وقع نظره عليها في البداري حتى دخلها مغتبطا بدخوله قطعة من القاهرة . استقبله الخواجا كوستا لا مباليا ثم مباليا حين وجده يطلب قائمة الطعام ويتحدث بلهجة شبه قاهرية . فاعتذر له بأن ليس عنده قائمة طعام فلا أحد في هذا البلد يحتاج إلى ما يرشده إلى ماذا يأكل . أنهم يطلبون ما يعرفون . قال وماذا تفعل مع من لا يعرف . قال نختار له ، هل تشرب شيئا . قال لا . عاد كوستا ووضع أمامه خبزا وشريحة من اللحم بجوارها خضر مسلوقة وملعقة وسكين ثم وقف وسأل مبتسما : فيه خاجة ناقصة ؟ أهو اختبار يا خواجة . ناقص الشوكة . فضحك كوستا وأخرجها من جيب ردائه الأبيض وقال : فعلا «خذ يا خبيبي السوكة» .

جلس إلى جوار الشيخ في انتظار توافد «الزبائن» بعد انتهاء عمل الموظفين في المركز والمحكمة وتعارفا . وأصبحت بورصة الخواجة كوستا مقره كلما وفد إلى البداري . عرف من أمرها أنها ليست مجرد مقهى أو مطعم أو خمارة ، أنها قبل كل هذا وفوقه ناد للقمار ذو باب خفي وراء «البار» يفتح على حديقة خلفية أعدت للاعبين من كبار رجال الادارة والأمن وصغار الاعيان والعمد وأبناء كبار المالكين . يتسللون إليها كل مساء يشربون وهم يتناولون العشاء ثم يلعبون مقامرين ببعض ما يملكون أو بكل ما يملكون ، ويقوم كوستا منهم مقام البنك . يقدم القروض ، ويقتضي العمولات ، يعتمد الرهونات ، ويتسلم

«الكمبيالات» .. ويضاعف أثمان المأكولات والمشروبات . في منتصف الليل يغادرون البورصة تسللا من بابها الخلفي ، باب الحديقة .

كان لابد له من أن ينتظر كل يوم في البداري حتى الساعة الثالثة مساء ليتسلم الصحف ثم ليعود مع من يكون عائدا من المركز أو المحكمة أو السوق تبديدا للملل السفر الطويل على حمار مطهم ولكن رتيب الخطوات ، فلاحظ أنه في تمام الساعة الثانية وعشر دقائق بالضبط من كل يوم يدخل من الباب الرئيسي للبورصة رجل في نحو الثلاثين من عمره ، محكم الاناقة يلبس طربوشا طويلا مائلا على رأسه ، وحول رقبته «ياقة» منشاة معقوفة يتدلى منها رباط عنق يحمل مشبكا مذهبا يثبته في القميص ، وتبين من جيب السترة الأعلى أطراف حريرية بيضاء على شكل ثلاثة أهرامات متجاورة متدرجة الحجم . له شارب طويل رقيق دقيق . كأنه صورة من المرحوم مصطفى كامل باشا أو لعله كان يجتهد في أن يكون كصورته . يتقدم إلى مائدة معينة في ركن قصي من أركان البورصة ، يرفع عن رأسه طربوشة بيده اليمنى ويضعه على مقعد على يمينه . ثم يجلس . ويلقي بمذبة سوداء الشعر بيضاء المقبض على مقعد على يساره . فيكون كوستا قد انتهى من الترحيب به ترحيبا كبيرا ، وأحضر له طعاما لا يتغير أبداً يحضره بدون أن يطلبه . فيأكله صامتا . ثم ينطق فيطلب قهوة بصيغة ثابتة : «أهوه سادة يا خواجة» . حتى إذا ما انتهى من طعامه وشرابه ، تناول طربوشه ووضعه باحكام على رأسه مستعملا كلتا يديه ثم رفع مذبته من مقعدها ، وانصرف كما جاء .

لفته انضباط ذاك «الزبون» على مواعيده وحركاته ومائدته وطعامه

وشرابه وحضوره وانصرافه قبل أن يحضر آخرون ، انضباطاً لا يتفق مع شبابه . عرف من كوستا أن حسين أفندى فريد ، باشكاتب المركز ، وأنه من عائلة محمد بك فريد رئيس الحزب الوطنى ، كان موظفا فى وزارة الحقانية بالقاهرة ، فجنت عليه قرابته فنقلوه إلى مركز البدارى . أنه لا يخالط أحدا ، فشاع أنه «متكبر» فى حين أن المخالطين له فى المركز من صغار الكتبة والعمال والفراشين يذكرونه بكل خير ، وأن بينه وبين المأمور مودة مفقودة . يقال لأنه فى عمله لا يراعى تقاليد وظيفته فيتبسط مع أصحاب المصالح البسطاء من الأهلين إلى درجة أنه قد أعد فى حجرته «الميرى» أريكة طويلة يجلس عليها صاحب المصلحة بدلا من الوقوف انتظارا للبت فيما يعرضه .

فصمم على أن يتعارفا .

ما أن أهل حسين أفندى فريد من باب البورصة يوما حتى دعاه الشيخ بلهجة واثقة : تفضل يا حسين أفندى ، وقف حسين أفندى مندهشا ولم يتقدم ملبيا . فتقدم إليه مبتسما وقال : لماذا أنت مندهش . ألا تريد أن تسمع أخبار القاهرة من وافد جديدٍ منها . أجاب بابتسامة فيها فضول وهم بأن يسير معه فى اتجاهِ مائدته ، قال الشيخ: لا . لا أحرمك من مائدتك المفضلة فلا تغير عادتك واتجها إلى حيث اعتاد الباشكاتب قضاء وقته . جلس على المقعد الرابع المقابل لمقعده وترك للباشكاتب مقعدى الطربوش والمذبة ، فأدرك هذا دلالة الاختيار وضحك ضحكة محسوبة الجرس ومع ذلك كانت بداية موفقة إلى ألفة موثقة . اعتذر الشيخ فتحدث طويلا . تحدثا طويلا ، حديثا بعضه جاد وبعضه مرح . تنبئ نهايته بأن ألفة سريعة قد جمعت بينهما . فقد تصافحا يدا

فى اليد ، واليد الأخرى قابضة على أعلى الذراع إلى أن فرغت كلمات الوداع والتواعد . ولقد تكررت المقابلات ، وفيها عرف الشيخ من الباشكاتب قصص الحديقة الخلفية ، وكيف يفسد ما يدور فيها مناخ الادارة ، ويعوق ما يجرى فيها مجرى العدالة حين يخسر أصحاب المصالح عامدين ليكسب أصحاب القرار فى تلك المصالح ، فتنعقد الصفقات بالاشارات وتنقضى الحاجات بالتأشيرات ، وقصصا أخرى كثيرة مما يجرى للمخمورين .

ولقد سأله عما يقال عن ود مفقود بينه وبين المأمور فأثنى على المأمور ثناء بليغا ، قال إنه رجل أمين وكفء و «وطنى» ولكن المشكلة هى أنه فى بلادكم هذه لا تريد العائلات المتصارعة أن تتركه يؤدى واجباته . كل منها يضغط عليه ويحاول أن يجرح ذمته أو يلين قناته ولهم فى هذا طرق متنوعة ، أهمها على الاطلاق واثقلها على «البيه المأمور» ما يأتى إليه من «ساحل سليم» من توصيات ورغبات لا تتفق دائما مع ما يراه عادلا . والرجل يعلم أن مصيره معلق بكلمة ضده تذهب من هناك إلى من فى أيديهم مصيره . ولقد استطاع حتى الآن أن يدافع عن نفسه ولا يغضب أحدا بطريقة لا يبررها إلا الدفاع عن النفس ، فهو يوافق على ما يأتيه من توصيات ورغبات بتأشيرات عامة تحتمل التأويل ، ثم يعرقل التنفيذ لمعرفته أن كل طلب غير عادل ينطوى فى جزئياته على ما يخالف القانون . ويغطى كل هذا بالمجاملات الكلامية . أما عن أعيان المركز ورؤساء العائلات فيه فقد رأى أن يفرض على نفسه وعليهم أيضا أسلوب التعامل الرسمى الجاف . ليس فى مكتب المأمور إلا مقعد واحد يجلس عليه الموظف الذى يعرض عليه الأوراق ، وعلى باب المركز

صندوق لتلقى الشكاوى أو الطلبات يحتفظ هو بمفتاحه ، ويحمل بنفسه كل ما فيه كل يوم إلى منزله ليدرسه ، وهو لا يغادر منزله . ولا يقبل «العزومات» إنما يحضر جنائز كبار القوم مجاملة . إنه مكروه ولكنه محترم . لا يعترض على أية أوامر تأتيه ولكنه لا ينفذ إلا ما يراه عادلا . هذا السلوك يتفق «طبعا» مع منصبه «كرئيس» للمركز . إذ لا يوجد «رئيس يقبل مختارا أن يصبح» «مرءوساً» لأشخاص لا يشاركونه مسئولية ادارة المركز ولا يكفون عن التدخل فى ادارته ، وهو يريدنى أن أحتذى حذوه بعد أن شرح لى الأوضاع وحذرنى من «رفع الكلفة» بينى وبين الأهالى . لم أوافقه لأننى لست رئيسا مثله ثم لأن الذي يترددون على مكتبى هم من بسطاء الناس ذوى المصالح البسيطة ، وهؤلاء لا أحب أن استعلى عليهم فى حين أننى فى خدمتهم أو المفروض أن أكون كذلك . هذه هى المسألة فلا تستمع إلى من يقول أن بينى وبينه ودا مفقودا ، ولا تستمع أيضا إلى من لا يعجبهم المأمور ، بالعكس من الممكن لأى مواطن أن يتكل على عدالته بدون أن يطلبها ، اللهم إلا إذا تدخل أولئك الذين لا طاقة له بيهم : بيت الباشا .

أصبحا صديقين جادين فيما يدور بينهما من حديث وهما يتناولان الطعام معا على مائدة واحدة كلما التقيا . فلما دخل الشيخ عباس البورصة ، جارا يونس عبد الله من كمه تشجيعا ، قدمه إلى حسين أفندى فريد بوصفه «صديقى وبلدياتى يونس عبد الله» ، فجلس يونس عبد الله على مقعد خامس مع باشكاتب المركز شخصيا على مائدة واحدة فى بورصة كوستا وتبادلا الحديث فى يوم من أيام عمره لا ينساه .

جاء يونس عبد الله مهرولا إلى أن انتهى إلى الشيخ عباس فى «منضرته» فأنهى إليه أنه كان فى سوق «الاثنين» فى البدارى ، وكان مارا بجوار المركز حين أدركه على فلفل الفراش وطلب إليه أن «يكلم البيه الباشكاتب» ، الذى لمحه من نافذة غرفته . فلما ذهب إليه قال : قل للشيخ عباس أننى أريد أن أراه غدا أو بعد غد على الأكثر فى البورصة كالمعتاد ، فلما ذهب إليه فى الغد تحدث إليه حديثا حميما .

قال : أنه فى نطاق إحكام الانجليز قبضتهم على الادارات المحلية قد صدرت التعليمات بإشغال وظائف العمد الشاغرة . وأنه قد وقع اختيار المديرية على من رشحه عبد الرحمن بك محمود ليكون عمدة الهمامية . أنه صديق محمود حماد . اندهش الشيخ وقال : كيف ؟ أنه كالغريب فهو من بيت ليس له عائلة فكيف يحكم العائلات . ضحك وقال : لقد رد المأمور علي ضابط المباحث حين قال ما قلت . قال المأمور : هذا اعتراض مرفوض مقدما لأننا لسنا فى وقت أهل الكفاءة بل وقت أهل الثقة ، ونعرف كلنا أن صديق كان من سنين طويلة أذن الادارة وعينها فى الهمامية والقرى المجاورة ، ولعب دورا مشهودا فى الارشاد عن مخبأ سند عثمان ، كما أنه أذن وعين وذراع عبد الرحمن بك محمود فى مراقبة حراس وزراع جزيرة الحكومة التى يستأجرها فى الهمامية ، وردعهم إذا اقتضى الأمر ، فهو يتردد كثيرا على «ساحل سليم» وله حظوة لدى من رشحه . فقال الشيخ : هل معنى هذا أن المأمور موافق . قال حسين أفندي : لا . هو غير معترض وغير موافق .

هذه هى طريقته . لقد أعد ردا على اخطار المديرية لا يتضمن اعتراضا إنما «يضع تحت نظر المديرية» أن المرشح أمى لا يقرأ ولا

يكتب ، «وحيث أننا فى حالة استثنائية دقيقة بالنظر لحالة الحرب والاحكام العسكرية وقد يلزم الأمور اطلاع العمد على بعض الاسرار أو الكتابة لهم بهذه الاسرار التى لا يجوز أن يطلع عليها أحد غيرهم» ، فيرى المأمور «تأجيل التعيين الرسمى لمدة شهرين وتكليف المرشح بأن يتعلم القراءة والكتابة» . و «المركز مستعد أن يخصص له مدرسا من مدرسة البدارى ليعلمه» . وفى آخر الرد : «ملحوظة : فاتنا أن نذكر أن المذكور لا يملك إلا فدانا ونصف وليس له مورد مالى آخر ولا صنعة فربما يضطر لتغطية تكاليف العمودية إلى ما لايليق بوظيفته خاصة وأن الشيخ محمود عبد اللطيف عيسى يقوم بمهام الوظيفة بكفاءة ونشاط كنائب عمدة هو رجل غنى ولا يشتكى منه أحد منذ استقالة شيخ المشايخ السابق وتحويل المشيخة إلى عمدية . «متى سيرسل الرد ؟ بعد أن يستعجلوه مرتين على الأقل . هذا من ضمن طريقته . أى أن هناك فرصة شهرين على الأقل قبل أن يبت فى أمره والبركة فيك . قال الشيخ : أية بركة ؟ لقد قلت لك من قبل أننى أفقر من أن أكون عمدة أمينا . قال : ليس هذا هو الموضوع . أنا أعرف . ولكن الموضوع أخطر من هذا . فقد تم وضع نظام عام «لتطويع» الناس للخدمة وراء جبهات القتال، خلاصته وشرح له خلاصته . قال الشيخ : كيف يوافق المأمور على مثل هذا النظام . قال : لا تخف فللمأمور طريقته فى عرقلة هذا النظام وهو على اتصال يومى تقريبا بمأمور مركز اسيوط . الحقيقة أن مجموعة من رجال الادارة الوطنيين على رأسهم مأمور مركز أسيوط يتداولون فى كيفية حماية الناس من هذا البلاء بدون الخروج الصريح على التعليمات . لست أعرف ما يفكرون فيه لأنهم يكتمون أمره وقد

خطر لى أن ألفتك إلى الخطر القادم لعلك تستطيع أن تفعل شيئا لحماية الناس .

ماذا أفعل ؟ للأسف أننى لا أعرف ما يفكر فيه المأمور ، ولكنى أعتقد أنه من المفيد أن يتمسك الأهالى بمبدأ التطوع منذ الآن قبل أن تداهمهم لجان التطوع ، وعلى أى حال ثقوا فى المأمور فإنه سيقود المعركة ضد سلطة الاحتلال ، وسيقودها بكفاءة بطريقته . ولكن لا يمكن الاتكال على مقدرته مائة فى المائة ، لابد أن يدافع الناس عن أنفسهم . أن يرفضوا التطوع . أن يخطروا كل السلطات بأنهم يرفضون التطوع. قال : سأتدبر الامر مع أهل البلد وأعود إليك . قال : لا تعد . لن تجدنى . لقد استعجلت حضورك لأودعك ، فقد كان أول ما رأى المأمور أن أكون بعيدا عن المركز فى الفترة القادمة . لم يقل لى لماذا ولكنى فهمت أنه يرى ألا تنسب خطته الخفية إلى تأثير أحد أعوانه من عائلة فريد بك . ولثقتى فى وطنيته وكفاءته لم اعترض ، وقد طلبت فعلا أجازة مرضية ووافق عليها ، وسأغادر البدارى بعد غد الخميس فاستودعك الله. حرض الناس على المقاومة إنها فرصتهم فى البقاء وربما تكون فرصتك .. وافترقا ...

(٤)

عاد إلى منضرته مهموما ، فأرسل يستدعى الإمام الشيخ أحمد معتوق وحسين عيسى ومحمد عطية ، ودويب حسن ، وأحمد عبد اللطيف . كلهم من جيله وإن كانوا أكبر منه سنا وكل منهم ذو كلمة نافذة فى عائلته. سهروا معا حتى الصباح يتشاورون ويتداولون فى

كيفية وقاية القرية مما هو آت . ثم اتفقوا على أن يحصوا الرجال فى القرية عددا ، ويكتبوا بأسمائهم عريضة يوقعون عليها جميعا أو يختمون أو يبصمون ، يخطرون بها الحكومة وفروعها وكل مسئول فيها بأنهم ، أهل الهمامية ، قد بلغهم ما بلغهم وأنهم لا يقبلون التطوع ولا يريدون أن تحضر لجنة الدمرداش إلى قريتهم وإذا حضرت فإنهم لن يقبلوا فى «هذا أى كلام تانى» ، وإذا كان «لابد» من التطوع فهم مستعدون أن يتطوعوا فى «الجهادية المصرية» ، وأن يختموا العريضة بالتماس إلى الحكومة بحمايتهم من خطفهم «حتى لا يختل الأمن وتبور المزارع» واتفقوا على أن تكون من ست نسخ . واحدة للمأمور . وواحدة لمعاون البوليس . وواحدة لمدير المديرية . وواحدة لحكمدار المديرية . وواحدة لوزير الداخلية . وواحدة لرئيس الوزراء ، وأن يذكر فى أولها أنها موجهة إلى كل هؤلاء ليعرف كل واحد منهم أنها وصلت غيره . وأن تكتب أسماء الرجال فى آخرها ويبصم كل واحد منهم أو يختم أو يوقع أمام اسمه . تلزم كمية من الورق المسطر . خمسون فرخا . وتلزم ختامة سوداء مثل التى يستعملونها فى المركز . غدا الاربعاء سوق طما فيا ولد يا فوزى من الفجر تذهب إلى طما وتشترى ختامة وخمسين فرخاً أبيض مسطرا . وبالمرة «دواية» حبر وريشتين . «بسن حديد» ..

على بركة الله . الفاتحة يا رجالة وربنا ينصرنا على من يعادينا . أضاف الشيخ أحمد معتوق الذى اقترح فكرة التطوع فى الجهادية المصرية : وينجينا مما لا نطيق ، قرأوا الفاتحة جهرا وانصرفوا على موعد بعد ظهر غد .

بعد ظهر غد كان الشيخ عباس قد انتهى من «تحرير» العريضة .

فلما حضر الآخرون وقد جاء معهم غيرهم تداولوا فى كيفية كتابة الاسماء وانتهوا إلى أن تكتب تبعا لترتيب العائلات من «بحرى البلد» إلى آخرها جنوبا . يكتب أولا اسم العائلة تتلوه أسماء «الرجالة» بيتا بيتا . هذه هى أسهل طريقة خوفا من «الغلط والنسيان» . وقال محمد عطية : أحسن تكتب أسماء «رجالة» كل عائلة على فرخ ورق منفرد حتى يمكن جمع الاختام بأسرع ما يكون . قال أحمد عبد اللطيف يلزم إذن لكل عائلة ستة فروخ للأسماء . فرخ لكل نسخة من العريضة . قال معوض الذى لم يقل شيئا من قبل ، يعنى تلزم ختامات بعدد العائلات . كل واحد منكم أنتم رؤساء العائلات سيأخذ «فروخ» أسماء رجال عائلته ويحصل على «أختامهم» فيلزم أن تكون معه ختامة مخصوص . قال الغلام فوزى : أذهب غدا إلى طما واشترى ختامات . نهره نويب حسن قائلا : «يا ولدى بكره الخميس مافيش سوق» . قال فوزى : «ما أنا اشتريتها من الدكان اللى قبلى السوق وده فاتح على طول» .

عقب على حامد حماد : ألا يلزم أن «تعمل» نسخة خاصة نقدمها إلى «بيت الباشا» صمت الجميع ، وتطلعوا إلى الشيخ عباس الذى تأمل على حامد ثم قال ببساطة : «مافيش داعى» . فبدأ الناس يؤيدون . قال على حامد : «طيب ألا ننتظر صديق ابن عمى» . قال أحمد عبد اللطيف بحدة : «صديق غايب له أسبوع ماحدش عارف هوه وين ولا هيجى ميته ، وهوه يعنى صديق اللى عيكمل العدد ..» فلم يعقب أحد .

يوم الجمعة اتفق إمام المسجد الشيخ أحمد معتوق والشيخ عباس على أن يلقى هذا الاخير خطبة الجمعة وعلى ما يعظ به الناس فيها . فلما صعد المنبر استغنى عن اللغة العربية الفصحى وعما تحمل لهجته

من كلمات قاهرية وتحدث إلى «بلدياته» بالأسلوب الذى يتحدث به إليهم فى «المنضرة» . شرح لهم الحرب وأهوالها ، والهلاك الذى ينتظر من يذهبون إليها أو يقتربون منها ، والنظام الذى سيصطادون به الشباب والرجال ، وركز على تفسير كلمة «التطوع» وأنه لا يلزم المسلمين حتى لو طلبه ولى الأمر مادام تطوعا في حرب بين غير المسلمين . واستشهد بأن «لنا عارفين أن عمنا الأمام أحمد معتوق دايما يوصينا بطاعة ولى الأمر وأحنا خدنا رأيه إذا غضبوا علينا في التطوع هل نقبل أم لا . أفتى الأمام ، «وأهو حاضر فى المسجد» أن حكم الاسلام هو لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة لأن المتطوع يلقى بنفسه فى المهالك ، وألا طاعة فى معصية ، وخدمة غير المسلمين في الحرب معصية ، فاعتصموا بحمل الله ولا تفرقوا ، ووقعوا جميعا على العريضة ، وليبلغ الحاضر منكم الغائب . وأضاف من عنده إلى الدعاء بأن يحفظ المسلمين من مخاطر التطوع فقالوا آمين ، وختم بأن لعنة الله على من يتطوع بالخدمة فى حرب الكافرين .. فقالوا آمين ، وأقيمت الصلاة .

بعد أن قضيت الصلاة من يوم الجمعة دعا ممثلى عائلات القرية إلى الاجتماع بعد صلاة المغرب فى المنضرة للبدء فى كتابة قوائم المهددين بالتطوع . قائمة لكل عائلة . دعا حسين عيسى ، ودويب حسن، ومحمد عطية ، وأحمد عبد اللطيف ، ويونس رزق ، وعبد العزيز خزعل، والشيخ أحمد معتوق ممثل الاشراف . وقضى هو ما بعد صلاة الجمعة إلى ما قبل صلاة المغرب يسطر الأوراق ويكتب العناوين ، تمهيدا لكتابة الاسماء متتالية على الاسطر الافقية فيما بين الاسطر الرأسية تحت العناوين العائلية . كان يجيد الخط ومع ذلك فقد استنفد وقتا طويلا فى

تجويده . يرسم ويكتب ثم لا يعجبه ما كتب ورسم فيعيده . الحبر الاسود يزيد الخطوط ظهورا فإذا بها ملفتة . هو يريدها ملفتة . وليتسق لون الخط مع حبر الختامة . ولكن الحبر لا يجف سريعا فيستعجل الجفاف بأن يرش عليه ترابا ناعما . لكنه من فرط حماسه يستعجل التراب فينفضه قبل أن يمتص كل الحبر ، فيكتشف خروج بقايا الحبر على الخطوط ووصلها حروفا لم تكن فى الأصل متصلة ، فيعيد الكتابة والتسطير . الواقع أنه لم يضق بكل هذا ولم يتعب ولم يمل فقد كان يكتب ويسطر ويعيد وقد سيطرت عليه نشوة غامرة ، كما لو كان يكتب شهادة نجاحه ووثيقة تحرره . وأنه ، وهو يعمل بيده ، ليتذكر بسرعة مذهلة ما قاله لنفسه وهى تحاوره فى حديقة الازبكية . إنه منذ أن حضر إلى القاهرة لم يتحرر قط من الشعور بالغربة «إنى غريب عن الناس والاشياء والمعانى . إننى أنتمى إلى الهمامية فسأنقذ نفسى وأعود إلى هناك» .

ها هو أخيرا فى الهمامية يمر بتجربة فريدة . أوحى إليه حسين أفندى فريد بميدان معركة يخوضها دفاعا عن أهل قريته التى ينتمى إليها . دعاهم ، أولئك الذين ينتمى إليهم ، فاجتمعوا إليه . حرضهم ، أولئك الذين ينتمى إليهم ، فاستجابوا له . اقترح اسلوب المقاومة عريضة يوقعونها فقبل ، أولئك الذين ينتمى إليهم ، اقتراحه . تكاثر حوله الناس ، أولئك الذين ينتمى إليهم ، شيوخا ورجالا وشبابا وغلمانا وأطفالا . يحيطون به عاطفين ، وينصتون إلى ما يقول معجبين ، وينفذون ما يريد طائعين ، ولا ينطقون إلا بما يرضيه منهم فيرضيه عن نفسه .

(٥)

انتهى ما أراد ثم قام ليؤدى صلاة المغرب فى المسجد على غير عادته . قيل له أن المسجد مغلق الناس لا يصلون المغرب فيه ولا العشاء. سأل مستنكرا : منذ متى ؟ وقيل : من زمان . قال : ولماذا ؟ قيل : «من يوم ما تكسر الفانوس السنة اللى فاتت وراح ولد فرغلى المزين يصلى المغرب فى الضلمة وقرصته عقرية والناس ما عتروحش في الضلمة» . فاستشاط غضبا حقيقيا ، وأمر بأن يرافقه من يرافقه «بالكلوب» . فحمل واحد ممن يتبعونه الكلوب وسبقه . ينور له الطريق إلى المسجد . صلوا جميعا المغرب وأمهم فى الصلاة . ثم جاء غيرهم يصلون على نور بدون إمام فاقترح واحد من الشيوخ أن يبقوا يذكرون الله ، على النور ، حتي صلاة العشاء . .لم يعترض . لم يستطع أن يعترض . كان فرحا بأن يكون إماما ومنبرا للمصلين . ولكنه هرول بعد العشاء عائدا إلى منضرته ، يتبعه من يتبعه لعله يدرك صحبة الذين ينتظرون منذ المغرب هناك . سأل عما إذا كان قد حضر إليه أحد من الرجال : حسين عيسى أو دويب حسن .. إلى آخرهم . فقيل له لم يحضر غير أحمد عبد اللطيف منذ ربع ساعة ولما وجد أن المنضرة مغلقة إنصرف ولم يقل شيئا ، فأرسل إليه يونس عبد الله ، رفيقه الدائم يستدعيه .

إلى أن جاء أحمد عبد اللطيف كان قد استقر على ألا يستقبله مؤنيا أو عاتبا على أنه لم يحضر في موعد المغرب ، فهو نفسه لم يكن حاضرا. ثم أن أحمد عبد اللطيف أكثر من الآخرين مودة ، ربما لأنه ابن خاله ، وربما لأنه أقربهم إليه سنا ، عليه إذن أن يبرر استدعاءه بما

يرضيه وأن يتجاهل ذكر الآخرين إلا إذا ذكرهم أحمد عبد اللطيف .

السلام عليكم ، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته . لم أطق صبرا حتى الصباح لاراك فلعلى لا أكون قد أزعجتك . دعوتك مجابة فى كل وقت . هكذا تكون الأصول بين الأقارب . والمعزة فوق القرابة يا أحمد وأنت عزيز . «الله يعز مقدارك» . الحقيقة أننى أشعر بالارهاق وأعتقد أننى أديت ما هو واجب علىّ ، ولابد من أن يتولى باقى الأمر من هو أقدر منى على مواصلة أدائه . أنت خير من يؤديه . ففكرت فى أن أنام مرتاحا بعد أن أنقل الأمانة إليك . فاحملها يا أحمد وتوكل على الله .

قال هذا ثم دفع إلى أحمد بالعريضة والختامات وكل الأوراق المسطرة والمكتوبة ، وقال له أن يتصرف فى الأمر كما يرى . يوزع قوائم العائلات على الأخوان أو لا يوزعها ، يجمع الاختام والبصمات أو لا يجمعها ، المهم أن تكون العريضة والاسماء والاختام جاهزة لنتوجه سويا إلى البدارى ونرسلها إلى من هى موجهة إليهم بالبريد «المسوكر» . نعم فلن أتحرك بعد اليوم إلا معك ولن أفعل شيئا إلا بمشورتك فانت «ولد خالى» وعزيز على .

لم ينطق أحمد عبد اللطيف كلمة . كان مشغولا وهو يستمع إليه باختبار مواطن الريبة فيما يستمع إليه . لماذا تغير الشيخ عباس فجأة فأصبح ودودا متواضعا وعهدى به أنه جاف المعاملة مستكبر . هل بلغ حديث القرية منذ ما بعد صلاة الجمعة وما يقال عنه وعن عريضته .

إن كان قد بلغه فقد بلغه كيف دافعت عنه وعن خطبته فى المسجد هو هذا . مد يده صامتا وحمل الأمانة ، و همهم ، توكلنا على الله .ثم

قال : امهلني جمعتين وسأعود بكل شئ جاهزا لنذهب معا إلى البدارى . قال : ألا ترى أن جمعتين كتير. قال يا ولد عمتى لقد ارتفع منسوب المياه الحمراء فى الترعة وهى بشير الفيضان وانذار للناس بأن يسارعوا إلى قطع «القيضى» وجمع المحاصيل . فالناس متفرقة الآن فى الغيطان . والرجل الذى اسمه عبد المعز حسين وزع «عرابين» على الذين سيذهبون إلى الغرب لجمع القطن ، وهكذا ترى أن الناس مشغولون الآن بأرزاقهم فلا يمكن جمعهم أو اجتماعهم إلا بعد شهرين على الأقل . قال : لقد قلت إسبوعين . قال ضاحكا إنه القسط الأول . أنا أحاول ارضاءك فأتحدث إليك «بالقطاعى» . بعد أسبوعين كنت سأطلب إليك الانتظار «كمان جمعتين» وضحكا معا ...

قال : طيب يا ولد خالى . ولكنى كنت أريد أن أعرف منك الجواب على سؤال لا أعرف له جوابا . قال : خير . قال ضاحكا : «بس مرة واحدة مش بالقطاعى» . ثم جادا : ما هى حكاية ولد خالى الشيخ محمود عبد اللطيف . أنه نائب العمدة وعنده الخفراء وهو مسئول عما يجرى فى القرية ومع ذلك لم يحضر اجتماع الناس فى أى يوم ولا حتى فى صلاة الجمعة . ولم يظهر اهتماما بما يهم الناس . إننى فى دهشة من موقفه السلبى .

تأمله أحمد عبد اللطيف بعينين ضيقتين ولم يرد حتى استعجل رده . فقال بنبرة عتاب : «طيب يا عباس يا ولد عمتى لما أنت عارف أنه هو نائب العمدة المسئول عما يجرى فى القرية ، لماذا لم تجر إليه يوم حضرت من البدارى لتعرض عليه ما سمعت وتأخذ رأيه قبل أن تشيع رأيك فى الناس ، خاصة وأنه بحكم سنه فى منزلة الوالد» . هم بأن

يقاطعه ولكنه استرسل : إنك لا تعرف يا عباس ماذا يقال فى القرية لأنك لا تقابل إلا من يأتى إليك . وأغلب الذين يأتون إليك يحضرون مراقبين ومترقبين أن يعرفوا «أية آخرة الحكاية» . حماسك الشديد لما تقول أنه دفاع عنهم أعجبهم ولكن لم يصدقوه لانهم لا يتذكرون لاهم ولا اباؤهم أن أحداً دافع أو يدافع عن أحد من غير عائلته إلا «لمصلحتها» . والشائع فى القرية أنك تمهد بكل هذا لتكون عمدة .

وهذه الشائعة قديمة . فمنذ أن حضرت من مصر وهدمت البيت القديم وبعت نصف المواشى وبنيت هذا البيت والناس تقول أنك تجهز مقرا يليق بالعمدة ، وللكلام أصل ، فقبل أن تحضر قضى أخواك مرسى واسماعيل أكثر من سنة وهما يضربان الطين طوبا تمهيدا لحضورك ويرددان أن ذلك اعداد لمقر العمدية ، وعلى رأى المثل «مافيش دخان من غير نار» . وطبعا الشيخ محمود شعر بأنك تعد نفسك «لترثه وهو حى» لابد أن يكون قد تأثر بهذا الشعور فصدق أن حكاية لم الناس والاجتماعات والعريضة القصد منها العمدية .

قاطعه غاضبا : أعوذ بالله . الشيخ محمود يظن بى هذه الظنون ، يتناسى أنه ابن خالى والخال والد ، قم بنا نذهب إليه .

قال : لا . لا. طول بالك ودعنى أكمل حديثى حتى لا تقول أنه بالقطاعى .

أخى الشيخ محمود رجل طاعن فى السن كما تعرف ، وقد مل العمدية التى أفقرته بعد أن كان غنيا ومازال يتمنى أن يتركها ولو بالموت فقد مل الحياة ذاتها . سأل : أفقرته ؟ كيف ؟ قال : طلبات

الموظفين لا تنتهي . إنهم غرباء في بلاد لا توفر لهم ما تعودوا عليه من مسكن ومأكل وخدم فيطلبون ما يحتاجون إليه من العمد ، والعمد لا يطلبون له ثمنا وهم لا يلحون . أحكي لك آخر حكاية «عشان تضحك بدل ما أنت مكشر وعشان أن كنت بتفكر في العمدية تراجع روحك قبل الفاس ما تقع في الراس» . منذ شهرين استدعى معاون الادارة الشيخ محمود . فلما ذهب إليه في مكتبه استقبله واقفا وقال «تفضل يا عمدة» الشيخ محمود أخي قال لي أنه شعر مباشرة أن في هذا الترحيب الغريب ما يريب فقال لنفسه اللهم اجعله خيراً .. بعد السؤال عن الصحة والقهوة قال له بمودة بالغة «يا شيخ محمود أنت عارف طبعا أن لي ولدا في المدرسة الابتدائية . ألست أمه يا سيدى كانت قد نذرت أنه إن نجح هذا العام تدعو زملاءه في الفصل إلى وليمة تذبح فيها ثلاثة ديوك رومي بيضاء . يكون ريشها كله أبيض بدون أية علامة سوداء ، وقد بحثنا في البداري كلها عن ديوك رومي بيضاء فلم نجد . ففكرت أنه ربما يكون عندكم في الهمامية أو القرى المجاورة ، فارسلت إليك راجيا أن تبحث لي عن طلب الست حتى لا تزعل الست أو يحدث ما يسيئ إلى الولد نتيجة عدم الوفاء بالنذر» . قال له أخي الشيخ محمود : غالي وطلب رخيص . الديوك الرومي البيضاء موجودة بكثرة في جهتنا . وان شاء الله قبل نهاية الاسبوع أرسلها إليك مع أحد الخفراء أو أحضرها بنفسي . قال معاون الادارة : لكن بالثمن طبعا . قال أخي : طبعا طبعا . بعد أسبوع أرسل إليه ثلاثة «دكور مالطي » (ديوك رومي) .

قال الشيخ عباس مستغربا : بيضاء .

قال أحمد عبد اللطيف : «بيضاء إيه يا ولد عمتي هو فيه في الصعيد دكور مالطي بيضاء أرسل إليه ديوكا سوداء مما هو موجود ..

قال الشيخ عباس : لكن الشيخ محمود قال أنها موجودة بكثرة وأنا استغربت . قال أحمد عبد اللطيف : لأنه من كثرة خبرته مع الموظفين فاهم كلامهم ، ففهم منذ البداية أن معاون الادارة يريد ديوكا رومية ، بيضاء أو سوداء لا يهم ، المهم أن تكون «هدية» بدون مقابل وهذا ما تم فعلا . أخذ المعاون الديوك السوداء وشكر الشيخ محمود ، ولم يهتم لا باللون ولا بالثمن .. وهذه هي العمدية . فهل تريد أن تكون عمدة . ؟

ضحك وقال : لا والله . ولكن ليس من أجل الديوك . مسألة الديوك بسيطة . ما علينا ، المهم الآن كيف نرضي الشيخ محمود .

قال أحمد عبد اللطيف : نأخذ رأيه . إنه طاعن في السن ولكن «واعر ونابه أزرق» .

قال وما هو رأيه ؟

قال : أخشى أن أنقل إليك ما قال فتغضب .

قال : كيف أغضب منه وأنا أريد أن أرضيه .

قال : ذنبك على جنبك، على أي حال لقد غير اليوم رأيه . إنما في البداية تحدث معي عن الموضوع منذ أول اجتماع لنا يوم الثلاثاء الذي فات . عدت الى المنزل في الفجر فوجدته يصلي في «منضرتنا» انتظرته. ختم الصلاة ثم سألني أين كنت فحكيت له الحكاية . فقال : يا أحمد يا أخي أن عباس «ولد عمتنا» كبر سنا ولكن يبدو أنه لايزال طائشا كما كان وهو صغير . إن ما تدعون اليه وما ستفعلونه «كلام فاضي لا يودي ولا يجيب هلبت ما يضر ويكره تشوف » لو أن أحدا

هددك بالقتل يا أحمد فالي من تشتكيه ؟ قلت الى العمدة . وإذا سرقك أحد فالي من تشتكيه ؟ قلت الى العمدة . قال طيب افترض إن العمدة غائب واقترح عليك أحد أن تشتكي القاتل الى القاتل والسارق الى السارق ، فهل تفعل : طبعا لا . سأل : لماذا ؟ فلم أعرف الرد . قال لأنك إن تفعل تنبه الفاعل الى أنك عرفت أنه الفاعل وأنك ستشكوه الى الحكومة. فربما يقتلك فعلا حتى لاتشكو أو يجهز شهودا على أنه لم يكن موجودا في البلد يوم الحادث . صح . ؟ . قلت : صح . قال هذا بـ «الظبط» ما تريدون فعله تريدون أن تشتكوا الحكومة الى الحكومة . أن تطلبوا من الحكومة أن تحميكم من الحكومة . أكثر من هذا أن تقدموا الى الحكومة قائمة بأسماء غير المتزوجين من الرجال ما بين سن العشرين والأربعين ، مع أن الحكومة لاتعرف عددهم أو أسماءهم . لاتعرفهم يا أحمد إلا إذا سألتني أنا لاني وحدى الذى يحتفظ بدفتر المواليد ودفتر الوفيات . ولو سألتني وقلت لها الدفتر ضاع فلن تعرفهم أبدا وهذا خير للبلد . ربما تفصلني من المصيبة التي أنا فيها «فيبقى خير وبركة» . أما ما تدعون إليه وتفعلونه فهو كلام فاضي .

هكذا تحدث أخي ثم تركني إلى داخل الدار . بعد خطوتين التفت إليّ وقال : قل لعباس ولد عمتك « سيبك من العك في بلاد أنت متعرفهاش» ، أما عني أنا «فلا حضرت ولا سمعت ولا شفت ولا عرفت ولا عاوز نعرف لا أنا ولاخفرائي وأنتم حرين » .

صمت أحمد عبد اللطيف نادما على ما قال .

وصمت الشيخ عباس مغيظا مما سمع .

هم أحمد عبد اللطيف بالوقوف لينصرف فأوقفه الشيخ عباس

سائلا: هل لا يزال الشيخ محمود على رأيه هذا ، لقد سمعتك تقول فى البداية أنه غير رأيه . ارتاح أحمد عبد اللطيف للسؤال وقال : لا . أبدا . أبدا . لم أكن والله أعرف أنه يحبك وأن قلبه معك وخائف عليك إلى الدرجة التى عرفتها بعد ظهر اليوم .

قال بلهجة مستجدية : كيف كان ذلك يا ولد خالى .

ضحك أحمد عبد اللطيف فكشف عما تناثر فى فمه من زوائد عظيمة داكنة وقال سعيدا بلهفة صاحبه : هذا سر وافتعل ضحكة أخرى .

– وهل توجد بيننا أسرار يا أحمد . نحن أخان .

– طبعا . ولكنه سر بينى وبين أخى الأكبر . وأنت أخى الأصغر . والكبير مفضل أليس كذلك . وضحك مرة ثالثة ضحكة ساخرة .

– كما تشاء .

قال جادا ، يبدو أن لم يبلغك ما جرى منذ صلاة الجمعة .

– لم يبلغنى ، ما الذى جرى ؟ الواقع أن لا شىء يبلغنى مما يجرى فى البلد .

– إلا ما يسرك طبعا .

– وهل ما جرى منذ صلاة الجمعة لا يسرنى .

– أغضبت البلد كلها وهذا لايسرك .. وأرضيت أخى الشيخ محمود نائب العمدة وهذا يسرك طبعا . «مش إكُدهِ» ؟ .

– لا أفهم .

سحب أحمد عبد اللطيف قدميه المتدليين من «المركوب» ، ورفعهما

الى «الدكة» واستدار فواجه جاره عليها ، وتململ ليتأكد أنه مستقر فى جلسته ثم قال واعظا : «شف يا عباس» ، بعد انقضاء صلاة الجمعة وتواعدنا على اللقاء فى المغرب حمل الشيخ أحمد معتوق المصحف الكبير وذهب مهرولا ، مغيظا ، إلى نائب العمدة ، أخى الشيخ محمود ، وصحبه آخرون طلب إليهم أن يصحبوه وأن يكونوا عليه شهودا . فصحبه كل الآخرين الذين اجتمعوا من قبل فى هذه المنضرة وكانوا من المصلين . وطبعا أنا كنت هناك . وبعد السلام فوجىء الشيخ محمود والجالسين بأن الشيخ أحمد معتوق الامام فتح المصحف على سورة النور ووضعه على عينيه وقال مضطربا حتى ليكاد يبكى : أشهد يا عمدة . اشهدوا يا ناس . وحق هذا المصحف الشريف أننى لم اتفق مع عباس ولد محمد اسماعيل على أن يغير خاتم الخطبة وبدلا من الدعاء لولى الأمر بالهداية والتوفيق يدعو باللعنة على من يتطوع للخدمة فى حرب الكافرين . هل سمع منكم أحد طوال عمره أننى ألعن أحدا على المنبر ؟ ده حرام .

قالوا له : ما سمعناش .

قال الامام وقد بلغ قمة الانفعال : طيب إذا كان المصحف لا يكفيكم فعلىّ الطلاق ثلاثة من بيتى أنى لم اتفق مع عباس ولد محمد اسماعيل على لعن اللى يتطوع أو كفر اللى يسمع كلام الحكومة .

قال على حامد حماد : صادق يا شريف . ثم وجه حديثه الى العمدة . أصل المسألة يا حضرة العمدة أن عباس ده ولد عمتك مشاغب وثورجى وعايز يعمل فتنة فى البلد بين الاهالى والحكومة ودى حاجات تعلمها فى مصر «مش كان عيقولوا انه من شغول الخديوى . ده حتى ولد عمى صديق سمع الكلام ده فى مصر وشيع جواب » .

قاطعه أخى الشيخ محمود : هل ابن عمك صديق في مصر .. وماذا يفعل في مصر ؟

قال علي حامد : والله ما نعرف يا عمدة .

قال العمدة : « سيبنا من صديق . وأنتم يا رجالة كل واحد يروح لحاله وينتبه لمصالحه ويبعد عما يغضب الحكومة لأن ده حرام . مش إكده يا شريف ؟» .

قال الشيخ أحمد معتوق : يا حضرة العمدة ... « يا ناس يا مؤمنين. كلكم شهود على إنى طول عمرى أقول اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم وأن الحكومة هى ولى الأمر » تأمل العمدة ثم أضاف . « وطبعا رجال الحكومة وعمدها » .

قال الجميع : صح ، وانصرفوا وقد تداولت بينهم كلمات تقول «واحنا مالنا ياعم » .. « الحكومة غدارة» و «اللى خاف سلم» .

وقد حضرت اليك قبل صلاة العشاء لأبلغك ألا تنتظر أحدا ، لأن أحدا لن يحضر اليك فى المغرب كما تواعدوا .. ولا فى الصباح . «بصراحة يا ولد عمتى البلد كلها خايفة ومتشككة فى اللى بتعمله . ومقلوبة عليك .. ما هو برضه ما كانشى صح تختم الخطبة بلعنة الله على المتطوعين » .

قال بابتسامة هافتة : وأنت خايف يا أحمد .

قال : أبدا والله . ما ياخد الروح إلا خالقها . « دانا حتى مبسوط لأن أخى الشيخ محمود راضى عليك وخايف عليك برضه » .

– لماذا هو راض عنى ؟

– قال ضاحكا : لم يقل لى . ولكنى فاهم . قال كلمة واحدة قبل أن ينصرف . قال كما لو كان يحدث نفسه : على أى حال الخير فيما اختاره الله . « ده عباس حتى ولو كان عمدة فعلا كان اترفد » .

قلت له : يا خوى أنا قلت لك أن ولد عمتنا لا يفكر فى العمودية وأنت عايش .

– ولا وأنا ميت .

– اطمأنيت يعنى .

– له . أنا خايف عليه . لمونة فى بلد قرفانة وخايف يعصروه .

– ليه .

– علشان الكلام حيوصل المركز ..

قال عباس مقاطعا :

– كلام إيه ؟ ..

– كلام الخطبة .

– أخوك هو اللى حيوصلها ؟

– لا أعوذ بالله . دى شغلة وكيل شيخ الغفر ..

قال بحدة واثقة : لاتخف يا أحمد . وقل لاخيك : « الحذر لا يمنع القدر» .

ولقد هم أحمد عبد اللطيف أن ينصرف .

فقال له الشيخ عباس مجاملا : «لسه بدرى» .. فاستجاب سريعا .. ثم قال :

ألا ترغب عمتي من أن «تعشيني» . ضحك الشيخ وقال : طبعا . لقد أخذنا الكلام فنرجو ألا تكون قد نامت .. دعنا نرى . واتجه الى باب منضرته ليدعو مرسى أو اسماعيل أخويه المرابطين ليلا فى الردهة التى تطل عليها المنضرة ليكونا قريبين من أخيهما العزيز إذا ما احتاج الى أحد منهما .

غير أنه حين فتح باب المنضرة فى تلك الليلة ونادى : يا مرسى ، يا اسماعيل . لم يجب إلا اسماعيل . كان مرسى نائما على احدى الدكتين ويغط غطيطا متقطعا ينزعج له اسماعيل . هب اسماعيل قائلا : نعم . قال له أخوه : انظر فيما إذا كان لدي والدتك شيء نتعشى به . قال حاضر ودخل الى الدار . لم يغب طويلا . عاد وأطل برأسه داخل المنضرة وقال آسفا : يا أحمد يا ولد خالي أمي نامت فهل أوقظها . قال أحمد : لا . لا . لاتزعجها أني منصرف لادرك زوجتي قبل أن تنام . نهض وقال : نكمل الكلام بكره .. قال : احضر إليك أم تحضر أنت . قال : سأحضر غدا قبل الظهر . قال : عظيم وسنتغدى معا إن شاء الله.

بعد دقائق دخل اسماعيل يحمل طبقا فيه حمامة محشوة فريكا ورغيفا من العيش الأبيض وقال : عشاك يا شيخ عباس قال عباس: «إيه الحكاية يا اسماعيل» ألم تقل إن أمك قد نامت فمن أين جئت بما يؤكل، وحمام أيضا . قال : من صفية امرأة مرسى جهزت لك العشاء ونامت هي أيضا . قال : ولكن ولد خالك كان يريد أن يتعشى .. قال ضاحكا : طب العشا من عمته وعمته نامت . قال الآخر ضاحكا : يا بخيل . قال : بخيل بخيل . البخل أفضل من خراب البيوت . تفضل . قال : تعالى نأكل سويا . قال : سأقفل الباب أولا حتى لا يشاركنا أحد

بشرط، قال ماهو الشرط يا أخى . قال هناك موضوع يشغلنى وأريد أن أتحدث اليك بشأنه فهل يمكن أن أنفرد بك غدا ولو نصف ساعة . قال إن شاء الله.

تعشيا . فقال متظارفا : هذه الوجبة تحتاج يا اسماعيل الى كوب من الشاى الثقيل . قال : ألا تريد أن تنام . قال شاكيا : والله يا أخى لم أعد أنام ، على أى حال دعنا نشرب شايا سويا ونتحدث فى الموضوع الذى يشغلك .

قال اسماعيل : حاضر .. خرج الى الردهة وألقم الكانون حطبا وأشعله ، وملأ «البراد» ماء من القلة ، وألقى فيه نصف حفنة من الشاى، ووضعه على النار الى أن يغلى ثم غسل كوبين من الزجاج وانتظر ماذا تفعل النار بالماء . وبدأ فى صياغة واعادة صياغة الموضوع الذى سيتحدث فيه إلى أخيه . كان يخشى أن يخطىء . لو كان يعرف الكتابة لكتبه . فلابد له من أن يحفظ صيغته حتى لا يخطىء .

لقد كان اسماعيل منذ أن حضر أخوه يلوذ بالصمت ويتفادى المناقشات والحوارات والاجتماعات خشية أن يخطىء فى حق أخيه الشيخ . ذلك لأن اسماعيل الأصغر فلاح «قرارى» ولا يستطيع أن يتصور عملا فى الحياة ذا جدوى غير فلاحة الأرض . حرثها وبذرها ، وزراعتها ، وحصادها ، وجمع محاصيلها ، ولم يكن يرى أن ثمة من هو أخيب من أخيه مرسى المشغول ابدا بما جرى فى بنى هلال ولم ينشغل بما يجرى فى الغيطان ابدا . وتلك خيبة يدركها . أما خيبة أخيه عباس فعصية على الادراك . ذهب الى الأزهر يتعلم فضاعت عليه سنين يأكل من عائد عرق غيره . وها هو قد عاد . الأمر المعقول أن يعوض ما ضاع من سنين زرعا مثمرا فى الحقول . ولكنه شغل نفسه بقراءة

«الجرانين» والكتب واخترع لنفسه حكاية العريضة والاجتماعات التى تستنزف مافى الدار من محاصيل شقى اسماعيل وهو ينتزعها من الأرض ويصبها فى الحاصل وأخوه المتعلم لا يسأل نفسه لماذا لا «يكد على روحه» ولماذا يعيش على ثمار عمل أخيه الصغير ونصر الجمال الرجل الفقير . ومع ذلك فهو أخوه . فليفترض أنه لم يعد من مصر . وليحرص على ألا يعارضه أو يعترض عليه أو يخدش هيبته أمام الناس أو أمام نفسه . وليصبر فالصبر جميل ..

غلى الشاى . فقضم من «قمع» السكر قضمتين وألقى بهما فى الشاى وهو يغلى ثم حمل البراد والكبايتين الى داخل المنضرة . وصب الشاب وقدمه الى أخيه ثم صب وقدم الى نفسه .. تسلم ايدك يا اسماعيل .. «شاى مزبوط» .. هه .. ما هو الموضوع الذى تريد أن نتحدث فيه ..

قال اسماعيل : والله يا أخى أنى لا أعرف «بالزبط» من اين أبدا الكلام. أنت رجل متعلم وتفهم كل شيء وأنا فلاح « زى تور الله فى برسيمه » فاخاف أن تكلمت أن أغلط . ضحك أخوه وقال : لا عليك يا اسماعيل : فنحن أخوة. فنظر إليه وقال : قل لى يا شيخ عباس ألا تنوى الزواج. فضحك الشيخ عباس وقال : ماالذى جعلك تفكر فى أننى أتزوج . أى زواج يا إسماعيل . هناك ماهو أهم من الزواج . قال اسماعيل : «زى إيه» ... قال : هذه أمور عويصة يا أخى ربما لاتفهمها ولكنى أقول لك ببساطة أن أهم من الزواج خدمة الناس . معرفة مشاكل الناس . ومساعدتهم على حلها . فى الزواج أنت تسعد امرأتك وتسعد نفسك ، لكن بخدمة الناس تسعد كل الناس . ما الذى أفعله أنا الآن يا

اسماعيل . أحاول أن أحفظ الناس من الهلاك فماذا تكون النتيجة ؟ يسعد الآباء والأمهات والأخوات بسلامة أولادهم ويسعد الأولاد بسلامتهم ، فيتزوجون ، يا اسماعيل ، ويسعدون أنفسهم ويسعدون زوجاتهم . « إيه رأيك » .

رأيي إنى « مش فاهم» إلا الكلام الأخير ، وفاهم أيضا أنك لا تنوى الزواج .

قال : فعلا يا أخى . إننى لا أنوى الزواج قريبا .

قال اسماعيل : أما أنا فانى نويت الزواج قريبا .. وأنى لأطلب الإذن منك ، إذ المفروض أننى لا أتزوج قبلك .

ضحك الشيخ وقال : إذن هذا هو الموضوع . ألف مبروك مقدما يا أخى . ومن هى السعيدة التى اخترتها . قال : أنا لم أختر . أبوك وأمك وعمك مشهور وامراته عَلأيه هم الذين اختاروا . فمنذ أن كنا أطفالا ، وأنت تعرف هذا ، وهم يقولون : اسماعيل لبخيته.. وبخيته لاسماعيل وقد قرأوا الفاتحة . . والآن مادمت لاتنوى الزواج فانى قد انتويت الزواج من بخيتة بنت عمى مشهور . قال على بركة الله .. هل تحدثت الى والدتك . قال هى موافقة . قال : خلاص . قال : لا «ماخلصشى» . لماذا يا اسماعيل ما المانع .

رفع اسماعيل صوته قليلا وقال : المانع أنت يا خوى .

جزع وقال : ليه ؟

قال : أنت مانع الزواج فى كل البلد .

قال : كيف هذا يا اسماعيل .

قال : منذ أن عرف الناس في القرية أن غير المتزوجين مهددون بأن يؤخذوا الى السلطة ركب الشبان عفريت اسمه «الجواز» . كل واحد يريد أن يتزوج . الآباء مشغولون بتزويج أولادهم « بأية واحدة» والأولاد يلحون، وأمهاتهم يبعثن المراسيل الى أمهات البنات ، ولا حديث في القرية إلا عن الزواج .

قال مقاطعا : لكن يا أخي لقد كتبنا العريضة التي تحميهم فمم يخافون .

قال : لا أحد يعرف أو يفهم كيف تحمي ورقة مكتوبة الناس من السلطة ، ورقة الكتّاب أضمن ، إلا أن الأمهات والبنات لا يردن الزواج .

قال : لماذا ؟

قال : أول مرة «الوليه العبيطة مبروكة مرت حسنين راحت لمرت محمد رفاعي وقالت لها سلفيني بنتك مجلعة يتجوزها ولدى علشان ما يخدوهشي في السلطة » . من ساعتها والناس يطلقون على الزواج هذه الايام زواج «سلف» يعني شحاته . وتأكد هذا الوصف لأن الآباء لايعرضون مهورا مناسبة بحجة «الظروف» فالكلام كتير ، والاتصالات متواصلة ، والرجال راغبون والنساء ممتنعات ، حتى بخيتة بنت عمي ممتنعة لأنها لا تريد زواج « سلف» فأنا أريدك أن تقابل عمي مشهور وتقنعه بأنها «جوازة مش سلف» .

ضحك وقال : حاضر يا اسماعيل سأقابل عمي غدا واتفق معه على مهر يرضيه فلا تظن بخيتة وأمها أنها سلف . ومع ذلك قال لي : متى

خطر لك أن تتزوج ؟ قال وهو ينصرف من المنضرة : « من يوم مافهمتنا أن السلطة لا تأخذ المتزوجين » .

تصبح على خير ..

(٦)

استيقظ بعد أن كانت أشعة الشمس قد غمرت بيوت القرية القائمة على سفح الجبل الشرقى، أى فى نحو الساعة التاسعة صباحا . فتح باب منضرته وأطل على الردهة فلم يجد إلا يونس عبد الله وفوزى مرسى . هبا واقفين حين رأياه . صباح الخير يا يونس . خير صباحين يا شيخ عباس . أين اسماعيل . اسماعيل ذهب هو ونصر الجمال منذ الفجر إلى سوق الريانية وأخذا البقرة السوداء . «أصلها كارفة» لها عشرة أيام فأخذاها الى سوق الريانية ليطلقا عليها ثور أولاد مصبح .

وأين مرسى . تفضل أدخل . دخل يونس عبد الله . فقال فوزى متوقعا جوابا : صباح الخير ياعم الشيخ عباس . فخرج اليه ضاحكا وطوق كتفيه الصغيرتين بيده وقال : صباح الخير يا حبيبى ، تعال أدخل أقعد معنا ، فقفز فوزى الى الداخل سعيدا. جلسا وبقى فوزى واقفا قال له بحنان عميق : أقعد يا فوزى . قال الصغير : « له . عيب » فضحك مرة أخرى وقال : طيب خد نيكله (نصف قرش) واذهب اشترى لنفسك «فول سودانى » وحلاوة من الدكان . خطف الغلام نصف القرش وانطلق يجرى حافيا .

أين مرسى يا يونس . قال يونس عبدالله : لقد تعارك مرسى مع

محمد عبد الله وأحمد عبد الرحيم «علشان المنضرة الكبيرة». كان اسماعيل قد طلب اليه أن يبلغ عمك مشهور أنك ستزوره اليوم فى بيته . فقال له لا أستقبله فى بيتى ولكن فى المنضرة . منضرة العيلة . وطلب منه أن يفتحها وينظفها بعد أن هجرت فأصبحت كالخرائب . ذهب مرسى إلى محمد عبد الله يطلب المفتاح فرفض محمد عبدالله . قال له : «عاوز مفتاح المنضرة ليه . مادام أخوك عمل له منضرة مخصوص وعزل حاله عن العيلة فخليكم يا بيت محمد اسماعيل فى حالكم بعيد عن منضرتنا .. وخلى أخوك ينفعكم » .. مرسى غضب ورد عليه ردا «وحش» فأحمد عبد الرحيم «اللى كان قاعد وسامع الكلام دعى على مرسى وقال له : «كيه تكلم عمك أكده يا قليل الحيا» . كتر الكلام فتكاثر الناس وعابو على مرسى كلامه فانصرف « زعلان» وغادر القرية الى الغيط .

قال الشيخ : ما سبب كل هذا يا يونس ؟

ضحك يونس عبد الله وقال : ولى الأمن من غضبك ، والأرزاق على الله .

فضحك الشيخ عباس وقال : طيب يا يونس عليك الامان . ما سبب كل هذا الذى يجرى فى العائلة .

قال يونس : عائلتك ، أولاد مشهور ، عندهم حق يا شيخ عباس . أنك حتى لم تلاحظ أنهم قاطعوا الاجتماعات ولم يشتركوا فى مسألة العريضة . لا أحد من كبار السن فيهم دخل هذه المنضرة إلا مرة واحدة يوم أن تم بناؤها حسب العادة مهنئا .. البلد كلها تعرف هذا

وتعترف لهم بالحق . انت متعلم وكبير مقام أى نعم ولكن العائلات لها أصول . المنضرة منضرة العائلة روك (شركة) بين بيوتها ومع ذلك قمت أنت ببناء منضرة خاصة ولم تهتم حتى بأخذ رأى أعمامك. أكثر أعمامك غضبا هو عمك مشهور لأنه ، حسب الأصول ، هو كبير العائلة بعد وفاة المرحوم والدك ، لهذا لا يريد أن تحضر اليه د سنزله ولا يريد أن يقابلك فى هذه المنضرة ويصر على أن تتم المقابلة فى منضرة العائلة التى لم يعد يتردد عليها أحد منذ أن فتحت منضرتك ..

اطمأن الى صمت الشيخ عباس فرفع صوته قائلا : «دا حتى الحريم زعلانة يا شيخ عباس ومعتد خلشى بيتكم » ..

قال بحدة : وما شأن الحريم يا يونس فى هذا الموضوع .

قال برقة ومودة رفيق الطفولة : « يا عباس يا خوى أنت عتتصرف من راصك ومعتخدشى رأى حد .. حد يا عباس فتح باب المنضرة على باب البيت . طول عمرك شفت حد عمل أكده .. طب والحريم تطلع وتدخل كيه .. أنت عملت أكده ولا له .. حبست حريمكم فى بيتكم وقطعت رجل حريم العيلة من كتر الناس اللى قاعدة فى المنضرة وقدام المنضرة « .. هل يصح هذا يا عباس لماذا لا تأخذ رأى الناس فيما لاتعرفه من أمورهم.

قال : ولماذا لم يقل أحد رأيه .

قال : لانهم غير فاهمين ماذا تريد مما تفعل سواء فى المنضرة أو حتى فى العريضة .. ولأنك ضيف ومتعلم لا يريدون مواجهتك بالسؤال أو الاعتراض . وأنا الذى نشأ معك ويحبك ويفديك بروحه ، والله

لولا أنك أعطيتنى الامان من غضبك عليّ لما قلت ما قلت . لكن الحمد لله «..ها أنت ذا قد عرفت سبب كل ما يجرى فى العائلة ، واجب عليك الآن أن «تسترضاهم » ..

قال مستنكرا : أسترضيهم ؟ .. قاتل الله الجهل . على أى حال أشكرك يا يونس على صراحتك . إن الذى يحيرني فى هؤلاء الناس أنهم يكتمون ما بأنفسهم وهم غاضبون .. هل ينتظرون أن يطلع أحد على سرائرهم ليعرف فيم يفكرون وهل هم راضون أو غير راضين .. لاتقل لى أنه الخوف .. مم يخافون . ثم أنهم يعبرون عن مواقفهم بالقطيعة الصامتة فلماذا لايعبرون عنها بالكلام الواضح . إنه الجهل يا يونس .. والظاهر من الأمر أنه لم يبق لى غيرك يا يونس .. فانت الوحيد الذى يصارحنى . أى أنت الوحيد الذى تقوم بينه وبينى صلة الادميين . تبادل الأفكار بالكلام .. أما المواقف الصامتة فتلك من خصائص البهائم .. يفرح الكلب فيهز ذيله ويغضب الحمار «فيحرن» . [illegible] ـرك . تعرف يا يونس لماذا فضل الله الإنسان على الحيوان بالكلام؟ «عشان يقول لا مش عشان يقول نعم . نعم مش عايزة كلام» . فبلدياتنا الذين يغضبون ولا يتكلمون أنعام .

ثم بترت ضحكته حين اندفع فوزى داخلا يمد يده بقرطاس من الفول السودانى وأربعة مليمات حمراء . : «اشتريت بمليم وآدى الباقى»..

الفول لك .. والباقى لك يا فوزى . لكن قل لى . لماذا أنت مرابط فى البيت هذا اليوم ألا تلعب مع أترابك ؟ .

قال الغلام على حياء ، لقد طلبت منى أمى أن أذهب الى الغيط لاستدعى «أبوى مرسى» وماذا تنتظر . لماذا لم تذهب كما قالت لك أمك.
قال الغلام : لأنها أوصتنى أن أقول لأبى أنك أنت الذى تريد أن يعود من الغيط لأنه ذهب اليه «زعلان علشان خاطرك» . حكيت الحكاية لعمى يونس فقال لى انتظر حتى يستيقظ عمك وخذ رأيه ، فانتظرت ، هل أذهب الى أبى ؟ .

قال الشيخ عباس : هل تعرف لماذا تريد أمك أن يعود أبوك ونحن بعد فى أول النهار .

قال الغلام : «اصله النهاردة السوق » .

فضحك يونس ..

وفهم عباس فضحك وقال : آه .. فهمت طيب يا فوزى . ثم التفت الى يونس .. من فضلك يا يونس تأخذ فوزى معك ، وتذهب الى حسن البِزْيِز الجزار وتطلب منه أن يحجز لنا نصف جدى ، وهذه عشرة قروش.

فصاح فوزى فرحا : نصف جدى ..

قال : عشان خاطرك يا فوزى .. ودس فى يد يونس عبدالله الذى نهض خمسة عشر قرشا . ثلاث قطع فضية . قال يونس : هذا أكثر مما قلت . قال بمودة وقد نهض يودع يونس ووضع يده على كتفه : هذا من أجل أمك وأخوتك الصغار .. وسلم لى عليهم . قال يونس عبدالله .. الله يسلمك ويخليك ويحط البركة فيك .. يا الله يا فوزى ..

انطلقا سعيدين ..

قال فوزى وهو يهرول ليبقى بجوار يونس : ياعم يونس هوه عمى عباس كان «عيضحك ليه» .

قال يونس : والله يا ولدى ما عارف . «إمكن كان زعلان» .. أذهب أنت سريعا إلى الغيط واستدع أباك حتى لا تزعل أمك .

(٧)

طرق الباب بقبضته فنادته من داخل الدار : من ؟ .. قال : أنا عباس افتحى يا صفية . استمهلته قليلا ثم فتحت الباب وتنحت ثم قالت : تفضل . خطوة عزيزة . لنا جمعة لم نرك وأمك «قلقانة» . «إيه يا سلفى بس اللى إنت شاغل بيه روحك . لا أنا عارفة ولا مرسى عارف . قلت له يا مرسى يا ولد عمى أخوك عيعمل إيه مع الناس دى كلها قال والله ما أنا عارف» . قال لها ضاحكا : وهل تعرف أمى ؟ .. قالت ضاحكة : «يوه . عمتى عتعرف كل حاجة بس أنا مسألتهاش» . قال : أين هى ؟ . قالت أمه من داخل الحجرة حجرتها : «أنا إهنه تعالى يا عباس يا ولدى .. بنت يا صفية هاتى حاجة لسلفك يبلع ريقه (يفطر)» . حاضر .

صباح الخير يا أمى .

صباح الخير يا ولدى .

لقد ترهلت أمه . جلس أمامها على حصيرة عليها فروة خروف تجلس عليها وقال : كيف أنت اليوم . قالت : «أهه . زى كل يوم .. الله حسن الختام» . قال : «ربنا يخليكى لينا» .

قالت : «ويخليك ويسترك ويحميك من اللى يعاديك يا عباس يا ولدى».

جاء الإفطار . بيضتان غارقتان فى الدهان و«بتاوة» قيضى مقمرة .. نظر إلى صفيسة فقالت : هذه تصبيرة إلى أن يأتى العشاء بالفطير والمرق واللحم .. بعد عودة مرسي . قال لها : لقد حجزت لكم اللحم . نصف جدى . وأرسلت فوزى ليستدعى والده .. فقالت : «ربنا يخليك لينا» ، أذهب أنا إذن أجهز العجين والفرن والكانون .

قال : يا أمى أنى أريدك أن تصحبينى إلى بيت عمى مشهور نخطب بخيتة لاسماعيل . ولأن عمى مشهور غاضب منى فوجودك معى يخفف غضبه .

قالت بصرامة : «وهو مشهور زعلان ليه» .

قال : من أجل المنضرة . لابد أنك تعرفين . ثم أن بخيتة لا تريد أن يتم الزواج لأنها تعتقد أن هذا الزواج «سلف» كما يقولون .. وضحك .

قالت : يا ولدى .. «لآ منضرة ولا سلفه ولا حاجة . يا ولدى أنهم يكذبون . المسألة قديمة منذ أن مات أبوك . وعمك مشهور «شايل مننا»..

لماذا ؟

قالت : حين اختير أبوك للعمودية كان ينقصه ستة قراريط . فأخذ القراريط الستة من عمك مشهور . بيع وشراء وكتبنا

ورقة . بعد وفاة المرحوم أبيك ، وسفرك بعد الأربعين ، جاء عمك مشهور وقال لي يا بخاتي أنا عايز أرضى . الستة قراريط . قلت له ألم تبعها للمرحوم . قال : لا . لقد كان ذلك من أجل إكمال نصاب العمودية . فأنا قلت له لا يا مشهور ، لو كان ذلك من أجل نصاب العمودية كنت بقيت «راكب الأرض» كما هى العادة . ولكن المرحوم «ركب الأرض» بعد البيع وأنت قبضت الثمن ٣٠٠ قرش . قام غاضبا وقال : «أنت عتكدبيني يا بخاتي».

قلت له غاضبة : «الورقة معايا وأنا ماعنكدبشي .. ومن ساعتها وهو شايل مننا» ..

قال : سأسوى هذا الموضوع ، أعطنى الورقة وأنا سأسوى الموضوع مع عمى . فدست يدها فى سحارة قديمة وأخرجتها ملفوفة في منديل واعطتها له .. المهم أن نخطب بخيتة لاسماعيل قبل أن يعود اسماعيل من الرياينة . أنا وعدته بهذا فلا تكسفيني .. وهيا نذهب إلى عمي مشهور ..

قالت : يا ولدى أنا لم أخرج من الدار منذ مات المرحوم أبوك .. هذه عادتنا .. الأرملة لا تخرج من الدار بعد وفاة زوجها مادام عندها أولاد «عيب الناس يشوفوها ويقولوا رايحة وين المرة دى بعد ما جوزها راح».

ضحك وقال : لا عليك أنها خطوات قليلة إلى بيت عمى . ولا أحد سيعرف من أنت . ثم أنى معك ..

فجاءت صفية من حيث لا يدرى أحد تحمل «الشقة» . قالت بخاتي : هاتي .. إنشاالله تتقطع رقبتك . يا بت أنت كنت تتسنطي علينا .. فضحكت صفية .. وتزعنفت بخاتي . وذهبا إلى بيت مشهور ..

استقبلهما عجوز لا يكاد يرى . ورحب به ترحيبا باردا . فقال وهو يصافحه : أنا عباس يا عم مشهور . ثم همس في أذنه : ورقة الأرض معي وسنسوى الموضوع معا . فرحب به ، ترحيبا منفعل الحرارة وأجلسه بجواره على المقعد . وجاءت امرأته علايه ورحبت ببخاتي التى تجاهلها مشهور . تحدثت بخاتي إلى علاية عن اسماعيل وبخيتة . فقالت علاية : «وماله يا ختى ولد العم أبدى من الغريب» . قالت بخاتي : «وماتنسيش يا علاية يا ختى إننا من يوم ما تولدوا وعنقولوا بخيتة لاسماعيل واسماعيل لبخيتة» . قال عباس : «على بركة الله . باقى الأمور أسويها أنا وعمي لأن اسماعيل مستعجل على «الدخلة» . فنطق عمه لأول مرة اثباتا لوجوده : «له . الدخلة بعد قطع القيضي» . قال عباس : إن شاء الله . الفاتحة . قالت علاية وقد انطلقت من فمها ضحكة لم تشذبها أسنان : «يوه ما قرينا الفاتحة أولت أولت عمنول» . قال مشهور بحماسة : «يوه ، يا مرة حد يعترض على الفاتحة . الفاتحة» . فصمتوا يتمتمون . ثم انصرفا بدون أن تظهر بخيتة من مكمنها خلف المقعد . ولم يقل أحد أو يسمع حكاية «جواز السلف» .

حينا عادا وجدا مرسي واسماعيل ونصر الجمال والبقرة

السـوداء عـائدين . لم يـذهب مرسـي إلى الغيـط غاضـبا . ما أن غـادر القـرية حتى هـدأ فاتجه رأسا إلى الريايـنـة حـيـث السـوق ولكـن ليـس إلى السـوق . وإنمـا إلى منـزل مـحـمـد بدوى قـبـيل مـدخـل القـرية . إذ مـحـمـد بـدوى هـو شـاعـر الربابة العظيـم والراوية الأعظـم ، على أنغـام الربابة ، لقصـة الهـلالية ، فيمـا بين أيام السـوق يحـيى الأفـراح فى القـرى . أمـا يوم سـوق قـريتـه «الريايـنـة» (العقـال القبلى) فيسـتقبل فى منضـرته الراغـبين فى سمـاع بضـاعتـه من رواد السـوق . من يبـكر منهم يسـمع القصـة مـن أولهـا . فبكر مـرسـى ليسـتمع إلى محـمـد بدوى . قابضـا يده علـى «نيكـلة» مـقـابل الاستمـاع . أمـا البقـرة السـوداء فقد عـادت «كارفــة» كمـا ذهبـت . لـم تسـمـح الظـروف بأن تـزف إلى ثـور بيت مصبح .

يشـرح الظـروف اسـمـاعيل بينمـا انصـرف نصـر والبقـرة إلى مأواهما .

قـال اسـمـاعيل يائسـا : كان يوما أزرق . لا سـوق ولا مـوق . لقـد كـانوا يأخـذون منـا البـقـرة لولا أنـى جـريت بهـا . كـل النـاس كانـوا يجـرون ببهـائم وبغيـر بهـائم . مـن يتـعطـل يتلقى مـن الهجـانة قسـمـتـه من الكـرابيج . الحـريم تصـرخ . والعيـال تبكـى . والحرامية يخطفـون . والهجـانة يضـربون . «تقولشي القيـامة قامت» ..

لمـاذا يا أسـمـاعيل . ماالـذى جـرى ..

ما جرى لا يحكى يا ولد أبوى . هول . كنا ذاهبين : أنا والبقرة ونصر إلى بيت مصبح لنطلق ثورهم على بقرتنا . أصلها كارفة منذ عشرة أيام . ماشيين فى الدرب «اللى غرب الجامع» سمعنا صراخا من شرق الجامع . من جهة السوق . قلت لنصر «إيه ده يا نصر ؟» . قال لى : «مالكش دعوة . جر البقرة وأجرى وأنا وراك . ومسيرنا نعرف إيه ده . لازم مصيبة . هوه يعنى الناس عتصرخ من الفرح سحبت مقود البقرة وشددته ونصر ضربها بالعكاز على بطنها لغاية ما وصلنا رهبة أولاد هريدى . لقينا الناس أمم . وجمال الهجانة ناخة . والهجانة ماسكين الكرابيج وبيجروا ورا الناس . نصر قال لى بيت محمد سلمان على يمينك . أدخل عند اختك . دخلنا . أنا والبقرة ونصر وغلقنا الباب . لقيت أختى «وشار» تصرخ وهى فى بيتها . سألتها إيه الحكاية «يابت أبوى» . صرخت يا خراب البيت يا اسماعين . خدوا الغلة وخدوا الحمير . الهجانة «حاوطوا السوق وخدوا الغلة من الناس ومن التجار وحطوها على الحمير اللى فى السوق . سوق الحمير اللى من بحرى . واللى يقول لَهَ يضربوه بالكرابيج «وكان العمدة واقفا . والغفر واقفين . ومعهم الحكام من المركز» . ومعاهم واحد ببرنيطة وعساكر ببرانيط ماسكين سلاح . لما شافهم ، أول ما شافهم ، ولد غانم محمود صرخ وقال أجروا يا ناس هايخدوا البهايم . كل الناس جرت ومعاهم بهايمهم وصرخت الحريم فصعدت أختى وشار على السطح وشافت أنهم يأخذون الغلة والحمير بس . وصرخت ..

وهل أخذوا من بيت سلمان شيئا .

لَهْ . سألتها قالت له : «أنا عنصرخ مع أهل البلد . البلد كلها لازم تصرخ ، دى سرقة فى عز النهار والرجالة هربوا» .

جلس الشيخ عباس مغيظا حزينا يكاد يبكى وقال : وبعدين يا اسماعيل ..

قال اسماعيل : وبعدين إيه ؟ . ولا قابلين . بعد أن انصرف الهجانة تسللت أنا والبقرة ونصر وعدنا إلى هنا . مررنا على بيت محمد بدوى لقينا الفالح مرسى واقفا ومعه آخرون .

عرفنا منهم أن السلطة هى التى جمعت الحمير من السوق وحملت عليها الغلة وضربت الناس بالكرابيج . «وعيقولوا الدور الجاى على بلدنا» .. تمهل ليلتقط أنفاسه ثم قال لعباس : وأنت عملت إيه مع عمى مشهور ..

قال عباس : خلاص يا سيدى . مبروك . ذهبت إليه أنا وأمك واتفقنا على أن «الدخلة» بعد قطع القيضى . فصرخ اسماعيل : له . له . يا عباس . قلت لك الدور على بلدنا . النهاردة خدوا الحمير والغلة بكرة ياخدوا الرجالة . له . له . لازم الدخلة يوم الخميس بالكتير ..

حاضر يا اسماعيل ..

لم تنم القرية ولا نام أهل القرى المجاورة وهم يتناقلون أخبار الريانة ، كانت بسيطة فأصبحت مركبة ، ويتدبرون

فرادى وجماعات كيف يخفون الحمير والغلال وكيف يختفون ..

ويستمع يونس عبدالله ، متنقلا بين أهل القرية ، منتهزا فرصة توقف الحديث الخائف ليبتسم شامتا ويقول لمن يستمع إليه : ألم يكن الشيخ عباس على حق ، فلا يرد عليه أحد .

(٨)

فجر اليوم التالى لم يرد إلى الترعة أحد من أفواج الرجال يتطهرون ، ولا صلى أحد من الشباب جنوبى الكوبرى الخشبى الركيك . ولا تحدثت الإناث فى الموردة شمالى الكوبرى عن شئ غير خطف الغلة والحمير فى الرياينة وأن «الدور جاى على بلدنا» . وسيخطفون الرجالة كما قال اسماعيل ولد المرحوم الشيخ محمد اسماعيل . ولم يذهب كثير من القرية إلى الغيطان . خيمت على القرية سحائب كئيبة من خوف المجهول وترقبه . فكثرت اللقاءات بين العائلات . يتداولون علهم يعرفون كيف يتقون مالا يعرفون . ذلك لأنه قبل أن ينتصف النهار نزلت رواية اسماعيل إلى هامش متن روايات أقسم مؤلفوها على صحتها أغلظ الإيمان .

قال حسن عبدالعزيز أن المصيبة في «الريناينة» لم تقتصر على أخذ الغلة والحمير والضرب بالكرابيج ، بل أن الخواجات فتشوا بيوت الأعيان واستولوا على كل خفيف ثمين من نقود

أو حلى .

وقال محمود موسى أنهم أخذوا من «الكوم الأحمر» مع الحمير الجمال . وقال حسان حسانين أنهم فى «بويط» هتكوا أعراض النسوان . وقال مصطفى أحمد مصطفى أنهم فى بلدة «طعمة» خطفوا العيال الصغيرين . فقال يونس عبدالله شامتا ألم يقل لكم الشيخ عباس أن السلطة ستأخذ الغلة والحمير والجمال والنقود والحلى وتخطف الأطفال وتهتك أعراض النسوان .. ألم يقرأ لكم ما فى «الجرنال» ..

اختار نفر من كل عائلة أن ينقلوا الرواية ويلتمسوا الرأى عند العمدة محمود عبداللطيف فنفروا إلى منضرته .

قال اسماعيل غاضبا : ما هذه الحكاية يا حضرة العمدة . ما الذى جرى لترسل الغفر يجرونى إليك جرا .

قال محمود عبداللطيف : اهدأ يا اسماعيل يا ولد عمتى . أنا محتاج إليك وأرجو أن تكون معى من الصادقين . ولا تنسى أن الناس هنا شهود على ما تقول .

قال اسماعيل : ماذا أقول .

قال العمدة : اهدأ أولا وأجلس ثم أجب : «من الذى قال لك أو سمعت منه فى الرياينة أن الدور جاى على بلدنا وأن السلطة بعد أن تأخذ الغلة والحمير ستخطف الرجالة» .. من بالظبط يا اسماعيل ؟ ..

قال اسماعيل : ما حدش ..

قال العمدة بحدة : من أين إذن أتيت بهذا الكلام .

قال اسماعيل : من مخي ..

قال العمدة : وما الذى أدخل هذا الكلام في مخك ؟

فسكت اسماعيل ..

قال العمدة يأمر خفراءه : اذهبوا فورا واحضروا لى هنا حسن عبدالعزيز ومحمود موسى وحسان حسانين ومصطفى أحمد مصطفى . حالا . فانطلقوا مسرعين .

يا حسن هل كنت فى «الرياينة» أمس ؟ – له . يا محمود موسى : هل ذهبت طول عمرك إلى «الكوم الأحمر» أو تعرف أحدا من أهله ؟ – له . يا حسان حسانين : هل قال لكِ أحد من «بويط» أن السلطة هتكوا أعراض النسوان ؟ – له . يا مصطفى أحمد : هل بلغك من أحد فى «طعمة» أن السلطة خطفوا ولده ؟ . له ..

صاح العمدة : أمال إيه الحكاية يا ولاد الكلب ..

قال حسن عبدالعزيز : مافيش داعى للإهانة يا عمدة . لم نقل نحن شيئا غير ما سمعنا ..

وممن سمعتم ؟ .

قال حسن : من البلد . كل البلد عتقول أن هذا حصل فى الرياينة والكوم الأحمر وبويط وطعمة . وفى البدارى وأسيوط كمان .

قال العمدة للخفراء : احبسوا هؤلاء الأربعة فى حجرة التليفون واحرسوهم . أما أنت يا اسماعيل فاذهب وابعث لى بأخيك عباس .. قل له العمدة يريد أن يراك الآن ..

تدخل أحمد عبد اللطيف بنبرة حازمة : يا شيخ محمود يا خوى ما فيش داعى . أنا أقول لك أصل الحكاية .. الكلمة لك .. نعم . ولكن بعد أن تسمعنى . وهؤلاء الناس يعرفون ما سأقوله ..

قل يا أحمد .. انتظر يا اسماعيل ..

قال أحمد : مشاغلك لم تسمح لك بأن تذهب إلى منضرة الشيخ عباس .. لكن كلنا رحنا بدل المرة مرات . وهو يقرأ الجرائد . وينقل إلينا أخبار الحرب والهلاك الذى تسببه ، وفهمنا ، وفهم كل الموجودين ، أن من يوم ما قامت الحرب أصبح الانجليز هم المسيطرين على بر مصر . وكان يسمى الانجليز السلطة . وفى البدارى وفى طما وفى أبو تيج . كانوا يسمونها السلطة «أى والله مش هوه بس» . بس هوه كان يتكلم كثيرا أمامنا عن إيه يعنى السلطة «اللى همه الانجليز» . وكان يصفهم بأنهم مجرمون ولصوص . وأنهم إذا دخلوا بلدا يأخذون الغلال والمواشى والأموال ويغتصبون النساء . «ماجبشى سيرة العيال» . وقال أنهم دخلوا بلادا كثيرة وفعلوا بها ما قال . فنحن جميعا ، عندما سمعنا أن السلطة وصلت الرياينة وأخذت الحمير والغلال فكرنا أن الدور سيأتى ويأخذون باقى المواشى والرجال والنساء . كل واحد منا ، ومن الحاضرين متوقع أن هذا سيحدث . فالذى حدث أن الشبان الصغار

قالوا أنه حدث فعلا وسرت الإشاعة وصدقها الناس . هذه هى الحكاية . صح يا رجالة ؟ ..

قالوا جميعا : صح ..

قال أحمد : والآن وقد عرفت الحقيقة فالأمر لك .

صمت الشيخ محمود عبداللطيف طويلا والناس صامتون ثم رفع رأسه ببطء وقال للخفراء : اطلقوا سراح الأولاد . وأنت يا اسماعيل عد إلى منزلك . لكن «ماحدش يتكلم عن حاجة إلا إذا شافها بعينه أو سمعها بودنه وجه قال لى» وانى لذاهب صباح غد إلى المركز لاستقصى الاخبار من مصادرها الرسمية . ونتقابل غدا مساء ان شاء الله بعد المغرب » . «اللى فيه الخير يقدمه ربنا» ..

فانصرفوا وبقى أحمد ..

قال أحمد : يا شيخ محمود . اصطحب معك غدا الشيخ عباس ولد عمتك إلى المركز يساعدك إذا احتجت إلى من يقرأ لك ما هو مكتوب فى الأوراق الرسمية لأن الأوراق الرسمية كما تعرف وكما تقول دائما هى المصدر الموثوق للأخبار الصحيحة .. قال العمدة ضاحكا : أنت عفريت يا أحمد .. هذا ما كنت أفكر فيه . أخشى ألا يقبل المجئ معى ، قال أحمد : بل يقبل سعيدا إذ هو معتكف فى منضرته مغلقا عليه إلباب حزينا ، ولابد أنه يفكر فيما يجب عمله منذ أن استمع إلى رواية اسماعيل . وعلى أى حال ، أنا - بعد إذنك - أذهب إليه الآن وآتيك بالخبر اليقين .

قال : أذهب وعد بسرعة .

ذهب وعاد بسرعة .

قال طبعا يسرني أن أكون مع العمدة ولكن ليس غدا .

فقاطعه العمدة : لماذا . أنا وعدت البلد ..

قال أحمد : يرى الشيخ عباس أن غدا يوم الاثنين . يوم سوق البداري . وهـ [illegible] جال الإدارة «على رواقة» . إنهم سيكونون مش [illegible] ى السوق . وسيكون هناك رجال من السلطة ا [illegible] في سوق البداري ما فعلوه في سوق الرياينة فلا نجد احدا «عاصى» يتحدث معنا . بعد غد الثلاثاء ان شاء الله نذهب إلى حيث يريد العمدة . هذا رأى عباس . ولكنه قال : أما إذا كان العمدة مصرا على غد فسأذهب معه ارضاء له ولكن أخشى أن مشوارنا لن يؤدى إلى ما يريد .

قال العمدة : عنده حق . غدا سأعتكف . وقل للناس أني مريض . وسأذهب يوم الثلاثاء ، والآن أذهب وأشكر الشيخ عباس وقل له أننا سنلتقي يوم الثلاثاء في الصباح الباكر عند الكوبري كما لو كنا قد تقابلنا مصادفة .

ما أن برز أحمد عبداللطيف من «منضرتهم» مهرولا حتى أوقفه بغتة صوت صرخة قادمة من أقصى الدرب ثم صرخات متتابعات . فتاة سافرة الوجه على رأسها طرحة تنحني كل بضع خطوات فتغرف من تراب الأرض ما تهيله على رأسها وهى تصرخ بصوت حاد : «يا كسرى ...... يا غووووورتي . يا كاااسرى . وين العمدة وين . قتلوه . مين ياخد تاري مين . يا كسرى .... يا غووورتى» . ومازالت تجرى

وتصرخ وتغرف التراب وتهيله على رأسها فيتساقط على طرحتها حتى أدركت أحمد واقفا أمام منضرتهم . قبل أن تدركه كانت قد رددت صرخاتها فى الدرب صرخات من داخل البيوت ومن فوق أسطحها . وتابعها جريا رهط من الأطفال . واجتمع حول أحمد عبداللطيف بعض الشباب والرجال . وبرز العمدة فوقف معهم . فلما وصلت إلى حيث تقف نائحة تنحى وعاد إلى مجلسه وقال لاخيه احضرها يا أحمد ، أما أنتم فانصرفوا إلى أعمالكم ، وليبق الخفراء فقط . يبقون هنا . لا يدخل أحد منهم إلا إذا طلبته .

عندما دخلت المنضرة يصحبها أحمد عبداللطيف صمتت . فتلاشى صراخ الأخريات واكتفى الرجال والشباب بالهمهمات . وجدت العمدة جالسا على دكته فجلست أمامه على الأرض وهى تبكى بحرقة ولكن بدون صوت ضاغطة بكفيها فى صدغيها ناظرة إلى الأرض . الأرض ، أرض منضرة العمدة ، قد رشت بالماء منذ الصباح فاكتست بغلالة طينية . مدت الجالسة يدها بهدوء وجمعت من الطين ما يملأ كفها الصغير ووضعته برفق على رأسها ، ثم مسحت طين يدها فى صدر ثوبها ثم عادت تضم صدغيها بيديها . يد متربة ويد «متطينة» ..

اقفل الباب يا أحمد .

– آه . أنت مين .

– أنا امرأة محمد ظرظور .

– الخولى فى جنينة بيت ويصا فى الرياينة

– آى .. وصرخت صرخة مقتضبة : قتلوه يا عمدة ..

- من الذين قتلوه ..

- الخواجات فى الرياينة .

- طيب يا بنتى ما الذى حدث «بالظبط» . قولى ولا تنسى شيئا .

كفكفت دموعها ، ومسحت على أنفها بكم ثوبها . ونظرت إليه نظرة ثابتة وقال : «عشية (أمس) في الصبح بدرى ، شلت «البرمة» الكبيرة على راصى رايحة السوق أبيع الدهان اللى جمعته فيها طوال الجمعة . محمد كان «ماشى» قدامى وأنا وراه . وصلنا عند السحارة «لقينا كمبيل واقف وفيه اتنين خواجات ومعاهم بنادق وواحد هجان ماسك كرباج» . محمد .. بكت .. فقال لها أكملى..

«محمد كان شايل بندقيته أم روحين شغلة ويصا بيه . معلقها فى كتفه . خواجة وقف قدامه ووقفه وشاور على البندقية .. وأنا وقفت وراه . محمد قال : دى مرخصة يا خواجة وشالها من كتفه ومسكها بايديه علشان يوريها له . راح الخواجة ضربه بدبشك بندقيته فى رأسه على طول . وقع محمد وهو ماسك بندقيته . أنا صرخت . الهجان ضربنى بالكرباج في راصى . اتلف الكرباج على البرمة وقعها تكسرت والدهان سال فى التراب . وأنا صرخت . والخواجة قعد يضرب فى محمد ، فى راصه ، لغاية ما استخلص منه البندقية وخدها وهو يرطن . الهجان ضرب محمد وهو نايم بالجزمة فى صدره وقال له قومى «يا بنت الكلبة». محمد ماقمشى . جات الناس وعساكر ، وتكلموا مع بعض وشالوا محمد وحطوه فى الكمبيل . عسكرى قال : ياالله يا

وليــة روحي مــع جوزك .. وحطــونى فى الكمبيل معاه . ونا عنبكى لكن مـا قدراش نصرخ . أول صرخـة الهجـان ضـربني على خـــدى بالكف. وقـال لي «أخرص» مشى الكمبيل بينا وسايقه الخـواجة التانى اللى ماضربشـى محـمد . ودونا على المستشفى الميرى فى البدارى . دخلنا وكشفوا على محمد وخدوه جوه أوضه وقفلوا عليه . بعد مسافة كتيرة طلع الدكتور . صـرخت فى وشه وقلت له وين جوزى . سايق عليك النبى تقول لي مات واللا عايش . قال – الله يستره – هدى روحك ياستى جوزك عايش وعملنا له عملية . وربنا يلطف بيه وبيكى . عايزة نشوفه . قـال . له . مش دلوقيـتى بكرة الصبح إن شاء الله تشوفيه . روحى روحى . صـرخت وقلت أبدا . منروحش من غير جـوزى . قـال للتـمـرجى ، اللى لابس أبيض ، خليـها تنام أهنه لغاية الصبح لما نشـوف النتيـجـة .. بيّت . فى الصبح جه الدكتور فى الضحـا ودخل عند مـحمد . بعد ما طلع، قلت له عـايزة نشوف جـوزى . قال تشوفيه . وقـال للتمرجى خليـها تشوفه ، دخلونى عليه .

قطع حديثها نشيج البكاء المر فصبر عليـها الشيخ محمود إلى أن أفرغت دموعها الغزيرة . وبعدين ؟

وبعدين . يا محمد . يا محمد : يا محمد ماردش علىّ . قلت لروحى مات جوزى ... وصرخت وقعدت نصرخ . التمرجية اتلموا علىّ ، وطلعونى ورمونى بره المستشفى . جيت على أهنه . جيت

ماشية . و ...

استفرغت سائلا لاتخالطه إلا رغاو كالمخاط ..

قال العمدة : إهدى يا بنتى زوجك لم يمت . وإن شاء الله ربنا يشفيه . لو كان قد مات لتلقينا اشارة من المركز لاستلام الجثة ..

مات يا عمدة ..

لسه مماتشى ..

صرخت : مااات يا عمدة .. يا قلة الرجالة .. مين ياخد تاره ..

قال العمدة زاجرا : إخرسى يا امرأة وكفى عن الصراخ .. خذها يا أحمد إلى بيت أهلها وقل لهم أنى سأذهب «مخصوص» صباح باكر إلى المركز لاعرف ما هى الحكاية ونطمئن على محمد طرطور . واذا كان منهم من يريد أن يطمئن فليقابلنى أمام المستشفى ظهرا ..

قال أحمد هامسا : بعد بكرة ..

قال ناهرا : يا أخى روح .. بكرة بعد بكرة «متفرقشى»..

(٩)

الليل مازال ليلا . يشهد بذلك النجم اللامع سهيل (الثريا) ،

وتألق النجمات الانيقات ، بنات الحور السبع (الدب الاكبر) ، اللاتى حين تغضبن على القمر تحجبن نوره فينخسف القمر ، فيخرج الصبية إلى الدروب يضربون على أوان أو صفائح وهم يتوسلون إليهن : «يا بنات الحور. سيبوا القمر . دا القمر مخنوق . ممعناش خبر» . فلا يلبثن أن يستجبن لدعاء الصبية الابرياء فيطلقن القمر من سجنه . لم تكن بنات الحور غاضبات فى تلك الليلة . فقد كانت شريحة هلالية من القمر المحتضر لا تزال طليقة الضوء فى رحاب السماء الداكنة . الذى غضب حتى ثار فى محبسه المختار هو الشيخ عباس حين أيقظته طرقات عنيفة على باب الدار . ولقد أيقظت أمه وأخويه وزوج أخيه وحتى نصر الجمال . كان عنف الطرقات يوحي بأنها نذير . فحال مرسي دون أن يتقدم أخوه الغالى ليفتح الباب ليرى الخبر . قال له أن الحذر لايمنع القدر . قال ليكن القدر من نصيبى فقد تزوجت وأنجبت . فتح مرسى الباب فوجد أمامه يونس عبد الله . «خير» ماذا تريد فى هذا الليل . قال أريد الشيخ عباس . قال من مكمنه ماذا هناك يا يونس أزعجتنا . دعه يدخل يا مرسى . وأضاء «اللمبة» الصغيرة . قال انى آسف ولكن للضرورة أحكام . فقد أرسل إلى العمدة وكيل شيخ الخفر عزيز حسين لأحضر إليك وأبلغك أن موعدكما الفجر أو قبل الفجر «ضرورى» . كان ذلك بعد العشاء ولكن «راحت علىَّ نومه» فلما استيقظت تذكرت فخفت أن يفوت

الموعد فحضرت لاخبرك أن قد حلت ساعة الذهاب إلى البدارى، ولاستأذنك فى أن أذهب معك فنحن فى أيام خالية من الأمان . قال إجلس حتى استعد ويجهز نصر الركوبة وأنت يا اسماعيل أعمل لنا كوبين من الشاى . قال بل أنتظر مع حمارى خارج الدار .

حين أدركا الكوبرى وجدا الشيخ محمود عبد اللطيف يصلى الفجر فى المصلى جنوبيه ، ووجدا عزيز حسين يحمل على كتفه «بندقية» الحكومة التى تطلق رشا ويمسك بيده حمار العمدة إلى أن يقضى الصلاة امتطى كل من العمدة والشيخ ويونس عبدالله حماره وتبع وكيل شيخ الخفراء حمار العمدة مشيا على الاقدام . ركبوا جميعا جسر الترعة الترابى الغربى متجهين إلى البدارى يدبون دبا وئيدا صامتين .

قطع الصمت عزيز حسين حين التفت يمينا ثم قال مخاطبا لا أحد : الترعة «شيّمت» ، امتلات حتى قمة جسورها بماء الفيضان المتدفق شمالا بتيار جارف . ثم التفت يسارا وقال ومع هذا فإن «القيضى» لم ينضج بعد ليقطع . قال يونس عبدالله : البحر عالى هذه السنة والخوف من أن يتكرر ما حدث منذ سبع سنوات حين أغرق الفيضان المزارع فأكل الناس محصول القيضى «فراخ» (أخضر) . قال وكيل شيخ الخفر : ربنا يستر .. الظاهر إنك كنت نائما طوال الليل يا يونس فلم تر أو تسمع ما

جرى . قال : أى والله ، ماذا جرى يا عزيز . قال : بعد أن عاد من البدارى آخر النهار الذين ذهبوا إلى السوق ، قالوا أن السوق كان محاصرا بقوات الانجليز، وكذلك الطرق المؤدية إليه ، وكانوا يفتشون الناس بحثا عن «غلة» . لكن الغلة اختفت بقدرة قادر من السوق . الحقيقة كان السوق فارغا من أية محاصيل غلة أو غيرها، ومن البهائم وخاصة الحمير . وشاع فى المركز أنه بعد ماحدث فى الرياينة يوم السبت البيه المأمور أوفد المباحث سرا إلى عمدة البدارى وعمد البلاد المجاورة بأن ينبهوا الناس سرا أنه ممنوع بيع أو شراء الغلة والحمير يوم الاثنين ، يوم السوق فى البدارى ، ومن يخالف ستصادر غلته وحميره بأمر السلطة ، وفعلا قبل طلوع الشمس أمس حضرت إلى البدارى قوة كبيرة من الانجليز على رأسها ضابط وأحاطوا بالسوق . ولما لم يجدوا فيه غلة أو حميرا ذهب الضابط إلي المركز ودخل حجرة المأمور وسأله عن السبب فقال له : والله لا أعرف . ربما لأن أغلب أرض البدارى مزروعة حدائق فاكهة . وربما لأننا الآن فى موسم القيضى وليس القمح . ويجوز أيضا – والله أعلم – أن أخبار الرياينة وصلت إلى الناس فخافوا . وعلى أى حال أنهم لايستطيعون الامتناع عن التعامل فى الغلة اذا كان لديهم شىء منها إلى الأبد . واقترح على الخواجة أن تبقى القوة مرابطة فى السوق والطرقات حتى آخر النهار . وأنه سيزودهم من قوة المركز

بمن يساعدهم على كشف ألاعيب الفلاحين اذا كانوا يلعبون . كما اقترح عليه تأكيداً لمظهر التعاون بين ادارة السلطة وسلطة الادارة أن يعد له مكتبا فى حجرته ليديرا الحملة معا .

هذا ما حكاه آخر النهار العائدون من البدارى . وقد أرادوا أن يقابلوا العمدة لأخذ رأيه ولكننا منعناهم لانه كان «بخير» (مريضا) ولا يريد أن يقابل أحدا كما نبه علينا يوم الأحد .

فما أن أضاء القمر بعد العشاء حتى ذهب كثير من أهل البلد ومعهم أولادهم وحريمهم وحميرهم وجمالهم إلى الغيطان وبدأوا فى قطع قناديل القيضى ونقلها إلى بيوتهم وتركوا البوص واقفا، قناديل القيضى التى تصلح للاكل ولو «فراخ» وتركوا القناديل فى الزراعة المتأخرة .

قال العمدة : ولماذا لم تمنعوهم ياعزيز. ولماذا لم تقل لى ماحدث حين قابلتنى أمس بعد العشاء.

قالت : والله ياعمدة... لم أعرف الا بعد أن تركتك وذهبت لمقابلة يونس عبدالله حسب أمرك . ولم استطع أن أمنع أحدا لانهم ذهبوا إلى غيطانهم ليلا ونحن الخفر لانستطيع حسب التعليمات أن نترك البلد ليلا . ومع ذلك فتلك أموالهم وهم خائفون عليها . وقال لى بعضهم اذا كانت السلطة وصلت إلى سوق البدارى ، بلد المركز والاعيان، «يبقى احنا ضايعين ضايعين» .

«وأهو ده اللى حصل» .. ولا يزال فى المزارع القيضى الأخضر وهو أكثر بكثير مما قطعوه .

قال عباس : لاحول ولاقوة الا بالله .

قال العمدة : «همه جرين» .. طيب يا عزيز هل هناك أخبار عنِ ولد ظرظور .

قال : إمرأته وعبد القوى على ظرظور ابن أخيه ذهبا إليه فى المستشفى . ولم يعودا مع العائدين . الظاهر أن حالته خطرة . لازم تزوره يا عمدة .

قال العمدة : «أمال أنا رايح ليه» ..

قال يونس : الناس يعتقدون أنك ذاهب كما وعدتهم لتعرف هل ستصل السلطة إلى بلدنا أو لا، كما وعدتهم .

قال : أو لم أعد أيضا امرأة محمد ظرظور .

قال : بلى .

قال : إذن فلا داعى للكلام الفارغ يا يونس .

قال : أمرك يا عمدة ..

وران صمت طويل ..

الطريق خال . وطويل . والهواء راكد رطب . والحمير بطيئة والصمت ثقيل لولا أصوات حوافر البهم فى الارض المتربة ،

وطنين متصاعد لهوام متزايدة من الذباب والناموس والزنابير تحتفى بأشعة الشمس التى بدأت فى طرد الظلمة . والعمدة على حماره يغط . يا عمدة ، يا عمدة . هل نمت . كيف تستطيع أن تنام وأنت فوق الحمار. لم أنم طوال الليل، والرطوبة خانقة وخطوة الحمار منتظمة والطريق مستقيم ، فحين أترك نفسى لكل هذا بدون مقاومة أو توجيه أندمج فيه فأشعر بالراحة فأنام .

ألا تخشى أن تقع .. ؟

ولماذا أقع ما دام الحمار لايتوقف ولاينحرف . انظر إلى تيار الماء فى الترعة . لماذا يغرق فيه غلمان كثير كل عام ،؛لانهم ، بسبب قلة خبرتهم ، لايتركون أنفسهم للتيار . ولو فعلوا لحملهم التيار إلى حيث النجاة ، ولكنهم يعاندون ويحاولون العوم ضد التيار فيغرقون .

ضحك ساخرا وقال : هذه حكمة يا ولد خالى .

قال : اذا لم تكن مصدقا فاسأل أمك . لقد رأت ما رأيت وكنت أكبر منها سنا . انظر إلى الجبل فيما يحازينا منه واسأله . من الذى مات على الخوازيق أيام الغارة ومن الذى نجا . مات آباؤنا وأعمامنا وأخوتنا ، الذين وقفوا ضد تيار فاضل باشا . ونجا من اندمج فى التيار أو هرب . ومن أجل ماذا ؟ من أجل امرأة زانية . والله والله ياولد ولد عمتى – وليس لك علىً يمين – لو مات رجل كلما زنت امرأة لانقرض الرجال .

قال يونس عبد الله : وتوقف الزنا يا عمدة ..

لاتضحك يا يونس يا ولد عبدالله . الكلام جد . انت رائق البال ، ولقيت لك صديقا فى الشيخ عباس ، لايهمك حتى لو «رحت فى داهية» من أجله . صح ؟ .. صح يا عمدة . أنت حر فى نفسك ولكن إفرض أن الشيخ عباس هو «اللى راح فى داهية» فماذا تفعل . «أروح معاه» . وما الذى يكسبه الشيخ عباس اذا «رحت معاه أو مرحتش» .

لم يرد يونس واستطرد العمدة . أنا لعلمكم لا أنام الليل منذ يوم الجمعة خوفا على عباس . عباس عايم ضد التيار وانى لأخاف أن يغرق وأنتما ، يا يونس ، يا عزيز تعرفان مالا يعرفه عباس من أمور البلد .

قال الشيخ عباس بتحد : لماذا يا عمدة كل هذا .

قال العمدة : اسأل أمك.

أنا أسأل أخاها الكبير .. يقتلوك . من ؟ الحكومة ..

قال وكيل شيخ الخفر : كلامك صح يا عمدة إنما ليس لهذه الدرجة . قال . إخرس أنت . قال : حاضر . قال مؤنبا : يا وكيل شيخ الغفر يافاهم . كلمة من الحكومة . أقل واحد فى الحكومة لفلان أو علان من الذين تعرفهم، يقتل عباس أم لا. قال : الاعمار بيد الله يا عمدة . قال : الاعمار بيد الله نعم ولكن ربنا يسبب

الاسباب .. «اللي يعوم ضد التيار يغرق .. واللى وقفوا ضد الحكومة علشان مَرَهْ ماتوا ..»..

قال الشيخ عباس : يا عمدة لقد قتلهم الخديوى ورجاله ولم تقتلهم شهامتهم .

قال العمدة : عال . اتفقنا . حين يختفى رجال الخديوى والخديوى والدمرداش والانجليز .. «إبقى أكتب عرايض»..

قال : أو قد عرفت ما فيها .

قال : خذ . هذه عرائضك كما كتبتها . فيها الاسماء التى أردتها . وأمامها بصمات أصحاب الاسماء . وها نحن ذاهبون إلى البدارى . قدمها إلى من تشاء بعيدا عنى . سنفترق عند «قلس على دلوكه» .. سأذهب أنا وعزيز إلى المستشفى لنطمئن على ولد ظرظور .

انتبه الشيخ عباس فجأة إلى غير المعقول من أمر العرائض . فسأل محمود عبد اللطيف كيف حدث أن أحدا لم يمتنع وأنهم جميعا حاضرون . قال العمدة بهدوء كأنه يجيب عن سؤال تافه الاهمية . وماذا كان علينا أن نفعل . «اللى قابلناه بصم واللى ما قابلنهشى بصمنا له» . انزعج الشيخ وقال : ولكن هذا تزوير وقد يؤدى إلى مسئولية اذا طعن أحد بأنه لم يبصم . قال العمدة : ستكون مسئوليتى وليست مسئوليتك ففى آخر كل صفحة ستجد

ختمى تحت شهادتى بأن قد بصموا أمامى . قال ومع ذلك فهى مسئولية قد تضرك. ضحك العمدة وقال : يا عباس يا ولد عمتى خليها على الله . «اللى عيطعن يبقى عايز يتطوع . يخدوه على طول . طيب مين عايز يتطوع . محدش . يبقى خلاص . لاتزوير ولا حاجة خليها على الله. سوق بينا خلينا نوصل بدرى » ..

تركوا الحمير عند قلس على دلوكة .

قبل أن يفترقوا قال العمدة : ينهى كل منا أمره ونلتقى إن شاء الله فى مقهى الاسمر ، ومن يحضر أولا ينتظر الآخر حتى الساعة الثالثة لنعود سويا ، وهم بأن يعبر كوبرى البدارى غربا إلى المستشفى فأسر إليه الشيخ عباس : «عايزك فى كلمة على جنب» . فاختليا . قال : ياشيخ محمود ، ماذا وراء كل ما قلت . هددتنى حتى خفت وظننت أنك تدعونى إلى النكوص ، ثم قدمت إلىَّ العرائض مبصومة مختومة واصطحبتنى إلى هنا لاقدمها . إنى فى حيرة من أمرك ..

قال : اسمعنى يا عباس . لقد أردت أن أنبهك إلى ما قد تلاقيه من مصاعب وما قد يعترضك من مخاطر فقلت لك ما قلت أولا . ولكنى أردت أن أحذرك من النكوص فأحضرت لك العرائض لتقدمها الآن ، ولكى أشجعك تحملت معك مسئولية أنا مقدرها . لابد من حماية القرية من مخاطر تشريد أبنائها. والقرية كلها غاضبة عليك لانك نبهتها إلى تلك المخاطر كما لو كنت قد اختلقتها

ولكنها فى الوقت ذاته معولة على أن تفعل شيئا يحميها . فتوكل على الله . لقد بدأت فلا تخف . قد يكون الخوف قبل بداية المعارك حذرا محمودا ، ولكن الخوف بعد بدايتها جبن مذموم ، وأنا أعرف أنك لست جبانا، فاستمر ، وأنا معك «بس من بعيد لبعيد» قدم العرائض اليوم ولا تتأخر . ثم ضحك وقال :لعلمك لاتترك مصيرها للتيار الا الرمم .

قال : لماذا اليوم ؟

قال : السر أفشيه لك وحدك . قبل أن ينتهى الاسبوع القادم سيكون هناك عمدة للبلد . فقد اختاروا عمدة للقرية أخشى عليك وعلى القرية منه ، ونحن فى انتظار التعيين الرسمى .

قال : من ؟ ..

قال : صديق ولد محمود حماد .. اذهب وربنا يوفقك..

فى طريقهما إلى المركز لفته يونس عبدالله إلى أن ثمة جنودا انجليز غربى الكوبرى عند السوق . لم يرد . سار غاضبا . متحديا ، يضم يده على أوراق ملفوفة وهو يعد نفسه لما سيفعل اذا ما رفض المأمور أن يستقبله وطلب منه أحد أن يلقى بشكواه فى صندوق الشكاوى . لن أقبل وسأقتحم مكتب المأمور وأواجهه . ولكن المكتب غير مقصور الآن على المأمور . هناك الانجليزى ممثل السلطة كما قيل . تردد. ما العمل حينئذ. شعر يونس بتردده.

سـأله : «مـالك يا شـيخ عبـاس إنت خـايف تقابل المأمـور ولا إيه» .. قـال بحـزم : لا أنـا لا أخـاف أحـدا . قـال : «أيوه كده يا شـيخ دى البلد كلـهـا ناظرة لك» .. عند مـدخل المركز اعـترضـه شـرطى يقف وقـفـة رخـوة . «عـايز مـين يا أسـتـاذ» ... «البـيـه المأمـور» . «البيـه المأمور لسه مـجاش . وماشـأن الداخلين والخـارجين من حجرته . ضـحك الشـرطى وقـال : دو عـايقـابلوا البـاشـا المأمـور . مـأمـور السلطة .. عـاين تقابله . قال : لا سـأنتظره فى قـهوة الاسـمر حتى يجىء .. وانطلق إلى قهوة الاسـمر المقابلة للمركز حيث وجد يونس عبـد الله منتظرا . شربا شـايا ، ثم شـايا ، ثم شـايا ، بعد نـحو ساعة ظهر المأمور فاندفع وراءه إلى حجرته . وقال بتـوتر متجاهلا الغريب . أنا الشـيخ عبـاس مـحمـد اسماعيل من الـهمـاميـة . قال المأمور بلطف غير منـتظر : أهلا يا شـيخ عباس . تفضل إجلس . مـلأنا الحـجـرة مقـاعـد منذ أمـس . مـا طلبك . لم يقـدم إليه صـورة العـريضـة الخـاصـة به . ولايعرف كيف ولماذا وضـع الـعريضـة وكل صورها أمامه على مكتبه .

القى المأمـور نظرة على الصـفـحـة الأولى منها وقـال : تشـرب قـهوة يا شيخ عباس .

قال : لا متشكر ..

قـال : ألم تصلك أخـبـار من حـسـين أفندى فـريد . منذ أن غادرنا لم نسمع عنه . وقد عرفناك منه وكان يذكرك بالخير كثيرا .

قال عنك مرارا أنك شديد الذكاء فى تقدير الظروف.

قال : نشكره فى غيبته وأرجو أن تسمح لى بأن أشكرك فى حضورك

قال : يا شيخ عباس عندما يكون الشكر واجبا فلا فرق بين الحضور والغياب المهم أن الظروف غير مواتية لاقبل منك عريضتك

.

قال مستنكرا : إنها عريضة البلد .

قال بحدة : اسمعنى يا أستاذ . قلت لك الظروف غير مواتية لأقبل منك عريضتك . أنا أعرف ما أقول . اذهب إلى المديرية وقدمها هناك أو ارسلها من هناك إلى من هى مرسلة إليهم وسيصلنى ما هو خاص بى بالبريد .. مع السلامة يا شيخ عباس .. ووقف .

قال راجيا : ألا تقبل الصورة الخاصة بسعادتك ولو من أجل الاستعجال .

قال : ولم الاستعجال .

قال : قبل تعيين العمدة .

ضحك المأمور عاليا .. وقال : اذن لا وجه للاستعجال تفضل فنحن لسنا وحدنا كما ترى فلا تثير الانتباه ..

(١٠)

عاد إلى قهوة الاسمر فوجد يونس عبدالله منتظرا . قال خير ان شاء الله يا شيخ عباس البلد منتظراك . قال مبتسما : خير ان شاء الله . كله خير . انظر الشيخ محمود حسن هريدى عمدة الراياينة داخلا المركز . فانظر من الجهة الأخرى إلى مكتب المأمور لترى هل يتحدث إلى المأمور أمام مكتبه أو إلى الرجل الجالس على المكتب المقابل . عاد يقول أنه جالس أمام الرجل الآخر والمأمور واقف بجواره . ثم سأل مستغربا : «إيه اللى جرى فى الدنيا . محمود حسن هريدى جالس والمأمور واقف ..» .

قال ستعرف عندما يخرج عمدة الراياينة فسأنادى عليه ويحكى لنا ..

فارع الطول نحيف أنيق يلبس جلبابا من الصوف فوق «سكروته» من الحرير ويمسك بيده «خرزانة» رفيعة طويلة . تقدم إليهما بخطى واسعة وقال السلام عليكم . كيف أنت يا شيخ عباس . قالا السلام ورحمة الله وبركاته واقفين . جلسوا جميعا . قال الشيخ عباس ماذا تشرب .

قال : قهوة . قال : كنت أريد أن أسألك عما جرى فى بلدك يوم السبت . هل كتبتم محضرا بالواقعة . قال طبعا . طبعا انت يهمك ولد ظرظور بلدياتك . كتبنا يا سيدى محضرا بما حدث .

ولما عرضته على المأمور قطعه وأملانى محضرا آخر قال فيه أن الواقعة مشاجرة بين المدعو محمد ظرظور من ناحية الهمامية وآخرين مجهولين من رواد السوق . هربوا بعد الاعتداء عليه وجارى عمل التحريات .

قال عباس مقاطعا : ومضيت على المحضر يا عمدة .

التفت إليه بثقة وقال : طبعا مضيت . ثم بهدوء . بعد ما فهمنى المأمور الوضع .

قال عباس : وما هو الوضع الذى فهمته من المأمور .

قال : محضرك لافائدة منه . الجانى انجليزى . حماية . واذا كان لابد من التحقيق فسيتم فى مصر أمام النيابة المختلطة . والشهود الذين ذكرتهم فى المحضر ومن بينهم امرأة المجنى عليه لابد لها من أن «تحط » أقوالها فى مصر وكذلك زوجها . أما اذا توفى فلا بد من نقل الجثة إلى أسيوط، وانتظار الطبيب الانجليزى الذى سيحضر من مصر لتشريح الجثة ومعرفة سبب الوفاة. والله أعلم بعد كم يوم يحضر . هذا اذا حضر . فاذا حضر فليس من المستبعد أن يقول أن الوفاة سببها سكتة قلبية . يعنى المسألة كلها «بهدلة» بدون نتيجة .. فنترك الأمر لله المنتقم الجبار ونكتب أنها مشاجرة .. فوافقته ..

قال يونس عبدالله : لاحول ولاقوة إلا الله . «دى مصيبة».

قال محمود هريدى : قل له مما تعلمت فى الأزهر يا شيخ عباس .

قال : ماذا أقول .

قال : قل له ما قاله الله تعالى : «الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون».

قال الشيخ عباس منكسرا : «إنا لله وإنا إليه راجعون» . هل لديك أخبار عن حالته ..

قال : اني قادم من المستشفى . كنت خارجا منه حين صادفت الشيخ محمود عبد اللطيف داخلا . الولد «خسران» . قال لي الدكتور اذا لم يمت اليوم فقد ينجو ولكن الأمل ضعيف. ورأيت هناك ابن أخيه وزوجته . منذ أمس وهما نائمان على الارض . وامرأته حالتها «تصعب على الكافر» . كل فترة «تطرش» . رجوت الدكتور أن يعتنى بها . قال ليس بها شىء غير عادى . والمهم الآن ستر الاعراض واكرام المتوفى إذا توفى ..

قال يونس عبد الله : وماذا نفعل يا عمدة .

قال : ان شاء الله ينجو . أما اذا وقع قضاء الله فأنا المسئول اذ لاتنسوا أنه اعتدى عليه فى بلدى . من أجل هذا قابلت الآن الضابط المسئول فى مكتب المأمور الذى ترجم لى كلامه وترجم كلامي له وأخبرته أن المجنى عليه قد يتوفى هذا المساء .

وأن تقاليدنا لاتسمح بتأخير دفنه ولاتوجد امكانيات نقله إلى بلده وأنه يلزم تصريح منه لاحدى سياراتهم بنقل الجثة إلى الهمامية وتسليمها إلى أهل المتوفى اذا حدثت الوفاة قبل صباح غد . وقد أعطانى التصريح فعلا لاذهب به إلى «الكامب» بجوار السوق اذا احتجنا سيارة . وان شاء الله يلطف ولانحتاج . فقط لاداعى لازعاج أهله مادام حيا..

قال يونس عبدالله : الله يسترك يا عمدة .

قال الشيخ عباس : كيف أعطوك التصريح بهذه السهولة.

قال : ساعدتهم يوم السبت أو اعتقدوا أنى ساعدتهم .

قال : وهل من المعقول أنك تساعدهم يا عمدة على نهب الناس وضربهم .

قال بحدة : وهل من المعقول يا أستاذ أن عساكر الانجليز يأتون إلى الرياينة ليسرقوا حميرا .

«مافيش فى الأيام دى حاجة معقولة يا شيخ عباس» . نحن تحت الاحكام العرفية فلو اعترضت أو قاومت يحرقون البلد . أنا تظاهرت بأنى أساعدهم وأنا أضرب الاولاد بهذه الخرزانة بدل الكرابيج وأشتمهم علنا ثم أرشدهم همسا إلى ما يجب عليهم أن يفعلوه . فلم يستولوا من البلد كلها إلا على ١٢ أردبا وتسعة حمير أخذت منهم ورقة بأنهم استلموها للمطالبة بثمنها فيما بعد

وإن كنت أعرف أنهم لم يدفعوا شيئا لأحد في البلاد التى سبقونا إليها مثل طعمة والكوم الاحمر وبويط ...

قال يونس عبدالله مقاطعا : وهل ذهبوا إلى هناك حقيقة..

قال العمدة : ذهبوا إلى طعمة يوم سوقها الاربعاء . والى بويط يوم سوقها الخميس . وإلى الكوم الاحمر يوم سوقها الجمعة وإلى بلدنا السبت . ولسه . ها هو الشيخ محمود عبد اللطيف قد هل ..

السلام عليكم . وقفوا جميعا . وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ..

قال : هل رأيت محمد ظرظور .

قال رأيته ، والدكتور طمأننى ولكن أمرأته تعبانة . لم يحن الظهر بعد فدعونا نصليه فى بلدنا ..

قال عمدة الرياينة : يا شيخ محمود ولدكم انضرب فى بلدى فأنا المسئول عنه . فأنتم تأخذون امرأته وابن أخيه معكم إلى الهمامية ليطمئن بقية أهله كما طمأنك الدكتور . وأرجو أن تسمح بأن يبقى معى وكيل شيخ «الغفر» ربما احتاجه . سأبيت أنا وهو فى دوار النواصر ويحضر إليكم صباحا ان شاء الله بآخر الاخبار. ما رأيك يا شيخ عباس . معقول . وبارك الله فيك .

قال الشيخ محمود عبد اللطيف : طيب. فلنتوكل على الله .

ولينتظر عزيز مع العمدة . خذ يا عزيز . وأعطاء مائة وخمسين قرشا . خذ ربما لاسمح الله يحدث مكروه فتتصرف في الكفن واحضار الجثة . قال العمدة : لا والله . «خليها عليّ دانا المسئول فأعادها الشيخ محمود إلى جيبه . وقال : يا عزيز اذهب سريعا إلى المستشفي واحضر معك المرأة وعبد القوى . قل لهما أن العمدة طالب حضوركما واحضر معهما قابلنا عند «قلس على دلوكة» وبعدها تعالى إلى هنا وقابل العمدة .

قال العمدة : بل يحضر لمقابلتي في دوار النواصر . إني ذاهب لاهنيء الشيخ محمد عبدالله نصار مع المهنئين بنجاح ابنه «ممتاز» في الشهادة .

طيب : السلام عليكم .

ورحمة الله وبركاته ..

اتجه الشيخ محمود عبد اللطيف والشيخ عباس ويونس عبدالله إلى «قلس على دلوكة» جنوبي البداري . وتخلف عزيز حسين مع عمدة الرياينة . استأذن يا عمدة لأذهب إلى المستشفى . اسمع أولا يا عزيز . هناك تحت شجر السنط غربي سور المستشفي ستجد فكرى عبد النبي من بلدكم وحسين حماية من بلدنا نائمين منتظرين . قل لهما أن العمدة أرسلني إليكما لأكون معكما . هما يعرفان ما أريد فقد قضيا الليلة معي في دوار «النفادية» . فان وافقت ، وأظن أنك ستوافق، فاذهب إلى

المستشفى واحضر امرأة محمد ظرظور فقط . أما عبد القوى فقل له عيب يترك عمه فى حالة خطرة ، وان امرأة عمه ستعود إلى البلد مع نائب العمدة ، واطلب منه أن ينتظر عودتك إليه . وقل لنائب العمدة أنه رفض العودة خوفا من أن يتوفى عمه ولا أحد من أهله موجود .. أما إذا لم تقبل «فاكفى على الخبر مجور» .

- أى خبر يا عمدة ..

ستعرف من فكرى عبد النبى وحسين حماية . وستوافق.. فاذا حدثت الوفاة قبل المغرب فأخروا نقل الجثة بأية طريقة إلى ما بعد المغرب . بالغسل ، والكفن ، والصلاة على الميت، وشهادة الوفاة . بأى طريقة . ثم تأتى لمقابلتى فى دوار النواصر . لن أنتقل من هناك إلى أن تأتى . وسأقول لك ماذا يجب عليكم عمله بعد ذلك . واحضر لكم السيارة التى ستنقل المتوفى إلى الهمامية . سيارة الانجليز «ولاد الكلب اللى موتوه» .

- ألا توضح لى الحكاية يا عمدة ..

قال غاضبا ، منفعلا ، مؤنبا بلهجة منكسرة : حكاية إيه يا عزيز . الحكاية حكاية ناس الهمامية . معقول يا عزيز إن ناس الهمامية بعد ما فاتت خمسين سنة على الغارة لسه خايفين وما يحسوش بالعار . حتى أنت يا عزيز اللى ادارة المركز عتقول عليك أجدع غفير من يوم ما دخلت المغارة على سند عصمان ومسكته بايديك فى الضلمة . شاطر تاخد تار الحكومة وماتخدش تار

بلدكم يا عزيز . الراجل «اتقتل» تسيبوه يروح فطيس . ايه ده يا عزيز . آمال رجاله بشناب ومتجوزين الحريم كيه . على أى حال محمد طرطور كان عيشتغل فى بلدى . واتقتل فى بلدى . قدام عينى يا عزيز. اختنق صوته وكاد يبكى وهو يكمل : قدام عينى وأنا العمدة ماقدرتش نحميه . أنا المسئول عن تاره لو مات . بس الواد الخرع ولد أخوه هو اللى يضرب علشان هوه صاحب الدم . فلابد يكون حاضر ويقوم بدوره . والباقى عليكم . فكرى عبد النبى كان بايت مع صاحبه محمد طرطور فى الجنينة واستناه يرجع بعد ما يوصل مرته السوق . مرجعش . عرف أنه انضرب . جه وراه البدارى . ومن يومها وهوه هنه . مستنى يايعيش يا يموت . قابلنى عشيه وقال لى يا عمدة إن مات محمد طرطور دمه فى رقبتك . قلت له معاك حق بس ان كان وراه رجاله . قال أنا وراه يا عمدة وأنا راجل. قلت له طيب ماتنساش إنك قلت كده «وبكره الميه تكدب الغطاس». وقلت لحسين حماية الغفير اللى ماشى ورايه يا حسين خد فكرى عبد النبى واستنونى تحت السنط اللى غرب المستشفى . ناموا . ومتخلوش حد يشوفكم لحد ما أجيلكم . أو أبعث حد غيرى . وهمه الاتنين جاهزين .

إنت جاهز ؟ ..

– طبعا يا عمدة . وهيه دى عايزة قواله .

– طيب روح تفاهم معاهم وأنا مستنيك فى دوار النواصر .

في الطريق إلى «قلس على دلوكة» قال الشيخ محمود عبد اللطيف : ماذا فعلت يا شيخ عباس ؟ . قال : قابلت المأمور وأكرم وفادتي وسألني عن أخبار حسين أفندى فريد و ... قال: مقاطعا : ماذا فعلت بالعريضة التى أخذتها . قال : عرضتها عليه فنصحنى بأن أذهب إلى أسيوط وأرسلها من هناك . حتى الصورة الخاصة به قال أنها ترسل إليه من أسيوط . المهم أنه طمأننى وقال أنه سيعمل كل ما يستطيع لمساعدة الهمامية ..

– لماذا أنت عائد معنا إذن ؟

– وماذا أفعل ؟

– إذهب فورا إلى أسيوط وافعل ما أشار به المأمور.

– لم أعمل حسابى لهذا المشوار.

– خذ هذه مائة وخمسون قرشا تكمل ما معك فتكفى .

– لا . لاتكفى .

قال يونس عبدالله : أنا معى تسعون قرشا . أخرجها .

قال الشيخ عباس : الآن أذهب إلى أسيوط .

قال الشيخ محمود عبد اللطيف : إركب «الحلزونة» من البدارى حتى ساحل سليم وهناك عدى النيل إلى أبو تيج . ومن أبو تيج تأخذ القطر إلى أسيوط .

قال : طيب . يا يونس تحضر الحمار وتنتظرنى فى البدارى يوم الخميس . لاتتركه هنا . تركبه امرأة محمد ظرظور وعبد القوى عندما يحضران .

وتركهما عائدا . فقابل عزيز حسين وامرأة محمد ظرظور قادمين . وعرف منهما أن عبد القوى رفض العودة . فقال لها يا نعيمة على أى حال أنا تركت لك حمارى لتركبيه حتى البلد.

(١١)

وصل أسيوط عصرا وهو جائع . لمح فى أول شارع البوستة المتفرع من ميدان المحطة البورصة الشهيرة . بورصة النيل لصاحبها الخواجة الطليانى باولو الذى يتحدث اللغة العربية بلهجة أسيوط . دخلها وتناول غداءه . ثم تركها واتجه غربا مارا بالبركة ذات المياه العطنة. بعدها دب على شارع المجدوب الصاعد . فرحب به رفيق الأزهر الذى لم يستطع على التعليم صبرا فعاد إلى أسيوط ليستأجر بناء من دورين . الارضى «قهوة الشرق» أعلاه «لوكاندة الشرق» . استقبله فى المقهى وحياه بكوب كبير من الشاى الثقيل . ودعاه إلى غرفة فى الفندق . قال ضاحكا : والوفاء بالاجرة عند الميسرة فضحك الشيخ عبد الجواد صاحب «لوكاندة الشرق» وقال: ولا عند الميسرة.. يكفى فيما بيننا الوفاء . قال : أرجو أن ترشدنى ؟ قال إلى ماذا ؟ قال عندى مشكلة وقد جئت إلى أسيوط «لاشد» لها «أبو كاتو» يكون على جرأة . قال :

لقد هداك الله إلى حيث يريد لك التوفيق . ارفع رأسك واقرأ اللافتة الكبيرة المعلقة على «تراسينة الدور الثانى» . قرأ : مكتب الافوكاتو عبد الكريم أبو شقة . قال الشيخ عبد الجواد هذا أشطر وأنزه أبوكاتو في أسيوط . سيفتح مكتبه «للزبائن» بعد المغرب فتذهب إليه . قال: ألا تستطيع أن تذهب معى إليه . ضحك وقال : طبعا ليكون الجار والوفاء والميسرة حاضرين . قال لا . معى ثلاثة جنيهات ولا أعتقد أن المسألة ستحتاج إلى أكثر من هذا قال عبد الجواد : هذا كان زمان . قبل الحرب . ارتفعت الاسعار منذ الحرب وهى ترتفع كل يوم . هل تعرف كما نتقاضى ثمنا لكوب الشاى الذى شربته . قال : لقد شربت ثلاثة أكواب شاى فى البدارى بثلاثة تعريفة . سأله متصنعا الاستغراب ، متى ؟ قبل الحرب أم بعد الحرب . قال ضاحكا : صباح اليوم يا عبد الجواد .. قال ربما الحرب لم تصل البدارى بعد وضحكا . ثم قال جادا : اذا ذهبنا فلا تساوم الاستاذ . انه يكره هذا . ما يطلبه اعطه له . واذا لم يكن معك ما يكفى سأكمل أنا ثم نتحاسب فيما بعد .

– هذا زميلى فى الأزهر الشيخ عباس من الهمامية مركز البدارى .

– أهلا وسهلا . ماذا تريد من خدمة يا شيخ عباس .

– أرجو أولا أن تتفضل وتلقى نظرة على هذه الاوراق . ووضعها أمامه .

تصفحها سريعا ، ثم عاد فقرأ صورة منها قراءة متأنية. رفع رأسه وهو يبتسم وقال «فكرة جهنمية» .. ليت الناس يفعلون مثل هذا . هل هي فكرتك يا شيخ عباس . قال : لا. ولست في حل فأذكر صاحبها . قال الاستاذ أبو شقة . لابد أن يكون انسانا مثقفا ووطنيا . هذه فكرة وطنية . الوطنيون لاتعوزهم الافكار العبقرية ، ألا تقول لى من ؟ .. قال انه حسين أفندى فريد الذى كان باشكاتبا فى مركزنا البدارى. فلمعت عينا الاستاذ أبو شقة وقال مهللا : أخى حسين فريد . طبعا الوطنى وطنى حتى لو (وضحك) القوة فى البدارى . خسارة أنه لن يعود إلى هناك . قال الشيخ عباس بلهفة : لماذا ؟ . قال : لقد فصلوه بحجة مغادرة مكان عمله بدون اذن . قال ولكنه ترك عمله فى أجازة وافق عليها المأمور.. قال : لم تكن على ورق مكتوب فأنكر المأمور خوفا من أن يسأل عن سبب الموافقة . على أى حال أن مستقبل حسين فى مصر وليس فى البدارى .. وماذا تريد أنت بعد أن أعددت كل هذه العرائض . قال : أريد أن أضمن وأتأكد أن كل صورة منها قد وصلت فعلا إلى من أرسلت إليه ولا آمن للبريد . فقد سمعت، أو ربما قرأت ، أن البريد مراقب من السلطة بحكم الاحكام العرفية . فجئت إليك لترى لى سبيلا إلى تحقيق ما أريد .

قال : دعك من وزير الداخلية ورئيس الوزراء . هذان لايملكان لاحد شيئا ولا يخافان إلا الانجليز . سأرسل لك الصور

الباقية غدا صباحا عن طريق الانذار القضائى . يقوم محضر من المحكمة ويسلم كل واحد الصورة الخاصة به ويحصل على توقيعه بالاستلام .

قال : عظيم وكم يكلفنى هذا ..

قال : رسوم كل إعلان عشرة قروش ، وسنرسل أربعة ، فالتكاليف أربعون قرشا . ثم عشرة قروش مواصلات من أسيوط إلى البدارى ذهابا وأيابا ، فتكون الجملة خمسين قرشا . بعد أربعة أيام تحضر إلى هنا وتستلم منى أصول الاعلانات موقعا على كل منها بالاستلام .

قال : وأتعاب المكتب .

قال : عيب يا شيخ عباس . إنت فى مكتب عبد الكريم أبو شقة . فهل يتقاضى أى وطنى أتعابا على أن ساهم فى عمل وطنى . أو أى صديق حميم في أنه نفذ فكرة صديق حميم . أرجوك لاتتحدث عن الأتعاب .

قال : طيب عندى سؤال وسأدفع أتعاب المكتب عن جوابه .

قال (ضاحكا) : إسأل .

قال : اشتريت بعض الأراضى ، نصف فدان على ثلاث قطع ، فكيف «تنزل» فى التكليف علي اسمى .

قال : هل ينازعك أحد من البائعين.

قال : لا ..

قال : تأخذ العقود وتذهب الى مصر فى أى فرصة وهناك تتوجه الى المحكمة المختلطة فى قلم الرهونات العقارية . تحرر حافظة ايداع بالعقود وترفقها بها وتدفع الرسوم . يقوم قلم الرهونات بادراج البيع وبياناته فى النشرة التى يصدرها كل شهر . فاذا مضى شهر على النشر بدون أن يعترض أحد ، تأخذ شهادة بعدم الاعتراض وتقدمها هى وحافظة الابداع إلى وزارة المالية ـ فى مصر أيضا – فتقيد الارض باسمك ابتداء من العام التالى وتظهر فى التكليف ..

قال عبد الجواد : ياه .. دى لفة طويلة .

قال الاستاذ : أصلها مقررة لمصلحة الاجانب الذين يرتهنون أو يشترون العقارات وبالنسبة اليهم ليست طويلة لان كل الاجراءات تتم فى مصر . إنما نسيت أن أقول لك أن صورة من النشرة الشهرية تصل كل شهر الى المديرية ، فيمكن الاطلاع عليها هناك .

قال الشيخ عباس : والآن كم أتعاب الاستشارة الشخصية .

قال بجدية : جنيه .

دفعه وانصرفا شاكرين ..

صلى العشاء مع الشيخ عبدالجواد فى مسجد «سيدى جلال» (الامام جلال الدين السيوطى) وقضى نهاره «على القهوة» ، واستمع فيها الى الاحاديث التى تشغل أهل أسيوط . زيادة الاسعار زيادة فاحشة . زاد سعر القطن على ثلاثين ريالا للقنطار فارتفعت كل الاسعار حتى أسعار البصل . وتحولت قرية منقباد القريبة الى معسكر

للجيش الانجليزى . ومنذ المغرب من كل يوم يتجول جند الانجليز فى شوارع المدينة سكارى . وأشنع من هذا وأفظع أن قد أنشأوا «الوسعة» غربى أسيوط وخصصوا ذاك الحى الهادىء لايواء المومسات محترفات الدعارة .كان روادها فى البداية من الانجليز . ثم خالطهم فيها شباب من الأهلين . وقيل أن «وسعة» على أضيق قد افتتحت فى مدينة أبوتيج لا تبعد إلا خطوات عن مقام سيدى الفرغلى رضى الله عنه .

– إيه أخبار البلد يايونس ؟

أخبار البلد «وحشة خالص» . محمد ظرظور مات بعد المغرب يوم أن سافرت . فوجئنا فى البلد أن كمبيل انجليزى «جاى يجرى» ملىء بصناديق خشب وفوقها جثة محمد ظرظور ملفوفة فى فوطة يسندها عزيز حسين بذراعه ، ذهبت السيارة إلى المقابر رأسا ، والخفراء استدعوا العمدة ، وإمرأة محمد ظرظور والامام واللحاد ، وشاع الخبر وبدأ الصراخ ، ودفن ليلا . ولم يحضر عبدالقوى على ظرظور وسألنا عنه عزيز حسين قال أنه لم يره . الخواجة أضاء فوانيس الكمبيل على التربة ليسهل عملية الدفن . ولكن ابن الكلب كان كمن يتفرج ، ولما رأى الحريم تضع الطين على رءوسهن ضحك . عزيز حسين «فص ملح وداب» . لم يظهر بعد وصول الكمبيل . فى الصبح وفى منضرة أولاد عمران لقينا عبدالقوى على ظرظور «ناصب» الجنازة ويتقبل العزاء . قلنا غريبة . كيه يعنى يعمل جنازة لواحد مقتول قبل مايأخد تاره . قامت إشاعة فى الرياينة أن العمدة دبر لعبد القوى فرصة الثأر لعمه يوم وفاته وأن الكمبيل وهو عائد إلى البدارى اختفى ولم يصل . وقد جاءت فى الفجر قوة من الانجليز ومعهم مأمور المركز والضباط

والعساكر والهجانة وحاصروا البلد و«كبسوا» عليها فى الصبح وقد حسبهم الناس قادمين للقبض على الذين رفضوا التطوع وجاءت أسماؤهم فى العريضة فهرب أغلبهم إلى الجبل وانفجرت نساء القرية صراخا . وقال امام المسجد ماردده الناس من أنك أنت السبب فى تلك البهدلة لأنك أعطيت الحكومة أسماء الرافضين . وقد اتجهت القوة أولا إلى دوار العمدة فلم يخرج إليهم إلا بعد نصف ساعة مسنودا على أيدى اثنين من أولاده . «شخط فيه» المأمور وقال له : «إيه الاجرام ده اللى حصل إمبارح ياعمدة» . قال : أنا لاشفت حاجة ولاسمعت حاجة أنا كنت عيان ونايم جوه . قال المأمور : ألم تر السيارة التى أحضرت الجثة وهى تغادر الهمامية وهل كان بها أحد غير السائق الانجليزى ؟ . قال : أنا لا شفت سيارة ولا سمعت زمارة . أنا كنت عيان ونايم جوه . عزيز حسين «لقط الفولة» فتقدم إلى المأمور وضرب له سلام وقال تمام يافندم . أنا شفت الكمبيل . حضرت فيه الجثة وبعد استلامها غادر البلد وانشغلنا نحن بدفن الميت . فتحوا محضر . عزيز يتكلم «زى البريند» والمأمور يترجم وواحد انجليزى يكتب . عزيز كان يتكلم بصوت عال نسمعه نحن من الشباك الخلفى للمنضرة . فعرفت البلد كلها «إيه الحكاية» . سألوا ناس كتير وحريم كمان . فشهدوا جميعا حسب كلام عزيز حسين .

جاء غطاسون بسيارة أخرى . اتجهوا جميعا إلى الترعة ، ونبشوا قاع الترعة من أول الكوبرى شمالا حتى «الملص» آخر حدود زمام بلدنا . تركوا عمدتنا والخفر ودخلوا زمام العقال البحرى وهم يبحثون فى الترعة وفى الجبل وفى المزارع . بعد اثنين كيلو وجد الغطاسون

السيارة غارقة تحت قنطرة العقال البحرى . نشلوها . ولكنهم لم يجدوا لا الخواجة السواق ولا الصناديق التى كانت فيها . يقال أنها كانت مليئة ببنادق «رمنجتون» وذخيرة . لأن الخواجة غلط وهو يسأل شيخ خفر العقال البحري وسأله : ألم تشاهد أحد امن القرية يحمل بندقية رمنجتون . قال لا . ولا أعرف شكل الرمنجتون . قبضوا على شيخ الغفر وعلى حارس القناطر مع أنه ليس من العقال البحرى بل من الرياينة ويشتغل فى القناطر . قال أنه لم ير السيارة أصلا . وأن تيار الترعة ربما يكون قد جرفها من قبلى . وأوقفوا العمدة ولايزال التحقيق مستمرا . لقد كدنا نصل إلى قناطر العقال وسترى هناك السيارة فلا داعى للنظر إليها حتى لاتلفت انتباه الجراس .

قال : يايونس . السيارة مليئة بالطين فكيف يجرفها التيار من قبلى.

قال : لا حول ولا قوة إلا بالله . وأنت ايش عرفك ياشيخ عباس أن التيار جرفها من قبلى ؟ هل تريد أن تشهد على البلد ، ألا يكفى ما حدث . دا أنا قلت للناس ياولاد الكلب هوه معقول أن الشيخ عباس اللى عايل همكم هو السبب فى الكبسة . قالوا : برضه مش معقول . فهل تريد أن تفتح بابا جديدا على نفسك .

ضحك وقال : ولماذا لم تهرب أنت يايونس .

قال : كيف أهرب وأتركك أو بدون أن أستشيرك . ثم أنى كنت أعرف أنك لم تقدم العرائض وسافرت بها إلى أسيوط فلايمكن أن تكون سبب «الكبسة» . الغريبة ياشيخ عباس أن ولد خالك الشيخ محمود

عبد اللطيف كان «عامل نفسه ميت». وأول ما عرف أن السؤال عن الكمبيل . قام زى الحصان وحط أقواله بأنه شاف بعينه الخواجة وهو ماشى بالكمبيل وحده على البدارى.. المأمور ضحك وقال له زى ماعتقولوا اللى يكون عيان ويخف «أجر وعافية يا عمدة». الحريم بعد ماقعدت طول الصبح تصرخ قعدت آخر النهار تضحك على العمدة العيان. والعيال أولاد الحرام كل مايفوتوا قدام منضرة العمدة يقولوا: أجر وعافية يا عمدة ويجروا . وأنت ماذا فعلت فى أسيوط ؟ .

قال له : كل شىء خير . وصلت العرائض الى الحكام وأصبحت البلد آمنة .

قال : لا داعى لنشر هذا الخبر خوفا من أن «حرمة تزغرت» أو تحصل حالة فرح فى البلد وفيها جنازة . تكتم الخبر إلى ما بعد الأربعين احتراما لأولاد عمران .

قال : سأقول للعمدة فقط حتى يطمئن .

(١٢)

عند زاوية تقاطع جسرى «الصليبة» تقوم «تاية» فى ظل شجرات السنط الباسقات . و«التاية» مسكن من حوائط بوص «سابقة التجهيز». يحبك» بوص القيضى الجاف بأن تشد «حزم» منه بعضها إلى بعض بحبال الليف حتى تبدو كالحصير السميك العريض . فهى حينئذ «سباتة» يحفر «للسبايت» فى الأرض أساس مرسوم تصف فيه وتثبت بالطين فإذا بها حوائط من البوص . سباتة من البوص قائمة فى كل جهة تقصر إحداها لتترك مدخلا . وسباتة من البوص تكمل ضلعى زاوية داخلية فتصبح حجرة (خزانة) ، ثم سباته تلقى فوق الحجرة

فتسقفها . فيما بقي من مساحة «التاية» تقوم فرن وكانون ومرابط للبهائم . تتكاثر التوايا على رءوس الغيطان فى موسم الربيع . وموسم الربيع في القرية ليس هو فصل الربيع بل هو موسم زراعة «البرسيم» اذ الربيع هو الاسم القروى لنبات البرسيم . وحين تنشأ التوايا على رؤوس مزارع البرسيم وتنقل إليها البهائم وأصحابها تاركين مساكنهم على سفح الجبل يقول أصحابها رايحين نربعو . ودلالته اقامة البهائم بجوار البرسيم تتغذى به وهى مشدودة إلى أوتاد لاتسمح لها بالغذاء إلا بقدر معلوم إلى أن ينفد الربيع . هذا بدلا من عناء «حش» البرسيم ونقله يوميا إلى المنازل الضيقة المعلقة . ولهم فيه مآرب أخرى أهمها أن البهائم تفرغ فضلات ماتأكله على أرض الغيط مباشرة فتخصبه كلما أكلت ، بدلا من عناء تجميع روثها فى المنازل الضيقة المعلقة ثم إعادة نقله إلى الأرض لتخصيبها . ثم أخيرا تتذوق الأسر حياة طليقة بدلا من كتل المبانى المتراصة الآسرة . وبانتهاء موسم الربيع ترفع التوايا ويعودون إلى حضن الجبل إلا «التاية» القائمة في ظل شجرات السنط الباسقة عند زاوية تقاطع «الصليبة» غربى الكوبرى .

تلك أنشأها سطوحى عبدالمنعم بعد أن عاد من هجرته القصيرة إلى مصر يحمل موقد «جاز» (بريمس) وأفكارا ذكية لتؤدى وظيفة ممتدة على مدى أيام العام . يمكن أن يقال أنها «نادى» ويمكن أن يقال أنها «مقهى» ويمكن أن يقال أنها «غرزة» وأقرب مايمكن أن يقال عنها أنها «مهجر» يلوذ به شباب القرية خاصة لكسر طوق الحصار القبلى والأسرى والمادى الذى يحبسهم فى بيوت القرية . فيها يلتقون فى الشتاء حول نار موقده ، يمصون أعواد القصب التى جلبها إليهم

سطوحى عبدالمنعم من سوهاج . ويتبارون مباراة «اللوكامية» أو مباراة السيف . من يقطع حزمة محدودة العدد من أعواد القصب المضمومة بضربة واحدة من قبضة يده العارية يأخذ كل الأعواد ويخسرها الذين تحدوه . فان لم يستطع فقد خسر العود الذى أسهم به فى المباراة . أما السيف فهو جانب يد الضارب أصابعها منفردة . ومن لايراهن ، يشرب شتاء وصيفا ، نهارا وليلا ، الشاى المغلى على نار «وابور الغاز» الذى لايملكه إلا سطوحى عبدالمنعم . وذلك شاى أفضل مما يشربونه فى مناضرهم إذ أن هذا الأخير يلتقط رائحة دخان الكانون فيسوء طعمه . أما الوابور فلا يرون أدخنة تنبعث منه . ثم أن سطوحى عبدالمنعم يقدم الماء والجوزة والمعسل والسجائر وبعض الحلوى . وأهم منها «كوتشينة» لمن يريدون من المهاجرين إليه أن يلعبوا «الكومى» رهانا على المشاريب بعيدا عن الجدود والآباء والأعمام، وإن كان بعض الكهول يفدون إلى تلك التاية يوم السوق ، حيث يوافيهم كل سبت شداد القاوى بائع الأفيون الجائل يبيع لمن يريد منهم «هبابة أفيون» . الهبابة نصف «السمارة» والسمارة حجم رأس عود الكبريت ماركة المفتاح . يستحلبها صاحبها فى فمه وهو يعادل مرارتها بكوب حلو من الشاى الثقيل . لايتعاطى أحد فى القرية «الحشيش» لأنه مخدر ، ويتعاطى القادرون من الكهول والشيوخ الهبابات أو سمارات من الأفيون . يقولون لأنه منشط . الأول حرام والثانى حلال . فترى «التاية» ، تاية سطوحى عبدالمنعم ، عامرة بالناس داخلها ومن حولها فى أى يوم عبرت الصليبة طوال النهار وبعض الليل . شتاء وصيفا ، إلا أن تكون قد اجتذبت روادها «مصيبة عامة» .

حينما اقترب الشيخ عباس ويونس عبدالله من «الصليبة» عائدين من البـدارى ، لاحظا أن لا أحـد يبين حـول تاية سطوحى عـبـدالمنعم فتشاءم يونس عبدالله وتساءل الشيخ عباس عما يكون من سبب محتمل لهجر المهجر . اقتربا من مدخلها فبرز اليهما من داخلها عزيز حسين وكيل شيخ الخفراء ، تبعه خفيران ، ثم سطوحى عبدالمنعم شخصيا .. ترجل الراكبان ، عزيز حسين متجهم . ماذا هناك ياعزيز . أين الناس . لماذا تبدو البلدة خالية . البحر زاد وأصبح يهدد الجسور ، فذهب الناس للمـرور على الجسـور وتدعيم المواضع الضـعيفة حـتى لاتنقطع وتغرق الزراعة . وهل هذا يسبب لك ما هو ظاهر على وجهك من نكد .

تقدم إليه عزيز حسين وأخذ يده وابتعد به عن الآخرين .

ياشيخ عباس إحنا رجالة باشناب ومجـوزين حريم . صح ولا له ، ضحك وقال صح .. بس .. أنا ياعزيز غير متزوج . ارتبك عزيز وقال : انت الله أكرمك فأعطاك بدلا من الزوجة مخا . وإنى أريد أن تنقذنا من الورطة التى نحن فيها .

- قل . ثم قال لمحمود ولد مطاوع «صبى» سطوحى عبدالمنعم إذهب بسرعة وقل للعمدة انى وصلت وفى طريقى اليه .

- جاء صباح اليوم إلى دوار العمدة الشويش عتريس راكبا حصانه. أبلغ العمدة أمر المأمور بتكليف الخفراء بجمع عشرين رجلا من البلد بما يلزمهم من فئوس ومقاطف والتوجه بهم إلى العتمانية (قاو) للمعاونة فى تدعيم جسر النيل وحراسته حتى لاينقطع نتيجة ضغط الفيضان ويغرق البيوت والمزارع .

- وهل ذهب الرجال .

- لا ..

- طبعا لأنهم مشغولون بتدعيم جسور الترع لحماية مزارع البلد كما قلت .

- ياريت ياشيخ عباس . حين رأى الناس حصان الشاويش عتريس داخلا البلد عرفوا أنه قادم ليأخذ الشباب والرجال إلى أى بلد كما يحدث كل عام يزيد فيه الفيضان . فهربوا .

- إلى أين .

- قلة اختبأت داخل مزارع القيضى والباقون هربوا إلى الجبل .

- وبعد ؟

- العمدة طلبنى فى المنضرة أنا والخفراء وبلغنى طلب المأمور وأمرنا بأن نحضر الرجال «من تحت الأرض».

- وهل أحضرت أحدا .

- أبدا ، ونحن مارون ، أنا والخفراء ، دخلنا مقام سيدى جابر ، وقرأنا الفاتحة على عهد بأننا لن نحضر أحدا من أولاد بلدنا مرة أخرى لحراسة بيوت البلاد الأخرى حتى لو عملوا لنا مجلس عسكرى .. وحضرنا إلى هنا وادى إحنا قاعدين .

- وماذا تنون عمله .

- لا نعرف . بدأنا فقط نخاف على العمدة ربما يحملونه المسئولية وهو رجل طيب ، الحمد لله أنك حضرت لتقول لنا رأيك فيما يجب أن

نعمله .

صمت قليلا ..

ثم قال : وأين الشويش عتريس الآن .

قال : مع العمدة فى المنضرة .. «ما هو لازم يستنى لغاية مايتغدى زى كل مرة» لكن موعد الغذاء قد انقضى ونحن مقدمون على العصر . فماذا نفعل ؟

قال : لا تقلق . المسألة محلولة . أنت أوجدت لها الحل ياعزيز ياحلال العقد . اسمع .. احفظ ما سأقوله لك ونفذه كما هو بدون تغيير ولاتهتم بأن يغضب العمدة أو يتظاهر بالغضب . سأسبقكم إلى منضرة العمدة أنا ويونس عبدالله لأن العمدة منتظرنى طبعا . بعد أن تتأكدوا من أننا قد وصلنا .. تأتى أنت والخفراء جريا . ينتظر الخفراء خارج المنضرة وتدخل أنت جريا إلى حجرة التليفون .. وتطلب المركز و و و ....

العمدة جالس ومن حين إلى حين يغط فيوقظه الشويش عتريس . والشويش عتريس جالس وراء كرشه المنتفخ وقد ألقى عنه طربوشه وسترته فكشف عن فانلة مبللة بالعرق داكنة بما جذبه العرق من تراب ، تعلوها حمالة تشد «البنطلون» إلى كتفيه وهو يجتذب الهواء إلى وجهه السمين بمنديل مخطط .. حين دخل الشيخ عباس انتظر يونس عبدالله فى الخارج . السلام عليكم . قالا السلام ورحمة الله وبركاته . وبادر العمدة بالقول : ياشيخ عباس الموضوع الذى بينك وبين أعمامك الذى تريد أن تتحدث عنه الآن سنتحدث عنه فيما بعد .. إحنا دلوقتى مش

فاضيين .. فهم عباس وقال : وهو كذلك .

اندفع عزيز حسين جريا إلى حجرة التليفون لم يلتفت .

صاح بأعلى صوته فى بوق التليفون الذي تدفع الكهرباء إليه بطارية سوداء جسيمة مدفونة فى أرض الحجرة : يامركز . يامركز . يامركز . رد يامركز . يامركز .. لم يجب أحد . فقد كان يضغط بيده الأخرى على حامل البوق . تظاهر باستغاثة المركز ليستفز العمدة أو عتريس .

قال العمدة صارخا : ياعزيز .. اترك التليفون وتعالى هنا .. ما الذى تريده من المركز . ولو لم يقلها لقالها الشيخ عباس كما كان متفقا عليه مع عزيز حسين .

- أريد أن أبلغ عن مصيبة .

- ولماذا المركز . أنا العمدة .. ومعنا الشويش عتريس رئيس النقطة. ما الأمر ؟

- الأمر أمر الله ياعمدة .. ذهبت أنا والخفراء لنحضر الرجال الذين طلبهم الشويش عتريس فلم نجد أحدا فى البلد أو عند الصليبة .. وقيل لنا أن البلد كلها موجودة عند جسر «الصبخة» بحرى السحارة الغربية ليسدوا القطع الذى حدث هناك . ذهبنا جريا .. فوجدنا الرجال كلهم متكاتفين فى القطع ليمنعوا الماء بأجسادهم من أن يخترق الجسر . والحريم تنقل الطين على رءوسهن وتصبه فى القطع . ولكن كل هذا لن يجدى ياعمدة إلا إذا الحكومة ساعدتنا وأرسلت إلينا مساعدة من البلاد المجاورة . فجئت أجرى لأبلغ المركز ليرسل نجدة .

تمطى الشويش عتريس وقال : برضه كده ياوكيل شيخ الخفر . إنت

تبلغ المركز وأنا موجود . ما الذى أفعله اذن أنا فى الهمامية . الذى يبلغ ياشيخ الخفر هو أنا . أم تريد أن يقولوا أننى كنت نائما فى الهمامية . هات ورقة ياشيخ الخفر وسنكتب محضرا تشهد عليه أنت ياعمدة .

كتب : فى تاريخه وساعته بناحية الهمامية وبناء على تكليف المركز بمأمورية إحضار مساعدة لحراسة جسر النيل بناحية العتمانية المجاورة لناحية الهمامية حضرت أنا الشويش عتريس عبدالمحسن رئيس نقطة بوليس نجوع الجزيرة المكلف بالمأمورية وتقابلت مع نائب العمدة الشيخ محمود عبداللطيف الذى أرسل معى قوة البلدة وكيل شيخ الخفراء والخفراء للبحث عن أفراد المساعدة . وحالة مرورنا على جسر «الصبخة» بحرى السحارة الغربية وجدنا أهل البلدة جميعا يحاولون منذ فجر اليوم سد قطع جسيم فى الجسر والمياه تهدد الزرع . وأشرفنا على المقاومة وانتظرنا حتى العصر من أجل أخذ مساعدة معنا إلى العتمانية ولكن إلى ساعة كتابة هذا المحضر لاتزال المقاومة مستمرة وليس من المحتمل أن تنجح إلا بمساعدة أهل البلاد الأخرى وختم المحضر على ذلك وقائم به إلى نقطة بوليس نجوع الجزيرة لعمل اللازم .

وقع محرر المحضر . وبصم عزيز حسين .. وختم العمدة .

انصرف الشاويش عتريس بعد أن فرش المنديل على رأسه وثبته بطربوشه لبس سترته ، وتجشأ ريح البطة التى تغدى بها ، وركب حصانه ، وتوكل على الله ، يتابعه خطوة خطوة وكيل شيخ الخفراء حتى «الصليبة» فودعه . وتتابعه من فوق أسطح المنازل وشعاب الجبل عيون

قلقة . فما أن غادر القرية متجها من «الصليبة» الى «نجوع الجزيرة» حتى اطمأنت وخرجت من مكامنها الى الدروب هبطت اليها من الشعاب تتبادل الحمد لله ، وتتحرى أسباب مغادرة عتريس «التليس» كما يلقبونه لضخامته، فيروبها بصيغ شتى جادة أو مرحة يونس عبد الله ثم نقلا عنه وعن الناقلين حتى عرف أهل القرية أن فى قريتهم قوة تغلب الحكومة بالجسارة والذكاء والحيلة يقودها عباس ولد محمد اسماعيل. فتبادلوا السخرية من الهرب والهاربين وعلى رأسهم يونس عبد الله أول الساخرين .

قال الشيخ محمود عبد اللطيف : ها نحن منفردين معا فقل لى ما الذى فعلته فى أسيوط وماذا كانت النتيجة . قص عليه ماحدث تفصيلا. لم ينتبه محمود عبد اللطيف الى ما حدث بعد زيارة مكتب الابوكاتو أبو شقة وان كان القاص قد أكمل قصته . قال العمدة اذن فهذا هو السبب ؟ .. قال : ماذا تعنى ؟ أى سبب . لقد قلت لك أن العرائض قد سلمت فى أسيوط وفى البدارى . فهل كان ذلك سببا لأى نتيجة لا أعرفها .

قال الشيخ محمود عبد اللطيف . لا . لا . لا .. « مش قصدى» . لقد كنت مشغولا منذ مدة بمحاولة معرفة سبب اختفاء صديق محمود حماد من البلد ومن المركز . وعرفت صدفة من على حامد أنه فى مصر فازداد الأمر غموضا . ماذا يفعل فى مصر . وما علاقة هذا بالعمودية التى يسعى إليها . الآن عرفت السبب . لابد أن يكون قد استكتب أولاد عمه بيوعا صورية بأرضهم لتكمل له خمسة أفدنة فيوفى بشرط تولى العمودية فذهب الى مصر وقدم تلك العقود فى المختلط لتنزل على اسمه

فى سجل الأراضى المكلفة . إذا كان قد فعل هذا منذ أن اختفى فله الآن ثلاثة أسابيع . وتكون النشرة قد وصلت المديرية وباقى أسبوع . غدا سأذهب إلى أسيوط وأعرف ما اذا كانت النشرة قد وصلت أم لا ولا أعرف ماذا كان ما قاله لى معاون الادارة من أنه سيتولى العمودية الاسبوع القادم صحيحا أم أنه ابتزاز كعادته . المهم أبو شقة قال أن لابد من مرور شهر بعد وصول النشرة إلى المديرية . أليس كذلك . نعم ولقد سألت أبو شقة لأن موضوع الشراء الصورى كان قد بلغنى أن له علاقة بالعمودية ولم أكن أعرف كيف تم هذا .

– إذن غدا من الفجر سأذهب إلى أسيوط لاتأكد من التواريخ . هل تأتى معى .

– لا والله يا عمدة . أنا غائب منذ يومين . وكان المفروض أن يتزوج اسماعيل أخى اليوم الخميس وقد نسيت موضوعه تماما ، ولا أعرف كيف أقابله فضلا عن مشاغل أخرى .

– لا تشغل بالك بمسألة زواج اسماعيل . لا زواج فى البلد الا بعد أربعين المرحوم محمد طرطور . ولا تنسى أن تذهب الى منضرة «أولاد عمران» للعزاء بعد المغرب . وستجدنى هناك . أما أنا فمن الفجر سأذهب إلى أسيوط . وإذا لم أعرف بنفسى فسأستعين بالابوكاتو أبو شقة يعرف لى هل وصلت النشرة أم لا . وأعطيه أتعابه . كم قلت لى أخذ منك .

– مائة وخمسين قرشا .

– كتير ..

- وبالمناسبة ، وقبل أن أنسى هذه المائة والخمسين قرشا التى أعطيتها لى فى البدارى .لا . لا . والله . عيب . نحن شركاء . وأنت قلت أنك لم تعمل حسابك .

- لا . «كتر خيرك» . لقد كنت أحسب أن المسألة ستتكلف أكثر مما تكلفت ، ولكنه ، الله يكرمه ، لم يأخذ أتعابا عن مسألة العرائض .

- اذن لماذا أخذ مائة وخمسين قرشا .

- خمسين قرشا رسوم ارسال العرائض ومائة قرش أتعاب الفتوى .

- طيب . سأطلب منه فتوى على الاكثر .

ومد يده فأخذ المائة والخمسين قرشا المدودة بها يد الشيخ عباس . وقاما لينصرف عباس . لم يجد الحمار أمام المنضرة . قال أين الحمار فقال له محمود عبد اللطيف ضاحكا : لقد عاد إلى منزلكم لأنه حمار ، إذ من عادة الحمير، لأنها حمير ، أن تعود إلى المنازل التى اعتادت أن تحمل فيها الاثقال ، ويمتطيها الناس ، بدلا من أن تهرب ولا تعد ..

ضحك الآخر وانصرف عائدا إلى منزله مشيا على قدميه ..

هنالك لفته بقوة أن عمه الحاج مشهور وعمه مصبح ، وأخويه ، وكثيرا من أفراد عائلته بمن فيهم محمد عبد الله وأحمد عبد الرحيم ثم ولد خاله أحمد عبد اللطيف يستقبلونه واقفين مرحبين فى مدخل «المنضرة» الفسيح . «منضرة» العائلة هذه المرة وقد كنست أرضها ورشت بالماء ورصت فيها «الدكك» ، عليها «فرشيات» من الصوف الملون

ومساند من القطن . قال السلام عليكم وهو يصعد ثلاث درجات إلى ردهة المنضرة . قولوا : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته . فصافح أيديهم الممتدة ، واحتضنه عمه مشهور . ونادى محمد عبد الله على ولده على : شاى يا على لولد عمك الشيخ عباس . «بس تقيل» ..

خطر له أن كل هذا من تجهيزات عرس اسماعيل فالتفت إلى اسماعيل وقال « تأخرت عليك يا عريس فلا تؤاخذ أخاك» ..

قال مشهور ، كبير العائلة : «عريس إيه وشغل أيه» .. أنت عريسنا. . عريس عائلة «أولاد مشهور» رفعت راسنا فى البلد ..

قال محمد عبد الله : لا والله يا حاج مشهور . ليس فى بلدنا فقط . رفع رأسنا فى كل البلاد المجاورة . كلها تحكى عن عباس محمد اسماعيل «اللى من المشاهرة» وما فعله لمصلحة البلد فى ثلاثة أيام . طلعها براءة من حادث الكمبيل ، وزاح التهمة على أهل العقال البحرى ولاد الكلب ، جزاء على أن جدودهم نهبوا جدودنا ، وحمى البلد من السلطة «اللى عرابى نفسه ماقدرش يحمى روحه منها» . «وأول الشويش عتريس ما سمع أنه وصل البلد طلع منها طوالى» .. هل هناك من ينكر شيئا من هذا .

قال عبد الغنى عبد المغيث : « ينكر كيه » دا زى الشمس الطالعة . والناس كلها شاهدة «عمدة الرياينة هو الذى شهد أن الشيخ عباس هو الذى نقل الكمبيل للعقال البحرى . وعمدة الرياينة «ما يكدبش» .. قالوا جميعا : صح . وعزيز حسين كان فى البدارى ورأى الشيخ عباس يأخذ العرائض التى حمت البلد من السلطة ويذهب لمقابلة المدير فى أسيوط .

قالوا : صح .

ويونس عبد الله قال : أن ولد العمدة قال له أن الشويش عتريس لم يكن يريد أن يغادر البلد قبل أن يأخذ معه الانفار ، ولكن ولد مطاوع الصغير جاء يجرى وقال للعمدة أن الشيخ عباس وصل عند الصليبه وفي طريقه اليه ، فلما سمع الشويش عتريس «التليس» أن الشيخ عباس «جاى» قام طلع من البلد على طول . وكمان عيقولوا إنه سافر مصر في قطر الليل يوم الثلاثاء وقابل الوزير وجاب منه أمر للسلطة إنها ما تقربشي من الهمامية سلمه للمدير في أسيوط » .

جزع مما سمع ، وهم بأن يصحح ما يقولونه ، خاصة «تهمة الكمبيل» ولكنه لم يجرؤ على أن يبدد ما يغمرهم من بشر وفخر . ونظر إلى أحمد عبد اللطيف فوجده يتأمله بعينيه الضيقتين الثاقبتين كأنه يحذره ، وتذكر ما قال له يوما أن لا شيء يبلغه مما جرى في البلد إلا ما يسره . فهدأ واقنع نفسه بأنهم لا ينقلون إليه ما وقع صدقا ولكن ما يتمنون أن لو كان قد وقع كأنه واقع فعلا . يسره فيسرهم ..

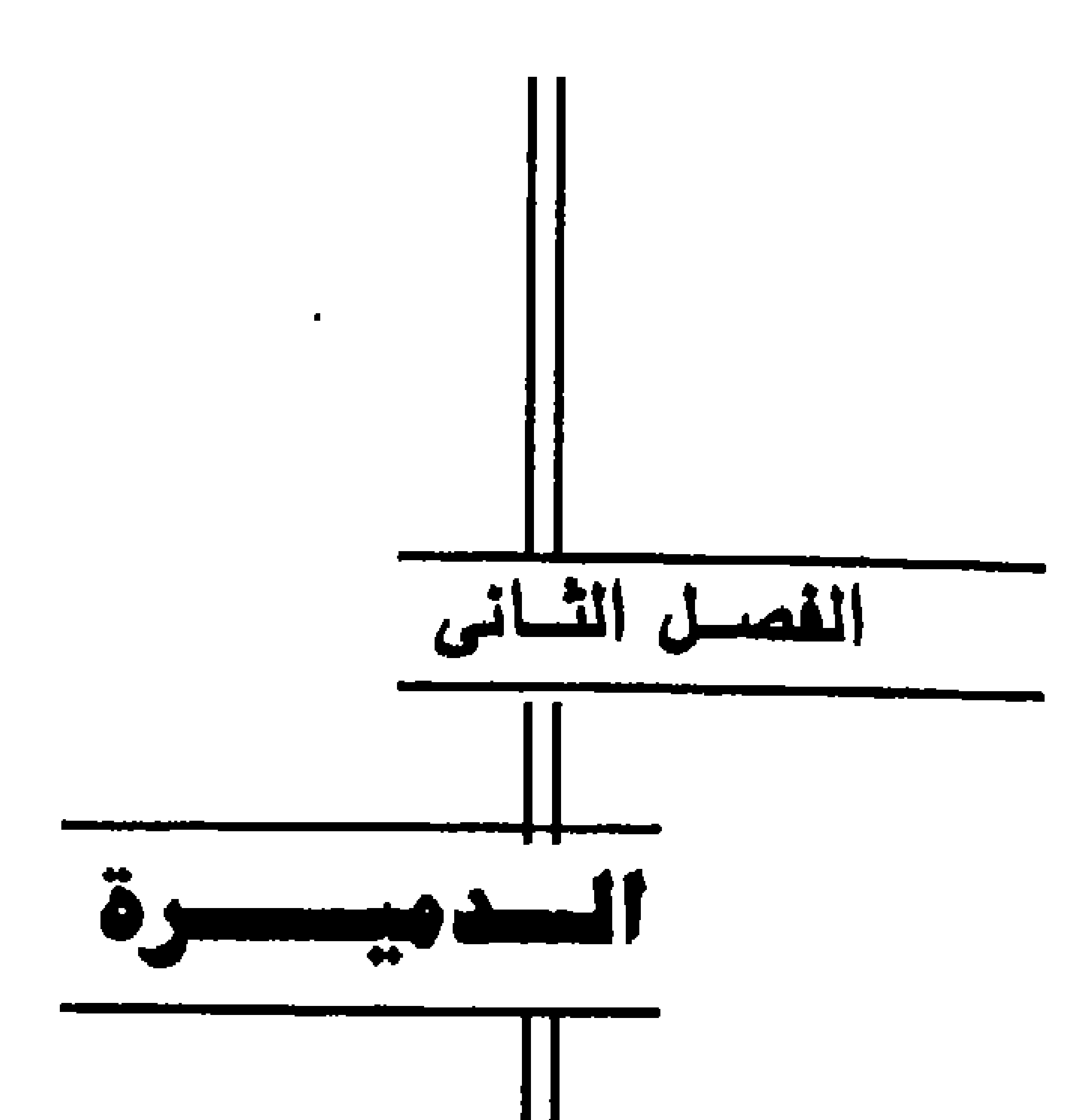
ثم جاءت «الصوانى» محمولة على الرءوس تحمل» «رغفان» ولواحيق ملوخية، وحماما محشوا بالفريك . جاءت من بيت مشهور وقد أعدت من الظهر احتفالا بعودة الوفاق إلى العائلة وعودة افتتاح منضرتها الكبيرة، ثم انتظرت الشيخ عباس فلما أن عاد عصرا قدمت غداء أو عشاء . حين فرغوا من الأكل ، كان قد آن موعد صلاة المغرب ، فتوضأ المصلون وذهبوا إلى المسجد القريب ومعهم الشيخ عباس ، و«الكلوب» الذى انتقل من منضرته إلى منضرتهم بدون اذن فاتخذوه إماما وصلوا المغرب جماعة . يعترف بأنه وهو يصلى ذاك المساء كادت صلاته تفسد

بسبب أفكار سوداء تعود إلى ذهنه حاملة شبح «الكمبيل» تارة وتشغله تارة أخرى بما آلت إليه منضرته وما فيها من دكك ومقاعد وكتب ، بعد الصلاة توجهوا ، من صلى ومن لم يصل ، إلى منضرة «أولاد عمران» كما فعلوا من قبل وهو غائب وكما سيفعلون حتى تنقضي الليالى الأربعين . عمه مشهور بجواره فى المقدمة والباقون لها تابعون ، حتى أدوا الواجب المتكرر وانصرفوا . فاتجه رأسا إلى منضرته . كانت صفية تنتظر فى الردهة . فلما هم بأن يدخل المنضرة ، نبهته إلى أن أمه قلقة عليه تريد أن تراه . لم يمكث طويلا مع أمه ، بل عاد الى منضرته فوجدها كما هى من أرض وحوائط وسقف وكتب ، وإن كانت خالية من المقاعد والدكك إلا دكتين ضمتا وفرشتا بزوج من الالحفة القطنية المزوقة والمساند الطويلة فكأنهما سرير نوم مريح . سأل مرسى : من فعل هذا التغيير وأنا غائب . قال مرسى : أمك . فلم ينطق . والواقع أنه ارتاح لذاك التغيير ، فامتطى سريره ، واستأذن أخويه لحاجته الملحة الى النوم .

قال مرسى ألا تريد أن نحضر اليك ماء ساخنا وطشتا «لتستحم» . قال غدا إن شاء الله .

قالا : تصبح على خير ..

لم تطل يقظته أكثر من دقائق استرجع فيها مالاحظه من أن كانون الردهة قد أزيل . ونام قبل أن يعرف الجواب على آخر سؤال : كيف أشرب الشاى صباح غدا .



الفصل الثانى

الدميرة

قال الراوى :

(١)

لقد أتى على النيل حين من الدهر كان طفلا يلعب فى أرض مصر لعبة الأطفال ، يبنون ثم يهدمون ما بنوه . فهو ورد معمر فى أشهر التحاريق . فينزل الناس من مرتفعات الهضبة إلى واديه يزرعون ويعمرون . ثم لا يلبث أن يتحول إلى مارد مدمر فى أشهر الفيضان فيسمونه «الدميرة» . يغرق ويهدم لا يترك على الأرض الخصبة نماء أو بناء . فكان لابد للناس من أن يروضوا طاقة النيل الذى لا غناء عنها . ففعلوا به ما يفعلونه بالدواب الوحشية . ألجموه ما يحد من جموحه ويقود حركته . جسرين من تراب يمتدان من أول جبال النوبة حتى مدخلا الدلتا . يحد أحدهما «مجال» حركة الفيضان من الغرب ، ويحده الثانى من الشرق ، وهكذا اصطنع الفراعنة للنيل مثل ما يصطنع الآن قفصا (بارك) يوضع فيه الطفل يلهو ما شاء بدون أن يعبث بما خارجه من أثاث المنزل . وعرف الجسران باسم المفرد فهما «جسر النيل» .

نزل الناس من الهضاب وأقاموا منازلهم فيما بينها وبين جسر النيل واستقر الانسان فاضطرد العمران . غير أن تلك الأرض المحمية من مخاطر الفيضان كانت فى حاجة دائمة إلى الماء ليستزرعها الانسان . فاخترعوا لريها أدوات التحاريق وسبل الفيضان .

فى أشهر التحاريق ترفع المياه إلى الأرض من الأرض ، تلك المياه من النيل التى تحتفظ بها فى جوفها ، «بالشواديف» . مفرده شادوف . ويسمى فى القرية «عود» . وهو رافعة من خشب السنط تبلغ القصبة

طولا محمولة بعارضة يرتكز طرفاها على كتفى دعامتين من الطوب اللبن . تحمل فى الطرف الاقصر الاسفل كتلة جسيمة من الطين . وتتدلى من طرفها أعلى الاطول « جريدة » من سعف النخل تنتهى بوعاء من جلد الماعز «الدلو» يقف الفلاح تحت مستوى الدعامتين «ويجذب» «العود » إلى أن يدرك «الدلو» ما تجمع من ماء جوفى أمامه فى بئر محفور . فاذا ما امتلأ «الدلو» ترك ثقل كتلة الطين ترفعه أو تساعد على رفعه حتى منبع قناة معدة فيما بين الدعامتين . يصب الفلاح فيها الماء وهى تحمله خلال قناة ترابية «فحل» إلى الغيط حيث الزرع ينتظر وروده، يستغرق ملىء الدلو وصبه نحو دقيقة ، ومازال الفلاح طوال النهار أو الليل اذا شاء ، جاذبا العود بذراعيه ، ثم منحنيا بجذعه ليدرك الدلو الماء، ثم رافعا الدلو بالماء ، ثم صابا الماء فى منبع القناة ، ثم عائدا لجذب العود ، فلا يروى فى يومه أكثر من ربع فدان (١٠٠٠ متر مربع) . وما دام يروى فان الماء يتناثر من الدلو وهو يقف على الطين فهو شبه عار وحاف ومبلل دائما وتلك نعمة فى وقت «القيظ» الذى يسمونه موسم القيضى وهذه يدركونها . أما النعمة التى لا يدركوتها فهى اختفاء الكروش ونمو العضلات . ومع ذلك يضربون الرى بالعود مثلا للارهاق والشقاء ويتهمون فرعون الذى أنشــأه أول مرة وأورثهم آلة شقائهم» .يغنى العواد :

صبحنًى العود .... خشب وجلود

والعــود عايب .... بكًى الشايب

فرعـــون بناك ... هـــرب وخلاك

خذ حظه معاك ... وساب لى شقاك

أما القادرون فرادى أو شركاء فيرفعون الماء فى أشهر التحاريق بالساقية . والساقية آلة فظة من خشب يصنعونها بأنفسهم . بئر عميقة وعريضة مبنية بالاجر والجير فهى مليئة دائما بالمياه الجوفية . يرفع منها الماء بسلسلة من «قواديس» الصاج مترابطة بحبال ومعلقة على زوائد جانبية من عجلة جسيمة تدور رأسيا على محور خشبى مثبت فى أعلى البئر. العجلة ذات تروس خشب تتشابك مع تروس أخرى من خشب بارزة من محيط عجلة أكثر جسامة تدور أفقيا على محور خشبى مثبت فى قاعدة مبنية بالحجر بجوار البئر من أسفله، وفى كتلة خشبية تستند الى حائطين من أعلاه يبرز من هذا المحور ذراع خشبى طويل يتجاوز محيط العجلة الافقية بما يسمح بتثبيته على رقبة حمار أو جمل أو بقرة . تغطى عيون الحيوان بأغطية من الليف المبطن بالنسيج يسمونها «غَمَه» حتى لا يعرف الحيوان الى أين يسير ثم يستحثه «السائق» ضربا على السير . فيسير وئيدا بفعل ثقل الآلة المركبة التى يجرها . يسير دائريا فتدور العجلة الأفقية على محورها الرأسى . فتدير العجلة الرأسية على محورها الأفقى . فترتفع قواديس الماء المغمورة فى ماء البئر وقد امتلأت. حتى اذا ما أدركت قمة الدورة وبدأت فى الانحدار راجعة الى جوف البئر أفرغت ماءها فى حوض من الخشب متصل بقناة تحمله الى حيث الزرع وينتظر ، وتكون قواديس

أخرى قد امتلأت فارتفعت فصبت فانحدرت ... وهكذا دواليك كما يقولون . تروى الساقية نحو فدان فى اليوم . من المشرق الى قبيل المغرب .. ولا يتعذب فيها إلا الحيوان. أما الذى اختار أن يكون سائقا بدلا من أن يكون ساقيا ، فيركب العجلة الافقية يحث البهيم على السير اذا ما توقف البهيم . ثم يعزف على الناى ، بمصاحبة أزيز احتكاك خشب السنط الثقيل أو ما يقولون أنه «نواح الساقية» ألحانا تعجبه . وقد يغنى مواويل لا يسمعها أحد ، الى أن توشك الشمس على المغيب فيعودون ، الناس والبهائم ، الى المساكن، ويكملون فى اليوم التالى .

كل هذا لايجدى فى أشهر الفيضان فى ترويض النيل وقد ارتفعت قامة مائة ، سيدمر جسره لو ترك لذاته .. فقسم الناس ، منذ أيام الفراعنة ، الأرض الزراعية ما بين جسر النيل والهضبة ، مساحات مساحات أحاطوا كل مساحة منها بجسر سميك . فاذا فاض النيل فتحوا للفائض فتحات يندفع منها الى ما يليها من مساحات . وهكذا حتى تستوعب تلك المساحات تدريجيا ضغط فيضان النيل كلما فاض وبقدر ما يفيض . حينئذ يبدو النيل جاريا بين جسريه وتبدو تلك المساحات داخل جسورها كأحواض هائلة مليئة بالماء الساكن . يبقى الماء ساكنا نحو شهرين ثم يبدأ النيل فى «النزول» فتعود المياه اليه من خلال تلك الفتحات ذاتها تاركة على الأرض طبقة رقيقة من الغرين وكميات كبيرة من الاسماك الصغيرة . فاذا انتهى انسحاب الماء طمرت الفتحات فعادت الجسور سوية كما كانت ، وبدأ الزرع .

ذلك هو «نظام» رى الحياض الذى ابتكره الانسان ، منذ عهد

الفراعنة، لترويض فيضان النيل واخضاعه ، بارادته ، لغايته . لا يزال باقيا . كما لا تزال باقية الشواديف والسواقى أدوات الرى الفرعونية فى قت التحاريق . كل ما جد منذئذ إعادة تقسيم الأرض إلى «أحواض» اكثر ملاءمة لنشوء الملكية الخاصة للأرض التى لم تكن مصر تعرفها من قبل ولا من بعد حتى منتصف القرن الماضى . وهو تقسيم جرى على هوى كبار الملاك . وتحولت الفتحات الفرعونية فيما بين الأحواض إلى «سحاحير» مبنية ذوات أبواب من كتل خشبية يرص بعضها فوق بعض فتصبح سدا ويرفع منها ما يكفى لمرور ما يراد له من ماء الفيضان المحجوز خلفها . إلا أن تكون على مصارف فهى مفتوحة أبدا . أما الفتحات الفرعية فى جسر النيل ذاته فقد اندثرت . استبدلت بها «قناطر» تبدأ منها فروع صناعية من النيل من ترع و «رياحات» تمتد عشرات الكيلو مترات موازية مجراه تنقل الماء الى الاحواض . يتحكم الانسان فيما تنقله زمانا ومكانا «ببوابات» حديدية أو خشبية فى كل قنطرة ، إما جسر النيل ذاته فلا يزال باقيا يحرسه الناس أيام الفيضان ويدعمون المواقع الضعيفة منه إلى أن يزول خطر الفيضان .

وهكذا هجر الناس الهضبة ، وانتشرت القرى والمدن فى الوادى ، ولم تعد مياه الفيضان مهما علت قادرة على أن تطغى على المزارع بل تنساب اليها من القناطر الى الترع الى الأحواض انسيابا محكوما محسوبا . فأمن الانسان من بعد خوف من الفيضان ..

الا انسان الهمامية فصدق فيه قول أحمد شوقى :

جعل الأرض جمانا وحصى ..... خالق الارض من ماء وطين

فوليد تسجد الدنيا له .... ووليد فى زوايا المهملين

نعم ، لأمر ما انقرضت من «بر مصر» جميعه الفتحات الفرعونية فى جسر النيل الشرقى الذى يفصل النيل عن الحياض إلا فتحة فى الهمامية . انشئت مكانها أو فوقها سحارة ذات باب من كتل خشبية ، تصب ، كما كانت ، فى الأرض المزروعة صبا مباشرا بدون وسيط من ترعة . تلك السحارة الغربية التى خطرت على بال عزيز حسين وهو يؤلف قصة جسر الصبخة المقطوع والمقاومة الموهومة ليتخلص من الشويش عتريس . انه لم يؤلفها من فراغ ولكنه استعادها من ذكريات كوارث أصابت القرية من تلك السحارة ومن جسر الصبخة . إذ جسر الصبخة هو ذلك الموقع من الجسر الذى تخترقه السحارة الغربية . ولأنه من تراب ويلاصق مبانى السحارة الحجرية فان ماء الفيضان يتسرب فيتآكل التراب الملحى «سباخ» وينقطع الجسر فيطغى الماء «ماء الفيضان» على الأرض المزروعة . فاذا أريد تخفيف ضغط الماء على الجسر الضعيف فتحت السحارة قبل موعد فتحها ، فتتدفق مياه الفيضان منها الى ذات الأرض المزروعة التى أريدت حمايتها من الطغيان . يستبدل بفوضى طغيان الماء من الجسر المقطوع طغيان منظم من مياه السحارة .. ولا ينجو الزرع فى الحالتين .

وقد كان طبيعيا منذ أن لاحظ عزيز حسين وهو فى طريقه الى البدارى ماشيا على قدميه وراء حمار الشيخ محمود عبد اللطيف أن

«الترعة شيمت» ، ثم بعد أن عادوا جميعا، وغادر الشويش عتريس القرية ، أن تنسى القرية السلطة والحكومة والعمدة وحتى الشيخ عباس، وتنشغل انشغالا بدنيا وعصبيا بمواجهة مخاطر فيضان يبدو مبكرا مدمرا. العاطلون وأشباه العاطلين فى الرهبات يستعيدون وقائع الكوارث الماضية. والمصلون يدعون الله أن يرفع غضبه ومقته عنهم ويصون مزارعهم . والشباب يقضون الليل ساهرين فى «تاية» سطوحى عبد المنعم مسلحين بمقاطفهم وفئوسهم، وينظمون «ورديات» المرور على الجسور واستطلاع حالتها وخاصة جسر الصبخة. والرجال والنساء والأولاد والبنات يتفقدون «القيضى» طوال النهار ويقطعون كل قنديل أبيض ، ويحملون ما قطعوه الى المنازل حيث تحولت الأسطح الى مساطيح .

ذلك لأن الشيخ محمود عبد اللطيف الذى ركب حماره فى الفجر متجها الى البدارى قاصدا أسيوط ، قد عاد من البدارى قبل الظهر ونسى ما كان يريده من أسيوط . قابل المأمور فى البدارى فقال له حسنا فعلت إذ حضرت اليوم يا عمدة . كاد ينهار توقعا منه أن المأمور سيبلغه نبأ العمدة الجديد . قال وقد جلس بدون اذن : خير يا بيه . قال: ربنا يستر يا عمدة والبركة فى همتك . خير يا بيه . كنت سأبلغك بإشارة تليفونية ما أبلغنى به الرى إنه نظرا لارتفاع منسوب مياه النيل فقد تقرر فتح الحياض بعد عشرة أيام . قال : يا سعادة البيه القيضى لن يستوى قبل ثلاثة أسابيع أو أسبوعين. قال : يا شيخ محمود لا تتعب نفسك ، كلنا فى خدمة الحكومة ولكن إذا وصل الأمر إلى الفيضان فالحكومة نفسها فى خدمة ادارة الرى. فأسرع بالعودة الى بلدك وبلغ

الأهالى «ليعملوا حسابهم» على أن مياه الفيضـــان ســـتغرق الحياض بعد عشرة أيام .

عاد العمدة سريعا وأبلغ الحاضرين ، وتولى الحاضرون ابلاغ الغائبين ، فنسى الجميع كل همومهم وانطلقوا الى الفيطان لانقاذ ما يمكن انقاذه.

.. منذ يومين وهو قابع فى حجرته ، منضرته سابقا ، يقرأ ما تجمع من صحف الأسابيع الماضية ويعيد قراءتها . فقد كان يتابع بلهفة معركة مستمرة منذ عام . يقول الراوى كان الانجليز قد بدأوا محاولة اقتحام الدردنيل فى طريقهم الى احتلال دار الخلافة : الاستانة . فاضطربت أفئدة كل المسلمين . لا أحد يقول لماذا . انهم لا يتعاطفون مع السلطان منذ أن أفـــتى بكفـــر عـــرابى ... ولا يحـــبـــون الاتراك المتغطرسين ولا يعرفون إلا أن استانبول مقر الخلافة . الخلافة عندهم غير الخليفة . الخليفة انسان فاسد أما الخلافة فرمز مقدس . وما يزال أولادهم وبناتهم منذ أن احتل الصربيون والبلغاريون (١٩١٣) أول مقر للخلافة مدينة أدرنة (١٣٦٥ - ١٤٥٣) يغنون لمقر الخلافة :

حلوة يا ادرنة ياللى احتلوكي

الصرب والبلغار ....

ضربوكى بالنار يا ادرنة ....

ترك تركوكى وعاودو خدوكى

حلوة يا ادرنة ياللى احتلوكى

فما هدأت أفئدتهم بعد اضطراب الا حين اندحر الانجليز فى

غاليبولى.. وكان عليه أن يتابع هذا كله ، وأن يحفظه ، ليتحدث به الى من يلتمسون لديه يوما بعد يوم أنباء «الخلافة» . وقد انقطع الحديث منذ أسابيع وتراكمت الصحف منطوية على أنباء لاشك متراكمة فقضى يومين ليعد نشرة الأنباء. يأتيه الافطار والغداء والعشاء يحمله اليه فوزى. ولا يرى أخويه إلا لماما فى المساء. وسمع أخبار القرية وصراعها ضد مخاطر الفيضان . الى أن دوت فى صباح اليوم الثالث صرخة امرأة رددتها نساء أخريات . فخرج الى الردهة ينادى يا مرسى ، يا اسماعيل ، يا نصر ، يا فوزى لا حياة لمن ينادى . خرجت اليه صفية تبكى . قال ما الخبر يا صفية . قالت وهى تعود الى داخل الدار : الجسر انقطع عند الصبخة «يا سلفى» والرجالة هناك كلهم فتراجع صامتا كالمذهول .. لا يعرف ماذا يفعل . توقف ثم عاد مندفعا الى باب الدار . فتحه . فإذ برجال ونساء يمرقون أمامه مسرعين ، يجرى بين أرجلهم ومن حولهم أطفال وصبية . ويسأل الى أين فلا يجيب أحد الا جواب صراخ النساء وعويل الصبية وهم يجرون . جرفه تيار البشر . فاذا به بجلباب نومه ، بدون عمامة ، يجرى حافيا ويسبق الكثيرين الى جسر الصبخة . أين القطع من غيطنا الكبير . لا حول ولا قوة إلا بالله . أن الماء يندفع من القطع الى غيطنا الكبير .. لافائدة فى النداء ، فكل قادر على النداء أو البكاء لا يكف فاختلطت الأصوات الرجال وبعض الشباب شبه عرايا يصطنعون من اجسادهم سدا ملتحمين . ورجال ونساء يثبتون اقدامهم بما يحملون اليهم من أتربة الغيطان . تتحول الاتربة سريعا إلى طين فيدفع الماء صف الرجال ويوقعهم فى الطين . خاض الماء والطين حتى اقترب من سد الاجساد العارية فتعرف فى

شبح من الطين على اسماعيل . يا اسماعيل لا يجدى ما تفعلون ، «اعملوا فى القطع لِبْشةِ من بوص القيض » . نقلها اسماعيل الى الاخرين . قيل للنساء وبعض الشباب «هاتوا بوص نعمل لبشه» . فقطعت أطنان من أعواد القبض بقناديلها وألقيت أمام سد الرجال، وألقي عليها التراب فتماسكت عندما تحول التراب الى طين . وأضاء شعاع من أمل فى قهر النيل المتمرد . فما أن انتصف النهار حتى كان قد سد القطع بسد من البوص والطين فانقطع الماء ، تاركا كثيرين من أهل البلد ممددين على الجسر «بطينهم» لا يستطيعون حراكا من فرط الأعياء . وكان عباس ولد محمد اسماعيل قد أدمى يديه وهو ينتزع بها البوص من الأرض ويحمله مع الحاملات والحاملين . «زغرتت» امرأة ولم تستطع سواها إلا أن تبكين تعبا وقهرا . أقاموا على الجسر حراسة وانسحب كل عائد الى داره يتوكأ على من لا يزالون على السير قادرين . حتى اذا ما بلغ آل المرحوم محمد اسماعيل دارهم، تفقدت صفية ولدها فوزى فلم تجده فصرخت . فانطلق عباس ومرسى واسماعيل ونصر عائدين الى حيث كانوا عند جسر الصبخة . فوجدوا من سبقهم الى هناك يتفقدون أطفالا غائبين ، كان فوزى وولد زناتى يحملان البوص مع الحاملين . فتشوا الغيط وفتشوا الحفر التى رفع منها التراب فأصبحت بركا من طين . ولد زناتى ها هو جالس فى الطين مذهولا لا يتحرك ولا ينطق . أما فوزى العزيز فممدد فى بركة من الماء العكر وقد غاص رأسه فى الطين .. فحمله أبوه بين يديه وعادوا به الى الدار منكسى الرءوس صامتين غير قادرين حتى على البكاء . تلقتهم صفية بصراخ ينفطر له القلب وهى تحتضن ولدها حتى غاب وعيها

فتوقف دمعها وصراخها فنقلوها الى مسكنتها . حين أفاقت كان فوزى قد دفن وامتلأ الدار بالندابات وامتلأ ت المنضرة بالمعزين . مأتم فوزى الذى مات صغيرا أسبوع ولا يتصل حتى الأربعين .

فى المأتم تحبس الالسنة فتنطلق الافكار لا يحدها حتى حزن المكلومين . صرخة من امرأة فيجرى الرجال والنساء والشباب والاطفال الى حيث مصدر الخطر فيجرى بجلباب نومه ، بدون عمامته ، حافيا تاركا وقاره في عقر داره . حين بدأ يتعب من الجرى حافيا على حصى الجسر تساءل عن مصير غيطهم الكبير . فكاد يتوقف لولا أن شعر بخجل مرير . خليط من الناس من كل العائلات يجاهدون لانقاذ غيطهم الكبير . وهو معهم فى الماء والطين ويحمل ما تحمل النساء والصبية بوصا منزوعا من غيطهم الكبير لسد القطع اللعين . فرض الله على كل قادر من المسلمين الحج الى مكان واحد فى يوم واحد بلباس واحد ذى لون واحد ليعلمهم بدون موعظة وحدة الانتماء الى جماعة المسلمين . ولقد كان القادرون من أهل الهمامية فى يوم واحد فى مكان واحد تغطى جسد كل واحد منهم طبقة من ذات الطين . فهل كانت وفاة فوزى العزيز الا آية تلفته بقوة وقسوة الى أن «الانتماء» الى الهمامية الذى رفعه عنوانا كبيرا على حياته قد تحول بالتكبر الى كبيرة . هذا هو الانتماء كما رآه وسمعه ولمسه وتنفسه عند الجسر المقطوع . انه الاندماج فى الجماعة حتى الفناء . منذ اليوم لن أكون خارج من انتمى اليهم. لا فوقهم لا تحتهم ولا على يمينهم ولا على شمالهم سأندس فى جوفهم اتغذى منهم كما تتغذى الاجنة فى أرحام امهاتها ، وأمدهم بما أقوى عليه كما تفعل القلوب القوية فى الاجساد . تتلقى منها الدم وتعيد

اليها الدم ، لا تتوقف ولا تنفصل . لا انفصال بعد اليوم عن الناس ، مكانا، أو أفكارا ، أو كلاما ، أو غذاء ، أو كساء ، وليكن الله فى عونى ليهدينى.

ايقظه على ولد عمه مشهور وقد حمل اليه الافطار . قم يا شيخ عباس الدنيا أصبحت ضحى .. لقد أحضرت إليك الأفطار ، وحلة مياه ساخنة وطشت لتفطر وتغتسل . أتركك الآن .. لبس العمامة والحذاء وقفطانا من «الشاهى» يضمه حزام من الحرير وفوقه «كاكولة» . «طقم» الأزهر .. ذهب الى المنضرة فلم يجد إلا أحمد عبد اللطيف . جلس على دكة بجواره . تأخرت فى النوم .. يبدو أننى كنت متعبا كما قلت بالأمس .. كيف يبدأ الحديث معه . لابد من طريقة يتقبل خلالها أفكاره بدون أن يشعر أنها مملاه عليه .

– باقى أسبوع وتطلق المياه .

– لا باقى ستة أيام .

– ماذا سيفعل الناس فى هذه الأيام الستة .

– ما كانوا يفعلونه كل مرة وما يفعلونه منذ أمس . لقد انتقل كل القادرين على العمل من الرجال والنساء الى الغيطان لجمع ما استوى من قناديل القيضى ونقلها فى «القفف» إلى البيوت .

– غريبة وواجبات العزاء لماذا يصرون عليها وهى تعطلهم .

– لا ، يا ولد عمتى، لاعزاء ولا مجاملات ولا عتاب فى هذه الحالة . لايذهب أحد منذ أمس إلى مأتم محمد ظرظور . وأعتقد أنه لن يحضر أحد هنا هذا اليوم أو بعده . ربما يحضر الشيوخ والذين لا يعملون أو

بعد صلاة العشاء . إنما في النهار لا . الارزاق أولى . وهذه عاداتنا من زمان .

- لقد كانت عندى فكرة . أن يتعاون أهل البلد جميعا فى قطع القيضى حوضا حوضا ...

يبدأون من حوض «أمخلى» مثلا ثم «التلوت» وهكذا . لان المياه تصل كل حوض بعد السابق يومين فتكون لديهم فرصة أكبر .

- يا شيخ عباس لا تقل هذا الكلام أمام أحد غيرى حتى لا يسخرون منك ، ويقولون أنك نسيت الزرع والقلع.

- لا .. أنا لم أنس.. ولكنى وجدتهم كلهم يدا واحدة فى سد قطع جسر الصبخة. فلماذا لا يكونون يدا واحدة فى ضم المحصول .

- لا . قطع جسر الصبخة خطر على البلد . اذا اندفعت المياه من النيل الى الارض مباشرة فلن يوقفها شئ . ستغرق الزراعة وحتى الجسور وتدخل البيوت أيضا . ليست هذه أول مرة .. ولا تنسى الناس تجاربها المرة .

- أرسلت أخوتى الثلاثة وأنا «ضعفان» لا أقدر على هذا العمل الجسيم .. لم يرك أحد من أخوتى فلم يقولوا لى . عرفت من يونس عبد الله . قالوا فقط أن فوزى ولد مرسى «قرصه» ثعبان من الثعابين التى طرّدتها المياه من جحورها فى غيطكم الكبير.

- لا . توفى غرقا ..

- فى شبر ميه ؟ .. جائز .

– على أى حال نحن نشكرك على مشاركة إخوتك فى حماية غيطنا الكبير.

– لا شكر على الواجب . لكن انتبه حتى لا تشكر أحد غيرى . أنت ومرسى واسماعيل ونصر فقط الذين كانوا يردون الخطر عن غيطكم الكبير . باقى الناس كانوا يردون الخطر عن غيطانهم القريبة والبعيدة . وحدة المصير هى التى وحدتهم .

– عظيم . فلماذا لا يتوحدون فى جمع المحصول حوضا حوضا .

– ما الذى جرى لعقلك يا عباس . لأن الارض مقسمة بين الناس . كل واحد له زراعة . قيراطان . ربع فدان . أكبر غيط فدان . من أجل هذا أطلقوا على غيطكم اسم «الغيط الكبير» فكل واحد بعد زوال الخطر ينتبه لزرعته . ولو قلت لهم تعاونوا مع بعض يتمسك كل واحد بأن يكون غيطه أول غيط يجمع محصوله . وأن قلت حوضا حوضا فلابد أن تكون البداية من حوض «داير الناحية» لان القضى فيه استوى . وليس من المعقول أن يبدأوا من الآن فى قطع الاخضر ويتركوا المستوى.

وحتى فى كل حوض وفى كل زراعة ستجد قناديل استوت وقناديل لاتزال خضراء . فالطريقة المتبعة فى هذه الحالة منذ القدم قطع المستوى فى كل غيط. وبعد يومين يكون قد استوى غيره فيقطعونه وستجد انه حين تطلق المياه فى الحيضان لاتجد الا البوص الاخضر ويكون أغلب المحصول قد تم جمعه . هذه أشياء تعلمها الفلاحون من جدود الجدود.

– أنا كنت أريد أن أؤدى خدمة للبلد.

- انت خدمت البلد على قدر علمك وإن شاء الله ربنا يوفقك وتتعلم في البلد ما فاتك وانت في الازهر.

- ما الذى يمكن أن أتعلمه فى البلد يا أحمد.

- أن تصبح فلاحا . فنحن بلد فلاحين.

- كيف ..

- والله لا أعرف الجواب . الفلاح يعرف أنه فلاح ولكن لا يعرف كيف هو فلاح. لكن مثلا منذ اليوم لن يساعد أحد احدا . كل فلاح مشغول بزرعه . وانت عددكم قليل . ثلاثة أخوة ونصر الجمال . فأخواك فى حاجة اليك . بقى أسبوع أو سته أيام لن تجد فيها من يجلس معك . اين يونس عبد الله الذى لم يكن يفارقك ليلا او نهارا . انه فى غيطه الذى لايزيد عن أربعة قراريط . أين مرسى وأين اسماعيل . مرسى ترك المأتم واسماعيل معه ومعهم نصر الجمال فى الغيطان يجمعون القيضى فلماذا لا تذهب ولو تقف معهم إذا كنت لا تستطيع أن تعمل بيديك.

- أذهب ان شاء الله .

- استأذن أنا.

- إلى أين ..

- الى الغيط .. غيطنا.

كمثل عصا موسى لقفت كلمات أحمد عبد اللطيف البسيطة أفكاره المركبة . فشعر باحباط ثم بهبوط ورغبة شديدة فى النوم . فدخل حجرته واستغرق فى نوم عميق كما لو كان يخشى اليقظة حتى صباح

اليوم التالى.

قالت له صفية : عمتى تريد أن تراك.

قالت له بمزيج من الحزن والغضب والجدية : خذ هذه «شمسية المرحوم أبوك» الشمس فى الغيطان حارقة وأنت غير متعود فلا تحتمل . احتمى بالشمسية وساعد أخويك بدلا من « القعدة هنه » .

لم ينطق ..

كغابة هائلة من أعواد « القيضى » الخضراء تحمل قناديلها ، أو كبحر أخضر هائل عليه طبقة من الزبد الأبيض ، غابة كانت أو كان بحرا فإن اضطراب سطحه المستوى ينبىء عن أن تحت السطح تجرى، أو تعمل ، أو تسبح كائنات حية لا تبين ، تجذب أطراف الأعواد فتحدث موجة سريعة تعود بعدها الأعواد قائمة ولكنها بدون قناديل ، وتنتقل الموجة من وضع إلى مواضع فيختفى اللون الأبيض من كل موضع مرت به تلك الكائنات الخفية التى قطعت القناديل أو لقفت الزبد ، إنما تكشف تلك الكائنات عن ذواتها عند أطراف الغيطان فيما يجاور الجسور ، أسراب من البشر ذوو حجوم متفاوتة ، شبه عراة إلا النساء، يندفعون خارجين من لجة الزرع إلى الجسور حاملين مقاطف مليئة بالقناديل يفرغونها على الجسر ثم يغيبون فى اللجة كأنهم نمل يحفر بيتًا ، ومن حين إلى حين ، ومن موضع إلى موضع ، يندفع من داخل الغيط من ضاقت نفسه وأغرقه عرقه ، ولسعت جلده تلك الشعيرات الرقيقة التى يلتقطها جسده العارى من « القناديل » ويسمونها« الغفف»، يندفع جريا وهو يحك جلده ويلقى بنفسه فى المياه ، مياه الترعة أو مياه

النيل بعنف ، يتبرد من جحيم الحر ، أو يتحرر من لسعات الغف ، من الفجر حتى المغرب ، وفى المغرب تحمل القناديل على الروس وفى التلاليس على ظهور الحمير وفوق « شواغر » الجمال ويعودون إلى القرية ، يجمعهم وقت العودة ، ويجمعهم جسر الصليبة ، ولكنهم لا يتبادلون الحديث بل يسعون صامتين إلى منازلهم كسعى الجنائز إلى القبور .

لا يضاف إلى تلك الصورة ، ولا يخل باتساقها ، إلا حامل الشمسية ، الواقف على الجسر ، المتنقل من غيط لهم إلى غيط لهم ، يحرس القناديل المقطوعة التى لا تحتاج إلى حارس ولكنه ، على أى حال ، يعمل مع أخويه ، يعمل شيئا أو يعمل لا شىء لقد أصبح معهم ولو على شاطىء البحر الأخضر وهما ونصر الجمال فيه غارقون .

بعد ستة أيام تدفقت المياه إلى حوض ثم إلى حوض ، وتحولت أسطح المنازل إلى مساطيح للقناديل البيضاء ، وجمعت القناديل الخضراء لتكون غذاء للماشية ، وجمعت الهمامية من ناتج زرع أهلها فى ذاك العام محصولا ناقصا لا يكاد يفى بما سيحتاجه أهلها من خبز البتاو طوال العام .

(٢)

حاصر الفيضان القرية فاختلطت فيها الكائنات الحية جميعا حتى كادت تضيق بها كما يحدث كل عام ، تميز ذلك العام بهجوم الغربان وبشقاء النسوان ، أما الغربان فسرايا وفصائل وكتائب مرابطة حشدا فوق الأشجار والحيطان تنقض جماعة جماعة ، بجسارة الجماعة ، على قناديل القيضى التى افترشت أسطح المنازل ، لا تصدها مناوشات الصبية الحارسين بل تتحداهم وقد تعاقبهم نقرا فى أطراف أيديهم

وأرجلهم ، ولا يغرى الصبية بالصمود ما كان يغريهم فى مساطيح الغيطان ، فيتسللون هاربين إلى ملاعب الدروب ، أما النساء فقد أضيف إلى همومهن فى ذلك العام ما يضاف عادة إلى هموم الحكام إذا ما أعلنت حالة الطوارىء ، لم يعد بعد الذين غادروا القرية إلى الغرب لجنى القطن لأصحابه ، وليس من عادة الذين لا يغادرونها العمل داخل البيوت فلا يتدخلون فى شئونها الداخلية ، وقناديل القيضى حاملة الحب الذى ستودعه النساء فى الحواصل مهددة بغارات الغربان الشرهة ، فترى النساء على الأسطح جاثيات ضاربات بعصى رقيقات ما تيسر لجهدهن من القناديل ، ثم جامعات الحب نهارا ، بعد نهار ، بعد نهار ، وفى الليل حين يأتى القمر ، فتتحول القناديل ببطء شديد إلى الحواصل والصوامع على دفعات من الحب قليلة إذ المحصول فى الأصل قليل ، كل هذا قد يهون ، أما الإضافة غير الهينة فهى ما يفعله ذلك « الغف » الذى يتطاير من القناديل المضروبة فيلسع الجلود ، انه يتسلل كالهباء الخفى إلى أجساد الضاربات ذوات الملابس الفضفاضة من الجلاليب ، وهناك يلتصق بمواضع قريبة ومواضع غريبة من جلودهن الملساء الرقيقة ، وليس فى البيت ماء جار « تنغطس » فيه المرأة من حين إلى حين كما يفعل الرجال فى الترعة ، قد تضم واحدة منهن أطراف ثوبها إلى قدميها وتربطها بحبل متين ، غير أن تلك حيلة تعوق حركة « دق القيضى » فلا يحتال بها إلا القليل ، فيتحملن طوال النهار على الأسطح المكشوفة لأشعة الشمس الحارقة ، ولا يشتكين ، لا يغيظهن إلا عودة الرجال إلى المصاطب والمناضر والرهبات يستهلكون من الدخان والشاى ما يتوقعون الوفاء بثمنه إلى أبو الحسن مما

يبيعونه من « قوت العيال » ، تتوقف النساء عما يشقيهن يوما فى الأسبوع ، انه يوم السبت ، إنه يوم السوق ، إنه يوم اللحم والمرق والفطير ، غير أن أغلب الرجال يفسدون نهايته بما يدعونه من إرهاق أو يصطنعونه من أمراض ينسبونها إلى فيضان ذلك العام ، ومع ذلك فلكل شىء وجه آخر حتى الفيضان ، وقد بدأت رحلة المياه من الحيضان إلى النهر تاركة ما سيشغل النساء من أطنان السمك الصغير .

ولكل وجه وجه آخر ، فقد وجد أهل القرية فى ذلك العام ، وفيما سبق أن وجدوه فى مثله من أعوام ، مادة لا تنتهى من القصص المقارن، ولما ذكروا فوزى ولد مرسى تذكروا وأحصوا عشرات من الشهداء الذين أغرقهم الفيضان وهم يدافعون عن قريتهم ، واستجابت علاقاتهم القبلية المفرقة لمشاعر الوحدة ضد مخاطر المياه المغرقة فأصبحوا أكثر انسانية مما سبق من أعوام ، وانفكت حتى كادت تنفرط روابط التكتل القبلى ، وأخذ الناس ، زرافات ووحدانا ، يتزاورون ويتسامرون ويلهون ، مختلطين فى الرهبات وفى المناضر وعلى المصاطب ، وفى الدروب ، وعند « تاية » سطوحى عبد المنعم ، لا اختلاط الأقارب ذرية فرج قداح ، بل اختلاط الذين يواجهون الخطر معا، يخسرون معا ما يخسرون ، ويكسبون معا ما يكسبون ، ويضربون مثلا فيضان ذلك العام ، ومايزالون راجعين أمثلة من القصص والحكايات حتى أباءهم وجدودهم حيث خسروا معا كل شىء ولم يكسب أحد منهم شيئا يوم تعرضوا معا لغارة الأمير فاضل باشا ، ويتبادلون تأكيد وحدة المصير مما صار أخيرا ، فيتحدثون بضمير الجمع ، فينسبون إلى أهل القرية جميعا ، دفع خطر السلطة عن أبناء القرية ،

وعرائض القرية إلى الحكام ، وثأر القرية من قتلة ابن القرية محمد ظرظور ، ووقوف القرية سدا بشريا فى قطع جسر الصبخة .

ويكون عباس ولد محمد اسماعيل ، وأخوه مرسى ، وولد عمه على مشهور ، ويونس عبد الله قد قدموا زائرين ، فيقول أحد المستقبلين : « دا حتى الشيخ عباس كان مع الرجالة وسط الميه والطين يوم قطع جسر الصبخة » . ويقول آخر مازحا : « أنا ريته وقلت فى عقل بالى الشيخ عباس حاطط على راصه طين عشان حزين على الغيط الكبير » . ويضحكون من نموذج « النكتة الصعيدية » التى تقوم على أساس التورية لا أساس المفارقة ، وهو سعيد بما يقولون ، انهم يحتضنونه بطريقتهم وكم تمنى أن يعرف الطريق إلى أحضانهم ، المهم أن قد سقط التكلف وعاد إلى القرية التى ينتمى إليها ولم يخسر التوقير بل كسب التقدير ، فمنذئذ سيذهبون إليه يستشيرونه فى مشكلاتهم الخاصة ويستكتبونه خطابات إلى أقارب أو أصحاب بعيدين ، وسيحرر لهم عقود الايجار و « حجج » البيع ، ويأتمنه عليها أطرافها فيودعونها لديه ، وسيشكو بعضهم بعضا لديه فيصلح بينهم ، ويستفتونه جادين فى المسائل الشرعية منذ أن عرفوا منه ما لم يكونوا يعرفون ، إن عدة الأرملة أربعة أشهر وعشرة أيام وليس ثلاثة أشهر ، لقد أصبح عندهم واحدا منهم موثوقا لديهم فاستبدلوا بانتمائه إلى عائلة « المشاهرة » (أولاد مشهور) انتماءه إلى الهمامية بكل عائلاتها وبيوتها .

ثم قطع ما تيسر من القيضى فانشغل بيت اسماعيل بالتحضير لزواج اسماعيل من بخيتة ، اجتمع الشيخ عباس وأخواه وعمه مشهور فى حجرته للاتفاق على موعد الفرح فاتفقوا أولا على تحقيق رغبة

اسماعيل فى أن يكون فرحه أحسن فرح ، قال مرسى بعد أن نتفق على الموعد ، وقبله بأسبوع ، سأذهب إلى بلد الفراسية فى سوهاج ، وأتفق مع المنشد أحمد الفراسى وبطانته على إحياء الفرح ، اعترض اسماعيل، قال أن الشيخ أحمد الفراسى قد أصبح عجوزا فيعجز صوته عن أن يصل إلى سمع البلد كلها ، أضاف أن حماد غندور المنيحى قد ذكر له أن فى كوم أمبو ، الموطن الأصيل للغنادير ، شيخ مشهور يحيى الأفراح بإنشاد المدائح النبوية وأنه مستعد للذهاب مع اسماعيل لإحضاره هو وبطانته لإحياء الفرح ، اتفقوا ، قال الشيخ عباس أريد أن أضيف إلى فرح اسماعيل شيئا جديدا ، سأذهب إلى طما أو أسيوط وأحضر بطاقات معدة للدعوة إلى الأفراح تحمل اسمى اسماعيل وبخيتة وتاريخ الزواج ونرسل دعوة منها إلى كل من نريد فى البلد ، قال الحاج مشهور لا يا ولدى أسماء النساء عورة فلا يجوز كتابتها فى الأوراق ، ثم أن ليس فى بلدنا أحد أفضل من أحد وسيعتبر الذين لا تكتب دعوات إليهم أننا قد فضلنا عليهم من كتبنا إليهم فيغضبون ويقاطعون الفرح ، قال مرسى نحن أصحاب الفرح فلا شأن لنا بترتيباته ، تلك مسئولية « العرّاسة » فلنرسل إلى كبيرهم مهنى نوح ليحضر ويرتب أموره .

أرسلوا نصر ليحضر مهنى نوح كبير بيت العرّاسة .

« العرّاسة » صفة تطلق على بيت من أفراد ميسورين مشهود لهم بالمعرفة والحكمة ودماثة الخلق ، يتولون إدارة أفراح الزواج لحساب أصحابها بدون مقابل ، كلماتهم نافذة وإرشاداتهم متبعة ، وغايتهم أن تمر ليلة الفرح بسلام بدون أن يشعر أى واحد حاضر أن قد حظى

بقدر أقل من غيره من الاحترام والإكرام ، فإن وقع خطأ غير مقصود يتحملون المسئولية ويعفى منها أصحاب الفرح فلا يغادره أحد غاضبا على أهله ، إنهم الحافظون على طقوس أفراح الزواج طبقا «لبروتوكول» يتوارثون حفظه أبا عن جد .

حضر مهنى نوح ، وسمع منهم ما اتفقوا عليه ، فاعترض مباشرة على صيغة الدعوات ، قال للعائلات شيوخ ، وللبيوت كبار ، تتم الدعوة من عائلة المشاهرة ممثلة فى الحاج مشهور ، ومن بيت العريس ممثلة فى أخيه الكبير ، يمران على المناضر ويقابلان كل كبير ويوجهان الدعوة إلى عائلته أو بيته ولا يسمون أشخاصا ، أضاف أنه نظرا للتقارب بين العائلات الذى حدث نتيجة تعرضهم لخطر الفيضان فأتوقع أن يكون الحاضرون الفرح كثيرا ، يلزم لهم طعام كاف ، ومقاعد خشبية (دكك) كفاية ، تستكملون ما ينقص من منضرتكم من مناضر العائلات الأخرى ، يلزم أربعة فوانيس اثنان فى الرهبة وواحد فى المنضرة وواحد احتياطى ، قاطعه الشيخ عباس قائلا سنعلق الكلوب في الرهبة ، قال مهنى نوح – بعد أن تأمل الشيخ – إنكم أحرار فيما تفعلون فهو فرحكم ولكن فى هذه الحالة لن يكون لنا شأن بالفرح ، قال الشيخ عباس مستنكرا : لماذا ؟ قال بغيظ : لأن الحريم ياشيخ عباس قد اعتدن حضور الأفراح والوقوف أو الجلوس خلف الدكك ، ضوء الكلوب القوى سيكشف وجوههن « فيتزغفن » حتى لا يراهن أحد فلا يرين شيئا ، لو كان القمر كافيا لاكتفينا بضوئه ، أما الكلوب وضوؤه القوى فسيفسد الرؤية اللائقة بالحريم حسب تقاليدنا ، على أى حال أمامكم وقت وسأدرس مع أخوتى كل ما يلزم وسنكون جاهزين لتولى المسئولية قبل

الفرح بثلاثة أيام ، حينئذ سنخبركم بالتفاصيل .

رُشت أرض الرهبة بالماء عدة مرات منذ الصباح حتى تماسك ترابها ، توافد كثيرون بعد صلاة العصر فرادى أو اثنين اثنين يدخلون المنضرة ثم ينصرفون ، من يدخل المنضرة يرشده أحد العرّاسة إلى حجرة فيرى اسماعيل واقفا عاريا فى طشت تحيط به مجموعة من العرّاسة ، يغرفون ماء دافئا من حلة ويصبونه عليه ويدعكون جسمه بقطعة ناعمة من ليف النخيل وصابون ، يبارك لاسماعيل ويلقى فى ماء الطشت العكر بالصابون قطعة معدنية من النقود ، قرشا ، أو قطعتين قرشين ، نقوطا ، فيقول واحد من العرّاسة بصوت جهير : « فلان ولد فلان نقط بالخير وسع الله عليه » ويكررها بعدد قطع النقود ، فيثبت واحد من العرّاسة خارج الحجرة الاسم ومقدار النقوط فى دفتر أعده من قبل ، فالنقوط مساهمة مقدمة فى تكاليف الفرح سترد إلى صاحبها فى فرحه، النقوط قليلة لقلة من يتوقعون أفراحا قريبة لهم أو لأبنائهم .

يترك العرّاسة اسماعيل لأقاربه وأصدقائه ليعدوه للدخلة ويصحبوه إلى باب الدار ، يتجهون إلى الرهبة يشرفون على رص الدكك حول السامر رصا معدا بحيث يجلس كل الحاضرين من كل عائلة متجاورين، بترتيب يحفظ لشيخ كل عائلة مكانا بارزا تتلوه أماكن لكبار البيوت ، بعد المغرب يتوافد المدعوون .. يستقبلهم الحاج مشهور ومرسى وقد انضم إليهم الشيخ عباس ، يقودهم العرّاسة إلى الأماكن المعدة لهم ، وتكون حلل الطبيخ وأرتال الخبز الأبيض والصوانى النحاسية وصحافها قد ملأت الردهة الداخلية فى المنضرة ، فى ركن الردهة قفة أو اثنتان مليئتان بقطع من اللحم المسلوق ، لحم عجل فى فرح

اسماعيل .

يتقدم العرّاسة إلى حيث يجلس الحاضرون من كل عائلة فيدعونهم إلى العشاء ويرشدونهم إلى حيث يتعشون ، أفراد كل عائلة يأكلون متجاورين ، يتولى مهنى نوح شخصيا إعطاء كل واحد منهم قطعة من اللحم ليختم بها الطعام ، يمرون وهم منصرفون على بضعة غلمان من العرّاسة يحمل كل منهم إبريقا نحاسيا ومعه طشت صغير خاص به ، و « محرمة » ، فيغسل يديه من يريد ويجففها بالمحرمة ، قبل صلاة العشاء ينتهى العشاء ، لا يتهافت رموز العائلات والبيوت على وليمة الفرح فلا يحضرون إلا بعد صلاة العشاء ، حينئذ يكون قد فاتتهم صرخة الدخلة المدوية وما زفها من زغاريد وما صاحبها لأول مرة فى فرح اسماعيل من إطلاق أعيرة نارية من بنادق خفية ، يستقبلهم العرّاسة مرحبين ويسبقونهم إلى أماكنهم المحجوزة لهم ، يرحب بهم فى مواقعهم الحاج مشهور ومرسى وعباس ، اسماعيل قد أخذ مكانه الذى اختاره له العرّاسة ومعه أنداده وأصدقاؤه ، غلمان العرّاسة يمرون على السامرين بأكواب الشاى الداكن .

فى ركن من الرهبة دكتان مضمومتان كأنهما مسرح صغير ، قدم إليه بعد صلاة العشاء من المسجد الشيخ النقشبندى وبطانته ، بعد أن شربوا جميعا أكوابا من « الينسون » ، وقف الشيخ النقشبندى وارتجل كلمة من كلمات مقعرة يهنىء فيها العريس وأهله وأهل قريته ويدعو لهم جميعا بالستر والسعادة ، ارتفع صوته منفعلا وقال : يا أهل الهمامية لقد حقق الله لى أملا كنت دائما أتمنى أن يتحقق ، أن أحضر إلى بلدكم وأراكم وأعرفكم ، أنتم لا تعرفون أننا فى بلدنا نعرفكم ونعرف

أسماء جدودكم كما نعرف الجدود من أهل قاو والريباينة ونشكر لكم دائما أنكم وقفتم وقفة الأبطال المجاهدين مع جدنا الشيخ أحمد الطيب ابن الشيخ أحمد عبيد الجعفرى النقشبندى رضى الله عنه ونفعنا الله به فى الدنيا والآخرة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

هاج الناس فى السامر ، بكى بعض كبار السن ، زغردت النساء ، تعالت أصوات الآخرين واختلطت فلا يعرف أحد ما يقول الآخر، لا تظهر عالية إلا نداءات « الله أكبر » ، دعاهم الشيخ النقشبندى إلى الهدوء بحركة من يديه الاثنتين وترديده « صلوا على النبى » حتى هدأوا ، وتلاشت الأصوات .. قال بهدوء وهو منفعل : سأنشد لكم قصيدة من إنشاء الشيخ أحمد الطيب نفسه بعد أن نقرأ الفاتحة معا على روحه الطاهرة وروح أصحابه الذين استشهدوا معه ، قرأ الفاتحة جهراً ورددها الجميع بعده آية آية ثم أنشد يقول :

بدأت بسم الله ذي المثل الاسني

تبارك رحمانا رحيما ومحسنا

وأحمد ربى بالمحامد كلها

وأثني ثناء جامعا متضامنا

وصل على النور المجزأ إذ به

أقمت جميع الكائنات من الفنا

وآل بدور يستضاء بنورهم

وهم قدوة السادات فى الدين نجمنا

بأسمائك الحسنى أنيطت مقاصدى

وأنت جدير بالإجابة هننا

توسلت يا رباه فيها بسركن

وأسرار تنزيل كتب ورسلنا

ياهادى للخيرات اهد إرادتي

ومن ظلمة الأغيار والشك نجنا

قبيل صلاة الفجر كان قد أنشد ١٦٠ بيتا هى كامل أبيات المنظومة، وقد اجتمع حوله كل قادر على الانتقال من الشيوخ والكهول والرجال والشباب والنساء فقضت القرية ليلة من النشوة كأنهم سكارى ، لا يدركون من القصيدة ، ولا يحاولون إدراك ، إلا أنها كلمات الشيخ أحمد الطيب فكأنهم قد ارتدوا والتحموا بجدودهم يقاتلون تحت قيادته وهم يجهرون بنداء جدودهم : لا إله إلا الله محمد رسول الله ..

حتى اسماعيل لم يذهب إلى عروسه إلا بعد أن ذهب الشيخ النقشبندى إلى المسجد يصلى الفجر .

هذه منظومة الشيخ أحمد الطيب ابن الشيخ

أحمد عبيد الجعفري النقشبندي

نفعنا الله به في الدنيا والآخرة

وصلى الله على سيدنا محمد

وعلى آله وصحبه

وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

بدأت ببسم الله ذي المثل الأسنى ... تبارك رحمانا رحيما ومحسنا

وأحمد ربي بالمحامد كلها ... وأثني ثناء جامعا متضمنا

وصل على النور المجتبى ذاته ... أقمت جميع الكائنات من الفنا

وآل بدور يستضاء بنورهم ... وهم قدوة السادات في الدين [illegible]

بأسمائك الحسنى أنيطت مقاصدي ... وأنت جدير بالإجابة هاهنا

وتثبت بآيات فيها بسركم ... وأسرار تنزيل وكتب ورسلنا

تحقق لذا بك الطلب والقصد المجتبى ... وقوي اشتياقي فيك والحل [illegible]

وحلي جنابي بالخصوصات واسقنا ... حلا الإجمال بحضيرة قدسنا

وثبت ملاطي بإعتبر عذب [illegible] ... وشوري وبالأعراف وأحسن ذهابنا

بأسرار نطق شرهم تخل بالعطا ... إلهي بسر واح واشف عليلنا

بأسرار اسم العين ما جرى بنا بعا ... من النور والسر الخفي ولمددنا

ولا هو كنا مدرار أهل ومددنا ... بسلك وحلي نص وارفع لوائنا

ومن بمعانيها وأزوارها التي ... تقوم بها الأجساد فيها تصرفنا

فنسألك اللهم علما وحكمة ... ونورا به نجلي غياهب قلبنا

تفوح كنوز النفس للعرش صاعدا ... وتسري بأجزاء بمركز عرشنا

(٣)

أما الشيخ عباس فقد قضى شهرى الفيضان ينتقل من منضرة إلى منضرة ويستقبل فى منضرتهم زائرين ، ويدخل مباريات السيجة جالسا على التراب ، واستعاد معرفته الوثيقة بفنون التحطيب التى تعلمها صغيرا فأخذ فى تعليمها الصغار ، وحضر زفة العرب بمناسبة ختان مجموعة من غلمان « أولاد دويب » ، ولعلعت الزغاريد له عدة مرات إعجابا من المحجبات حول السامر ببراعته فى « فك » رموز الشعر البدوى القديم الذى كان يتحدى عوض الله به أهل الهمامية ، بل لقد صحح لعوض الله نفسه أخطاء تأويله لما كان يروى من الشعر القديم .

قبل أن ينحسر الفيضان عن الأحواض تماما ، جاءت ذات يوم أخبار بأن لجنة الدمرداش قد تحركت ومعها قوة المركز وعساكر انجليز فى ثلاثة « كنابيل » واتجهت إلى قاو العثمانية عابرة الهمامية ، انتظرت القرية قلقة متوترة وقد حل الهمس محل الحديث الوضاح إلى أن عادت « الكنابيل » إلى البدارى مارة بالقرية بدون أن تتوقف عندها ، ثم جاءت أخبار من قاو العثمانية بأنهم قد أخذوا ستة عشر شابا من بينهم ثابت ولد نصار معوض الخليفة المرتقب لعمه ابن عم أبيه ، سند عثمان.

– ما العمل ؟

نسأل الشيخ عباس .

اجتمع عشرات من أهل القرية مساء ذلك اليوم فى منضرة « أولاد مشهور » .

قال : أين العمدة ؟

قال أحمد عبد اللطيف : أخى مريض منذ أسبوع ، وقد أوصانا أن نسألك الرأى ، وأن نسألك أيضا عما إذا كنت واثقا من أن العرائض ستمنع اللجنة من الحضور إلى البلد .

قال : أنا واثق من أن العرائض قد وصلت إلى من أرسلت إليهم فى المركز وفى المديرية وطبقا للقانون كما أكد لى الابوكاتو عبد الكريم أبو شقة بعد أن قرأ العرائض أنه لا يجوز أن تأخذ السلطة أى شخص يرفض التطوع .

قال يونس عبد الله : من أجل هذا عبرت الكنابيل بلدنا ولم تدخلها.

قال الشيخ عباس : لا يا يونس ، أنا أظن أن اللجنة رأت أن تداهم قاو العتمانية وهى ماتزال محاطة بمياه الأحواض قبل أن ينفتح الطريق إلى الجبل خوفا من أن يهرب الناس إلى الجبل ، أما بلدنا فهى فوق الجبل ، وهم يعرفون أننا جميعا نستطيع أن نتسلق الجبل ونختفى فى مغاراته بمجرد أن نراهم عند الكبْرِى ، إذا صدق ظنى فسنعرف الحقيقة غدا ، لأن وضع الرياينة مثل وضع قاو ، وموضع بلدنا بينهما ، فإذا داهمت اللجنة الرياينة غدا وأخذت أنفارا فسيكون معنى هذا أنهم لن يداهموا بلدنا ، إما لأن العرائض قد نفعت وإما لمعرفتهم أن طريق الهرب إلى الجبل مفتوح ، أما إذا لم يداهموا الرياينة فعلينا أن ننتظر ونترقب ما سيحدث ، وليكن كل من ذكر اسمه فى العرائض مستعدا للهرب إذا ما حدث مكروه ، أما أنا فسأذهب غدا صباحا إلى المديرية رأسا وأقابل المدير الجديد محمد مقبل باشا فهو صديق عبد الكريم أبو

شـــقة الابوكاتو الذى أرسل العرائض ، وأعرف مـا هى الحكاية ، إن شـاء الله لن أعـود إلا بكل خـيـر ، وأنتم ، إذا بدأت اللجنة تذهب إلى الخط البحرى فاطمئنوا ، عزيز حسين يعرف لكم هذا الموضوع .

تبادلوا أحـاديث مختلطة بهمهمات فلا تبين ، غادر الوقوف المنضرة ، ويقى بعض الجـالسين همٌ من بين الجـالسين عـزيز حـسين يريد الانصـراف ، قـال له : انتظر ياعـزيز إنى أريد أن أتحدث مـعك فـغـادر البـاقون المنضرة تلقـائيا ، إلا يونس عبد الله ، قال : أذهب مـعك إلى أسيوط ، قال : لا داعى ، بعد يومين بالظبط انتظرنى فى البدارى ومعك الركوبة ، قال : إذن أوصلك غدا بالركوبة إلى البدارى وأعود بها ، قال عزيز حسين : سـأوصله أنا فإنى ذاهب غدا ان شـاء الله إلى البدارى فى مأمورية .. انصرف يونس عبد الله .

– أية مأمورية يا عزيز ؟

– « استلقط أخبارا » ..

– أية أخبار ، وكيف « تستلقطها » ؟

– من رشاد أفندى ضابط المباحث .

– هل تعرفه جيدا ؟

– أنا أعمل تابعا له ..

– حسبت أنك تابع للعمدة أو للمأمور .

– هذا عـمل آخـر ، كل مـشـايخ الخـفـراء ووكـلاؤهـم يؤدون عـمـلا لحساب المباحث التى تحاسبهم عليه .

– طيب .. ما هى آخر الأخبار ؟

– الراجل المأمور الذى كان « نص لبة » نقلوه بمجرد قفل التحقيق فى حادثة الكمبيل وأحضروا مأمور غيره متفرعن « تقولشى أنه انجليزية » .. يريد أن يعيد فتح التحقيق ليقدم إلى الانجليز متهمين بأية طريقة ، الضابط مغيظ من المأمور ، قال لشيخ خفراء العقال البحرى الموقوف : تصور ياشيخ « الغفر » ان الرجل الانجليزى يريد أن يعتبرها حادثة طريق ولكن المأمور الجديد « راصه وألف جزمة » أن يقبض على الفاعلين ، وعلى فكرة ، مسألة العتمانية واللجنة والسلطة والدمرداش كلها حركها المأمور القديم .

– ألم تسمع شيئا عن العرائض ؟

– وصلت أيام المأمور المنقول وأحدثت ارتباكا فى المركز ، قال لى شيخ خفراء العقال البحرى أن المأمور اجتمع ومعاون الادارة وضابط المباحث ، رشاد أفندى ، وقرأوها .. ثم ركنها المأمور فى درج مكتبه ، لكن بعد يومين أخذها شخصيا وذهب إلى بيت الباشا فى ساحل سليم وقضى هناك يوما كاملا ثم عاد .. فى اليوم التالى حضر إلى المركز مندوب الدمرداش وحده ، ولا أعرف ما الذى حدث بعد ذلك .

– لماذا لم تقل لى كل هذا فى وقته ياعزيز ؟

– والله ياشيخ عباس كل شىء بأوانه ، أنا حالف على الكتمان ، وما كنت لأقول لك لولا أننى كنت فى المركز منذ يومين وسمعت رشاد أفندى ضابط المباحث يقول عنك إنك « راجل متنور وجدع » .

– لمن قال هذا ؟

– لمعاون الادارة أمامى .. فأنا اطمئنيت .

بلعها ممتعضا وقال :

– طيب الآن ما رأيك وأنت مطمئن ؟

– فيم ؟

– فيما نتحدث عنه ..

– رأيى لن يعجبك ..

– لابأس .. قل لى ما رأيك ..

– ياشيخ عباس خسارة أن تفقدك البلد ، ولا أريد أن أشركك فى رأيى حتى لا تكون مسئولا ولكن لك علىّ ألا تدخل اللجنة البلد حتى لو وصلت إلى الكبْرى ، أنا عامل حسابى ، فأنت ثق بى ، وتوكل على الله.

حين عاد من أسيوط وجد عزيز حسين ويونس عبد الله منتظرين فى قهوة الأسمر .. استقبلاه باحترام كبير ، لم يسألاه عما فعل ، انتظرا أن يبدأ هو الحديث ، فبدأه سائلا :

– هيه . هل جرى شىء فى البلد ياعزيز ؟

– لا .. إنما ذهبت اللجنة إلى الرياينة (العقال القبلى) يوم أن سافرت وأخذت معها سبعة أشخاص من بينهم الولد العيان قبيصى ولد سالم من « أولاد مصبح » جايز يموت فى الطريق لأنه عيان خالص ، وهم موجودون الآن مع رجال العتمانية فى حجرة الحجز فى المركز ، سيرحلونهم غدا بعد الفجر فى « صندل » يرسى على شط البحر الشرقى غربى المستشفى .

– أليس غريبا ياعزيز ألا تجد اللجنة فى العتمانية إلا ستة عشر شابا ولا تأخذ من الريانية إلا سبعة وكل منهما أكثر من عدد أهل بلدنا بعشرين مرة وأسماء أولاد بلدنا اثنان وستون ؟

قال عزيز حسين : شغل حكومة ياشيخ عباس .

قال : يعنى ايه ؟

قال : يعني طبيخ .. اسألني أنا عن الحكومة .. أكبر ضلالية .. حسان عتمان عمدة العتمانية خائف منذ مدة من ثابت ولد نصار والشبان الملتفين حوله لأنه يريد أن يعيد سيرة عمه سند عثمان ، فاتفق مع المأمور أن يطوعهم فى نظير ألا تأخذ اللجنة أحدا غيرهم من البلد ، فبدأوا منذ شهر يعملون لهم مخالفات .

قال : مخالفات .. أية مخالفات ؟

قال : مخالفات لا أول لها ولا آخر ، اصطياد أبو فصادة مخالفة ، غسل بقرة فى الطريق العام مخالفة ، الجرى بالحمير فى الدروب مخالفة ، من لا يمنع كلبه من النباح على شخص غريب مخالفة ، من يرفع صوته بالليل يكون قد عمل غاغة وهى مخالفة ، الصراخ فى الجنازات مخالفة ، من ينزل الترعة عريانا مخالفة ، وغيره وغيره كما علمونا أيام التدريب ، فيحرر الشويش عتريس محضر بأن فلان الفلانى ارتكب مخالفة كذا ويبلغها المركز ، المأمور يصدر أمرا بتغريم المتهم جنيها أو نصف جنيه ، يستدعونه إلى المركز .. يحبس هناك حبس مصاريف .. كل يوم مقابل عشرة قروش .

قال : ما علاقة هذا بمن أخذتهم اللجنة .

قال : عملوا لكل واحد منهم مخالفة ، وصدر أمر عليه بالغرامة ، ويلغوهم بالأوامر ، حسان عتمان قال لهم لا تدفعوا الغرامات ولا تذهبوا إلى المركز ، حين تعرفون أن المأمور سيمر ويحضر إلى الدوار تعالوا جميعا ومع كل منكم نصف مبلغ الغرامة ، وقولوا ليس لدينا أكثر من هذا ، أنا سأتوسط لدى المأمور فيقبل منكم « النص » فقط ، وفعلا جمعهم فى اليوم المتفق عليه مع المأمور وجمع منهم أنصاف الغرامات ، ثم حضر المأمور ومعه اللجنة ، وأخذوهم « بربطة المعلم » وكتبوا إنهم متطوعون ووقع الشيخ يونس .

قال : وماذا عن الريانية ؟

قال : طبيخ بيتى ، ضحك ثم استطرد : محمود هريدى العمدة غنى .. عمل مع المأذون مقاولة ، المأذون كتب كتاب كل من تجاوز سن العشرين على احدى البنات بدون علم الأزواج أو الزوجات ، العمدة أخذ من المأذون شهادة بأسماء غير المتزوجين ، المأذون كتب أسماء سبعة أغلبهم مرضى ليبدو الأمر جديا ، استدعاهم العمدة وحضر المأمور واللجنة فى اليوم المتفق عليه وأخذهم ، والمأذون أخذ الأجرة خمسة جنيهات عن كل عقد زواج قسمها مع شكرى منقريوس ، وهو عارف ، والعمدة عارف ، والمأمور عارف ، حتى ضابط المباحث عارف .

سأل : ألم تعرف شيئا عن اتجاه الحملة القادمة ؟

– عرفت من سائق « البوكس فورد » الخاص بالمركز أن حملتهم غدا إلى قرية « التناغة » على الشط البحرى .

– عظيم .. يعنى لن يذهبوا إلى الهمامية .

– الله أعلم .. وأنت ما أخبارك ؟

– أنا قابلت أبو شقة يوم أن وصلت .. حكيت له الحكاية .. صباح اليوم التالى أخذنى وذهبنا معا إلى المديرية ، وجدناها مليئة بالانجليز والحالة متوترة ، دخلنا حجرة الباشا المدير ، شرح له أبو شقة الموضوع فغضب ولعن أبا هذه الأيام السوداء ، استدعى شاويشا استدعى به الحكمدار .. جاء الأميرالاى الحكمدار وقعد ، قال له المدير : يازكى بك هذا الرجل من الهمامية وهى قرية صغيرة كما تعرف وسبق أن أنذر أهلها المديرية والمركز بأنهم لا يريدون التطوع فى السلطة ، وعبد الكريم بك أبو شقة حاضر معه ليحذر من أن محاولة لجنة التطويع دخولها قد يسبب إخلالا بالأمن ، فأرجو أن تطلب مأمور المركز من هذا التليفون وتنذره بأنه إذا حدث إخلال بالأمن فى الهمامية سيكون هو المسئول .

– حاضر يافندم ..

بينما كان الحكمدار ينذر المأمور فى التليفون ، أرسل المدير الشاويش لإحضار شكرى أفندى منقريوس وكيل الدمرداش ، قال له المدير : هل أنت ممثل الشيخ الدمرداش فى أسيوط . قال : نعم . قال : عليك إذن أن تبلغه على لسانى أن يمنع لجنة التطوع من الذهاب إلى قرية الهمامية مركز البدارى لأسباب أمنية .. مفهوم ؟ .. مفهوم ياباشا.

خرج الرجل .. وقف الباشا .. خرجنا نحن ..

بقيت أنا فى المديرية لآخر النهار لأعرف مسألة خاصة تهم الشيخ محمود عبد اللطيف ربنا يشفيه ..

قال عزيز : هل جاءت كشوف الأطيان من المختلط ؟

قال ضاحكا : لسه .. وكيف عرفت بأمرها ؟

فضحك عزيز حسين وقال : أولاد الحرام بلغوا المركز أربع مرات أن على حامد يصطاد أبو قردان صديق الفلاح ويأخذ دهنه ويبيعه بزعم أنه دهن « بلسان » الذى تداوى به البواسير ، فقبض عليه رشاد بيه ضابط المباحث ، بموافقة المأمور المنقول ، وبعد ثلاثة أيام حجز فى حجرة الحجز أقر بأسباب سفر صديق إلى مصر ، وتفاصيل الأسباب ، ولكنه أنكر علاقته بأبو قردان فوجدوا أنه مظلوم وتركوه .

فضحكوا جميعا ثم توقفوا بغتة .

وقف على رأسهم على فلفل فراش المركز وقال للشيخ عباس البك المأمور يريد أن يراك .

- لماذا ؟

- لا أعرف ..

- قام وقال لهما انتظرانى .. دخل على المأمور حجرته ، قال له تفضل إجلس ياشيخ عباس ولا تنسى أننا الآن وحدنا ، كلنا مصريون ، منذ أن جئت إلى هنا طردت الرجل الانجليزى إلى الحجرة التى كان يشغلها باشكاتب المركز ، لم يكن مقبولا أو معقولا أن يتصنت أجنبى على ما يدور بيننا خاصة وأن من تقاليدنا التى ربانا عليها ديننا الحنيف الصدق فى القول أليس كذلك ؟

قال : نعم .. والاخلاص فى العمل ..

ألقى أمامه أوراقا ثم سأل :

- ياشيخ عباس هل أنت محرر هذه العريضة .. أنظر فيها ؟

- نعم أنا محررها حسب رغبة أصحابها ..

- هذه فكرة عظيمة تشكر عليها فلولا هذه العريضة لكنا دخلنا الهمامية ونحن عائدون من العتمانية .

- التوفيق من عند الله .

- أنا أسألك وأنت تجيب بصراحة ، هل تنطوى هذه العريضة على محاولة إخفاء اسم أى شخص تنطبق عليه شروط التطوع التى تعرفها.

- لا .. أبدا ..

- ربما يكون قد امتنع أحد الأشخاص عن إدراج اسمه لأنه يرغب فى التطوع .

- لا .. أبدا .. لا أحد ..

- هذا مريح لنا كادارة .. ونحن نشكرك عليه .. نخشى فقط أن يظهر شخص غير المكتوبة أسماءهم فى العريضة لأننا حينئذ سنعتبره راغبا فى التطوع .

- طبعا .. إذا ظهر ..

- طيب .. ثم استدعى ضابط المباحث .. يارشاد أفندى خذ الشيخ عباس وقدم له قهوة فى مكتبك إلى أن أفرغ أنا من كتابة المحضر ، وعد إلىّ بعد عشر دقائق لتأخذه ..

بعد عشر دقائق عاد رشاد إلى مكتبه يحمل محضرا محررا بخط المأمور يتضمن استدعاءه المدعو عباس محمد اسماعيل من ناحية

الهمامية مركز البدارى وإقراره بأنه محرر عريضة برغبة مذكورين فيها من أهل الهمامية فى عدم التطوع لخدمة السلطة ، وبسؤاله عن التفاصيل أقر بأن الذين لم ترد أسماؤهم فى العريضة يرغبون فى التطوع ، واذا تبين لنا أن اسم المذكور غير وارد فى العريضة مع أن شروط التطوع تنطبق عليه فقد اعتبرنا إقراره أمامنا رغبة منه واستعدادا للتطوع فأصدرنا الأمر بتحقيق رغبته وحجزه بمقر المركز لترحيله مع باقى المحتجزين غدا .. المأمور (إمضاء) ..

قاده رشاد أفندى إلى مدخل حجرة وتركه واقفا مذهولا ، جاء شرطى جسيم البدن خشن اليد ، فتح بابها الحديدى ، وزج به فيها عنوة ، التف خلفه فلمح شكرى منقريوس على باب الحجرة التى كان يشغلها حسين أفندى فريد ، وقف داخل الحجرة مذهولا ، تأمله الآخرون ، قال واحد لا يعرفه : « وقعت ياشيخ عباس » ، فلم يرد .. قال ثابت نصار : « اللى وقع يسد » ، لم يرد ، بدأ ينتبه إلى ما هو فيه ومن حوله ، حوله أكثر من عشرين انسانا جالسين على أعقابهم متلاصقين زائغى الأبصار لا راضين ولا كارهين ، إنهم فقط مستسلمون ، لا تتسع الحجرة لأكثر من خمسة أشخاص نياما ومثلهم إن كانوا قاعدين ، وليس فى الحجرة من بعدهم إلا حيث وضع قدميه واقفا يلتصق ظهره بقوة بظهر الباب الحديدى خشية أن يقع ، أرضها قار وارتفاعها ستة أمتار ، تحت سقفها بنحو متر نافذة رأسية مستطيلة ، متر فى نصف متر ، تعترض فتحتها قضبان من الحديد ، تعربد حولها أسراب من أشباح الهوام ، الهواء ساخن عطن عفن ، تتساقط من سقفها قطرات مكثفة من بخر عرق بشرى فتتحول إلى حشرات من البق صاعدة على

الجدران الكالحة ، والرجال جالسون على أعقابهم متلاصقين زائغى الأبصار لا راضين ولا كارهين ، انهم فقط مستسلمون ، فليستسلم ، جلس هابطا ببطء على عقبيه ، وكأنما قد سمع أصواتا تتحدث إليه ، لم يرد ، تجمعت أطراف الكاكولة والقفطان خلف ظهره وهو يزحف هابطا فأصبحت كالوسادة ، شعر ببعض الراحة من ضغط حديد الباب ، ذبل الضوء المتسرب من النافذة إيذانا بمغيب الشمس ، حين غامت بدت السماء سوداء واختفت الهوام ، أحس بتيار هادىء من الهواء البارد ينفذ إلى رجليه من فرجة ضيقة أسفل الباب ، ود لو استأثر به حتى لا يختنق ، إنشغل وقتا وهو يتمايل ويجذب أطراف ملابسه المعلقة على ظهره خفية إلى مواضع خفية ، أخيرا اتخذ تيار الهواء الهادىء طريقه من بين رجليه مرتفعا داخل القفطان إلى أن خرج من فتحة تحت ذقنه ، أصبح يتنفس هواء قادما من خارج الزنزانة لا تخالطه إلا بقايا رائحة علقت به وهو قادم من « الاسطبل » حيث خيول الحكومة تخوض فى روثها ، أفضل بكثير من رائحة هؤلاء الآدميين ، أفاق تماما وبدأ عقله فى استئناف التفكير .

أراد أن يستجدى الحديث فحالت الظلمة المطبقة دون أن يعرف إلى من يتحدث فأطبق شفتيه واستسلم للنعاس ، أيقظه صوت ضربة مفتاح حديدى فى قفل الباب ، فتح عينيه فرأى السماء باهتة ، لم يستطع أن يتأمل لونها الغريب ، حال دون تأمله دفع قوى للباب من خلفه وصوت غاضب يأمر « أولاد الكلب » الذين يعترضون فتح الباب إلى الداخل ، أذهله أن يكون من المقصودين ، فلم يستجب ولم يجب ، فمازال الباب مدفوعا بقوة حتى دفعه بقوة فانكفأ على الجالس أمامه ، جرفه الباب

فأصبح خلفه ، لعن الشاويش أباء الجميع ثم نادى : عباس محمد اسماعيل .. قام فبرز فظهر فجره من كم الكاكولة وقال : تعال .. طرف العمامة محشور بين الباب والحائط ، لم تستجب لحركته فانفرطت فجذبها وحملها فى يده خارجا بطربوش بغير عمامة كأنه مغربى ، لا راضيا ولا كارها بل مستسلما .. أدخل حجرة فيها رشاد بيه ضابط المباحث وآخران .. قدم إليه الضابط ورقة مكتوبة وقال له وقع .. وقع .. لا عالما ولا جاهلا مافيها بل مستسلما .. نظر الى الآخرين فإذا هما عزيز حسين ويونس عبدالله.. يونس عبد الله ينتحب فسالت من عينيه الدموع.. قال الضابط متجهما: خذه ياعزيز.. فقال عزيز : تفضل ياشيخ عباس.. قال الى أين ياعزيز.. قال الى البلد .. قال: ويونس عبدالله.. فنهرهما رشاد أفندى وأمرهما بالخروج فورا فخرجا..

(٤)

ـ سأقص عليك كل شيء ونحن على الطريق.. المهم الآن أن نسرع في العودة لندرك البلد قبل أن تحضر الينا.

ـ لماذا تحضر؟

ـ سأقص عليك كل شيء ونحن على الطريق.. الى أين أنت ذاهب.. تعال من هنا.. الحماران فى بيت على دلوكه وراء بيت خليل بولس.. أودعناهما، أنا ويونس، هناك بعد «فك القلس» وعودتى من البلد..

ـ وهل ذهبت الى البلد؟

ـ سـأقص عليك كل شيء ونحن على الطريق. المهم الآن أن نأخذ الحمارين ونعود سريعا، لف الشملة على الطربوش حتى لايراك احد، «مبهدلا» هكذا.

ـ نحن الآن على الطريق.

لا تسألنى عن شيء قبل أن تجيب عن سؤال.. لماذا لم تكتب اسمك فى العريضة.. لم يجدوا اسمك بين المعترضين فاعتبروك راغبا فى التطوع فأخذوك، فلماذا لم تكتب اسمك.

ـ أنا سطرت الأوراق وكتبت نص العريضة وأسماء العائلات وسلمتها إلى أحمد عبد اللطيف.. لم اكتب أنا أسماء، كتبت بمعرفة من كلفه العمدة بكتابتها ولا أعرف لماذا لم يكتب اسمى.. ربما سهوا من العمدة أو لم يكن يتصور ان يحدث لى ماحدث.

ـ ولماذا قلت للمأمور أن العريضة بخطك.

ـ لانها فعلا بخطى ولم أشأ أن أرشد عمن كتب الأسماء حتى لا أزج باسم العمدة فى الموضوع.

ـ على أى حال الحمد لله..

ـ أعلى أن اسمى لم يرد بين المعترضين ياعزيز.

ـ لا.. الحمد لله على انك برىء. لقد قضيت ليلة سوداء وانا أغلى غيظا منك لاننى حسبت انك لم تكتب اسمك مع باقى

الانفار   معتقدا انك احسن منهم فلا يسرى عليك مايسرى على الآخرين.. كنت حزينا من أجلك ولكنى شامت فيك.

ـ ولماذا تحسبنى من هذا النوع المستعلى على أهله.

ـ لأن حكايتك كلها من أولها إلى آخرها توحى بانك منهم.

ـ إية حكاية ياعزيز؟

ـ حكاية العرائض.. انت الذى اقترحتها. وانت الذى سطرتها.. وانت الذى قدمتها.. فرحت بنفسك فأبرزتها ليعرف الناس انك انت من الناس صاحب الخطة وقائد تنفيذها.. فلم يبذل الطرف الاخر جهداً لمعرفة من وراء فكرة العرائض ومحررها وحاملها ومرسلها.. فركزوا اهتمامهم على التخلص منك..

ـ وما الذى يهمهم فى التخلص منى شخصيا ماداموا قد صادقوا على رغبة الناس.

ـ لانهم ، ياشيخ عباس، يريدون أن يقضوا على الفكرة حتى لايجرؤ أحد بعد ذلك على تبنيها والا لكتبت كل القرى عرائض.

ـ سنتحدث معا مرة أخرى «على رواقة» اريد الآن ان اعرف ماحدث.

ـ سأقص عليك كل شىء ونحن على الطريق فمازال الطريق ممتدا. أما ونحن نتحدث عنك فهناك سؤال تتداوله البلد كلها وقد احترت فى معرفة جواب عليه. هل تسمح لى بأن اسأله وسأكتم

الجواب إذا أردت،،

ــ قل ياعزيز.

ـ ياشيخ عباس منذ حضورك من مصر وأنت مشغول بهموم البلد كما لو كنت المسئول عن أهلها.

ولقد احبك الناس واحترموك واستمعوا اليك واطاعوك من اجل اهتمامك بهمومهم.. غير انهم يتساءلون.. أليست الجزيرة من هموم البلد بل همها الأكبر فلماذا لم تشغل نفسك ولو بالحديث عنها.

ـ أية جزيرة؟

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله. ألا تعرف الجزيرة.. جزيرة الهمامية.. «جزيرة «بيت الباشا»..

ألا تعرف حكاية البلد مع الجزيرة وكيف حرمت منها بعد أن كانت جزيرتها فافتقرت بعد غنى وجاعت بعد شبع.. رحم الله والدك.. ما ان تعين شيخ مشايخ حتى اراد ان يسترد الجزيرة لاهل البلد، فباع أغلب مايملك واشتراها، «بحجة» مكتوبة من وكيل لطيف باشا الذى كان يديرها.. وقد كان لطيف باشا قد تلقاها مكافأة على اشتراك قوات جرجا فى الغارة على بلدنا بعد أن طرد أهل بلدنا منها.. و..و... ياشيخ عباس هل نمت ؟

ـ لا.. سمعتك تتحدث عن شراء والدى الجزيرة «بحجة»

مكتوبة.

ـ طبعا.. لابد أنها موجودة بين أوراقه لدى والدتك.

ـ سنتحدث معا مرة اخرى «على رواقه» عن هذا الذى قلته «أريد الآن أن أعرف ماحدث، لماذا لم يتركوا يونس عبد اللهْ يعود معنا.. انى اركب حماره فكيف يعود حين يخرج.

ـ يونس عبدالله لن يعود الى البلد ياشيخ عباس.

ـ لماذا ياعزيز.. قل لى لماذا؟

ـ أقول لك من البداية لان يونس عبدالله هو النهاية.. كنت أنا وهو فى قهوة الاسمر حين تركتنا وذهبت الى المركز انتظرنا حوالى ساعتين وبدأنا نقلق.. ثم شاهدت المأمور ومعاون البوليس وشكرى منقريوس يخرجون ويركبون، «البوكس فورد» ويتجهون الى «بحرى» ، أما الى ساحل سليم وأما الى اسيوط.. فتشجعت بمعرفتى ان ليس باقيا فى المركز الا رشاد بك ضابط المباحث، ذهبت اليه ودخلت مكتبه فوجدته مغموما.. بدأت الحديث بأن سألته عن صحته.

ثم قلت له إننى رأيت البوكس متجها الى «التناغة» بدون قوة مع المأمور ومعاون البوليس.

والتناغة بلد شرسة.. ابتسم وهو يتأملنى ثم قال لا مبرر للمكر ياعزيز: حملة التناغة تأجلت.. والمأمور ومعاون البوليس ذاهبان

لحضور اجتماع فى المديرية. وشكرى منقريوس معهما «توصيلة» الى ساحل سليم. وانت تعرف كل هذا ولكن تريد ان تبدو ماكرا. والذى لاتعرفه ان المأمور ومعاون البوليس سيقضيان الليل فى اسيوط.. واننى منذ ان غادرا «النوباتشى» المسئول عن المركز. ومسئول أيضا ياوكيل شيخ الخفراء، عن ترحيل الانفار المحجوزين وتوصيلهم على مسئوليتى الى الصندل الذى سيرسو غربى المستشفى الساعة السابعة صباحا وهم خمسة وعشرون نفرا من بينهم، ياوكيل شيخ الخفراء، «بلديك» عباس محمد اسماعيل، أم أنك لتعرف هذا؟

ـ أخذتموه ؟

ـ أخذه المأمور.

ـ لماذا؟

ـ لانه تطوع كما يقول المحضر (وقرأ لى المحضر).

ـ هذا غير معقول «ياسعادة البيه».

ـ إجلس حتى لا تقع.

ـ ولماذا يفعل المأمور هذا الشيء غير المعقول؟

ـ سياسة.

ـ سياسة «إيه» يابك. الرجل لايعمل بالسياسة . وليس فى بلدنا سياسة. حتى الجرائد التى كانت تأتى اليه فى «البوسطة»

انقطعت.

ـ سياسة المأمور الجديد ياعزيز.

لا أفهم.

ـ كنت أظنك نبيها.

ـ نبهني يابك..

ـ البك المأمور.. هذا المأمور.. له رأى مخالف لرأى من سبقه، انه مثله يكره الانجليز ويكره الدمرداش ويكره السلطة ولكنه يرى أن المقاومة لا تجدى لانهم الاقوى.. وأن الطريقة الافضل للتعامل معهم هى تنفيذ رغباتهم، تنفيذها بمعرفتنا.. لاقناعهم بألا حاجة الى تدخلهم المباشر.. وأن هذه الطريقة ستؤدى الى مغادرة الانجليز المركز، وتوقف شكرى منقريوس عن التردد عليه.. «وحشر» أنفه فى شئونه.. وإذا كان لابد من التضحيات لكسب ثقتهم فلتكن فى اضيق الحدود أو فيما يعتبرونه ذا اهمية خاصة بالنسبة اليهم.

ـ وماذا نكسب يارشاد بك اذا كنا سننفذ مايريدون بدون ان «يتعبوا انفسهم»..

ـ الحقيقة اننا كسبنا.. داهموا «الرياينة» فى حملتهم الاولى وقتلوا واحدا من بلدكم واستولوا على الغلال والحمير فى عهد المأمور القديم، أما فى عهد المأمور الحالى، فبالاتفاق مع العمدة

ذهبت الحملة بقيادة المأمور شخصيا وعادت بسبعة أنفار بدلا من مائة وثلاثة وخمسين ، وبالاتفاق بين المأمور وعمدة العتمانية عادت بستة عشر من الاشقياء بدلا من مائتين وعشرة.

ـ لماذا اذن اخذ الشيخ عباس؟

ـ كان لابد له من ان يفعل شيئا يرضى السلطة والادارة ويؤكد ثقتهم به .. وكان المأمور القديم قد اكتشف خطأ الشيخ عباس في انه لم يذكر اسمه في العريضة مع انه اورد اسم اخيه الصغير .. فوضع امام اسم هذا الاخير علامة استفهام صغيرة . ثم ركن العريضة «وصهين» لفتت علامة الاستفهام تلك انتباه المأمور الجديد ولم يكن صعبا عليه ان يتبين انها «تساؤل» بالرمز عن سبب عدم ذكر الشيخ عباس اسمه مع اخيه. فلما تلقى طلبا جديدا متكررا بعمل شيء للحد من نشاط هذا الرجل قدمه عربونا وقبض الثمن ثقة شجعته على اقتراح التوصية بمغادرة من تبقى من الجند الانجليز في المركز «اكتفاء» به. وقد انتظر حتى حضر الشيخ عباس الى المركز بقدميه.. فاستدعاه وبعد حجزه غادر المركز هو ومعاون البوليس لحضور «لجنة» رجال البوليس ليقدم من حجز الشيخ عباس دعما لاقتراحه إصدار التوصية.. هل فهمت الآن.

ـ فهمت.. هذا «لعب» كبير.. والآن ما العمل هل نترك الرجل يضيع هل يرضيك هذا يارشاد بيه.

ـ لا تضيع وقتا.. شكرى منقريوس في ساحل سليم اذهب اليه وتفاهم معه كما يفعل الآخرون.

وعد اليَّ بورقة منه تفيد الاستغناء عن عباس، وستجدني في أى وقت هنا حتى الصباح.

هكذا قال لى رشاد بك.. لم اذهب الى الساحل. بل جريت بالركوبة الى الهمامية.. هناك قابلت مرسي وقصصت عليه ماحدث.. فأخذ يبكي وكاد يصرخ كما تصرخ الحريم فطلبت منه أن يكتم الخبر .. ولكن اسماعيل «طب علينا» فعرف بالامر. وقال أنا كنت عارفا أن هذه نهايتنا. لا وقت نضيعه يامرسي.. لا أملك أنا شيئا ولابد من خمسين جنيها تدفعها الى شكرى ونسترد أخاك..

دخل الدار وطالت غيبته.. ذهب اليه اسماعيل ثم عاد.. لماذا التأخير يا اسماعيل.. «الفلوس» مع أمي وهي تبكي في صمت ولكنها تسأل كيف لا تخسر فلوسها بعد أن خسرت ولدها. وما الذى يضمن أنك من الصادقين. ومرسى يحاول اقناعها فلم تقتنع الا بعد أن حلف لها.. «بالطلاق ثلاثة». من صفية بنت احمد على بأنه اذا لم يعد عباس في خلال يومين سيرد لها الخمسين جنيها.

فبكت صفية، وامي مشغولة الآن بتأنيبها لتغادر غرفتها حتى

لا ترى من أين تخرج الفلوس، ومرسى يستعجلها. وهذا هو سبب التأخير.. قبل أن ينهى اسماعيل كلامه حضر مرسى ومعه الفلوس.

ورفض أن يعطيها لى وقال انه سيذهب معى الى ساحل سليم.. حاولت ان افهمه ان هذا سيفضح الامر فلم يقتنع حتى بعد أن حلفت له يمينا كبيرا.. فذهبت الى بيتى جريا واحضرت له بندقية واعطيتها له رهنا الى حين أن أعود بك أو بالفلوس.

ـ بندقية الحكومة ياعزيز ، جزاء هذا السجن.

ـ لا .. بندقية رمنجتون . «خلينا فى موضوعنا» .. عدت جريا بالركوبة الى البدارى.. فوجدت يونس نائما تحت شجر السنط عند قلس على دلوكة.. سألنى بلهفة عما فعلت فقلت له احضرت الفلوس، وسأسوق طوالى الى الساحل».. وصلت ساحل سليم بعد المغرب بقليل. توجهت الى سراى عبدالرحمن بك محمود وسألت عما اذا كان شكرى افندى منقريوس فى السراى.. قيل لى لا.

سيتعشى اليوم فى سراى خليل بك.. ذهبت الى سراى خليل بك وسألت فقيل لى انه قد أخذ «كمبيل» البك وسافر الى أسيوط.. ضاقت بى الدنيا ولم اعرف ماذا أفعل قعدت الى البدارى ليلا.. قعدت انا ويونس عبدالله فى قهوة الاسمر.. لا نتكلم.. انا يائس فى صمت وهو يبكى فى صمت.. اخيرا توقف ونظر الىّ وقال: اسمع ياعزيز انا اثق فى رجولتك، ولكن لابد أن

تعرف ان البلد لن تصدق ماقلت . سيتهمونك ياعزيز بانك سلمت الشيخ عباس الى المباحث، فانفجرت فى صدرى بركان من الغضب والتحدى والخوف، قلت له انتظرنى حتى اعود ولو فى الصبح.

دخلت المركز.. اقتحمت حجرة رشاد بيه. قال لى : مابك. كيف تدخل هكذا بدون استئذان..

جلست بدون استئذان. وقلت له: اسمع يارشاد بك.. كل البلد تعرف اننى تبعك.. وانت لا تنسى كيف ضحيت من اجل تنفيذ تعليماتك . والآن انا مهدد بالقتل وأطلب منك حمايتى .. قال:

لا تخف سأحميك. قلت له احلف .. قال: والله سأفعل كل ما استطيع لاحميك.. قل لى من الذى يهددك.. قلت له: البلد. كل البلد ... وعائلاتها .. ورويت له رواية ذهابى الى البلد واخرجت له الفلوس وقلت له لقد جمعت البلد هذه الفلوس واعطتها لى واقسم رؤساء العائلات بأنى إذا لم اعد بالشيخ عباس فسيقتلوننى جزاء أننى سلمته الى سعادتك . لانهم يعتقدون جزما بأنى سلمته الى المباحث، وقد ذهبت الى الساحل ووجدت أن شكرى منقريوس سافر الى اسيوط.. والآن أنا امامك والفلوس امامك، والطبنجة فى جيبك وفى جيبى سكين، فاما تخرج لى الشيخ عباس أو تقتلنى او اقتل نفسى لاننى مقتول مقتول على اى حال. قال اهدأ ودعنى أفكر فى هدوء ..

ثم رفع رأسه وقال لي: اطمئن.. اترك لي وقتا كافيا لتدبير الامور.. قلت له هل ستؤخر الترحيلة.. قال إن شاء الله لا.. قلت له هل استطيع ان ارى الشيخ عباس.. قال: لا.. اذهب الى دوار النواصر ونم فأنت متعب، وسأستدعيك فى الوقت المناسب.. قلت له.. لن ابعد عن المركز سأذهب الى بيت على دلوكة انام بل سأنتظر.. وقمت فقام وصافحني.. فقبلت يده وقلت له انقذنى ربنا يحفظك من كل سوء.

ذهبت الى بيت على دلوكة فوجدت يونس عبدالله منتظرا مع الحمير.. قال بلهفة : خير إن شاء الله . قلت خير.. قال ماذا حدث.. قلت: اطمئن اترك لي وقتا كافيا لتدبير الأمور.. بعد ساعتين جاء عسكرى وطلب منى الذهاب الى المركز لمقابلة الضابط النوباتشى. ذهبت اجرى.. وطرقت الباب المفتوح استأذن فى الدخول فأذن لى وقال لى اسمع ياعزيز.. بعد التفكير فى الامر، واخذ رأى بعض الزملاء بالتليفون لايوجد الآن الا حل واحد. قلت ماهو؟ أن يتقدم شخص من بلدكم ليتطوع بدلا من الشيخ عباس.. فكاد يغمى علىّ .. وقلت: أنا.. حتى لو كان التطوع موتا فالموت ولا العار.. قال: لا تتسرع أمامك ساعة لتفكر وتقرر وحدك بعيدا عن هنا فاذا قررت أن تكون بديلا احضر الىّ مع آذان الفجر.. اذا لم تحضر فسأفهم وتتم اجراءات الترحيل.

لم أذهب مباشرة الى بيت على دلوكة. اخذت ألف وأدور فى

الشوارع والدروب.. وصلت الى غربى المستشفى وجلست على شاطىء الماء تحت المنطات، وتذكرت فكرى عبد النبى حين قابلته فى المكان ذاته.. كان مستعدا للموت انتقاما لمقتل صديقه.. وعدت الى المركز وقد قررت أن أفديك بروحي. بادرنى رشاد بيه بأنه كان يبحث عني.. قلت خير.. قال زميلى فى مباحث اسيوط اتصل بى فذكرت له انك البديل فقال لى انك لا تصلح الا بعد فصلك من خدمة الحكومة ولا أعرف كيف فاتتنى هذه البدهية، إنى آسف.. فتركته بدون ان ارد.. ولم يستوقفنى وذهبت اجر قدمى يائسا، متهالكا الى يونس عبد الله وجدته لايزال منتظرا يقظا. وحكيت له الحكاية. «من طقطق لسلام عليكم».. ففوجئت به يعانقنى ويقفز واقفا ويجرنى من يدى.. ماهذا يا يونس.. قال وهو فى فرح «زى ما يكون لقى لقية». أنا البديل. أنا فداء الشيخ عباس . هذه إرادة الله.

والحمد لله.. وعدنا معا الى المركز فقدمته الى رشاد بيه وكتب على المحضر المقدم انه طبقا للتعليمات يعفى من التطوع نهائيا من يقدم بديلا عنه. وقد تقدم فى تاريخه وساعته المدعو يونس عبد الله زروق من الهمامية مركز البدارى متطوعا بدلا من المدعو عباس محمد اسماعيل فقررنا بحجز الاول الى أن يتم الترحيل ويخلى سبيل الثاني.. وقد كنت أنت حاضرا النهاية.. ووقعت على المحضر بعد أن كان يونس قد بصم قبل استدعائك..

وهكذا ..

منذ أن شاع أن يونس عبد الله قد عاد من «السلطة» قبل أن يعود غيره وهو جالس في مقعد داره يحكي ويعيد لاينقص ولايزيد لمن يحيط به من رجال وشباب وصبية، بصوت تسمعه في فناء الدار أمه ومن يتوافدن اليها مهنئات بسلامة عودة ولدها من حيث لم يكن احد ليعرف قبل ان يحكي يونس عبد الله.

هذا هو أصل الحكاية وفصلها ..

الفصل الثالث

الجزيرة

قال الراوى:

(١)

يشغل الحديث عن الجزيرة، ماضيا وحاضرا ومستقبلا قدرا كبيرا متصلا من مذكرات القرية، يكفى من يريد ان يقطع الصمت الرهيب الذى كثيرا مايرين على الجالسين على المصاطب أن يسأل شيخا منهم عن ماضى الجزيرة أو حاضرها أو مستقبلها ، حتى يستيقظ النيام وينتبه الغافلون، ويشارك القعود والقيام فى تلاوة مذكرات القرية والجزيرة منذ قديم الزمان.. تختلط الاصوات وتختلف الروايات تبعا للانتماء القبلى ،الى العائلات أو تبعا للمصالح والغايات.. فلقد أصبحت سيرة الجزيرة قصتهم الاثيرة لا تزاحمها حتى سيرة بنى هلال.

الاصل فى امر الجزيرة ان مجرى النيل يقع فيما بين جسريه الشرقى والغربى، وهو منخفض ضيق نسبيا تجرى فيه المياه هادئة رائقة أيام التحاريق، هادرة عكرة أيام الفيضان، وتحول فى الحالين دون أن يترسب فيه طمى أو طين.. انه مفروش بغطاء غير سميك من الحصى مختلف الالوان.. بالمجرى تتحدد «زمامات» القرى والمدن من الارض الخصيبة،، ما كان غربيه فلأهل الغرب. وما كان شرقيه فلاهل الشوق.. مع ذلك فإن النيل متصل الاستقرار فى مجراه لايدع مجراه متصل الاستقرار.. فمن عام الى عام، او كل بضعة اعوام، او مالا يحصى من الأيام يغير النيل مجراه منحرفا الى الشرق أو

منحرفا الى الغرب، فيما بين جسريه ، وهو متجه دائما الى الشمال.

حين يفيض النيل وفاء كل عام يفيء على ارض مصر بما يحمله، من منابعه وعلى امتداد مجراه، بآلاف الملايين من امتار الطمى المكعبة، لايعود بها ابدا من الشمال لانه ابدا لايعود الى الجنوب. يحملها بقوة اندفاع مائه المتدفق فلا يترسب منها على الارض، ويبقى، إلا حيث تسكن حركته أو تهدأ قوته.. وهى تسكن حيث تتوزع بإحكام مصنوع على الحياض وتغلق دونها أبواب السحاحير فلا تلبث ان تضع حملها من الطمى فى الحياض قبل ان يؤذن لها بأن تعود الى النيل فى أواخر موسم الفيضان فى توقيت موضوع.. ولما كان الماء العكر قد توزع وانتشر على حياض الوادى كلها قبل أن يسكن فهو ضحل فى كل حوض، فما يضع إلا ما حمله من الطمى وهو جد قليل، غلالة رقيقة من طين خصيب، أما بقية آلاف الملايين التى يحملها ماء النهر الدافق فلها مصير آخر. أقل القليل منها يبقى النيل المجهد من طول السفر ووعثاء الطريق قادرا على حمله الى ان يلقى بذاته وبما حمل فى احضان البحر.. اما اكثر الكثير فيترسب بهدوء التيار فى مواقع تحددها معوقات طبيعية ومعوقات صناعية. تصد تلك المعوقات قوة اندفاع الماء الحامل اذ تعترضه فإن غلبته اضعفته فيما يليها فحملته على ان يضع فوقها قدرا مما حمل. عرف الفلاحون منذ

إن كانوا فلاحين تلك الظاهرة فتعلموا كيف يحصلون من طمي النيل وهو في فيضانه على رواسب طمي قبل أوانه، يختارون مواقع ناتئة من الشاطيء ويبنون فيها «أكتافا» من الحجارة فإذا مافاض النيل وادركها تياره صدت تياره فانحرف عنها شرقا او غربا ، تاركا جنوبها رواسب من الطمي لا تلبث بعد سنين أن تتراكم حتى تطمر الاكتاف أو تكاد.

كلما وأينما ترسب في القاع طمي فقد ارتفع القاع.. والارتفاع عائق للتيار بقدر مايرتفع.. فيترسب عليه الطمي عاما بعد عام بعد اعوام الى ان ينحسر الفيضان ذات عام عن قمة سافرة فوق الماء تبشر الفلاحين بأن قد «طرح النهر جزيرة» ولن تنصرم أعوام كثيرة حتى تصبح «الجزيرة» مساحة فسيحة من الارض بالغة الخصوبة، ينتقل إليها الناس فيما بين مواسم الفيضان يزرعونها.

مايقرب من ربع الارض الزراعية المتاحة لجهد الصعايدة جزر متتابعة وقد تكون متجاورة في سلسلة ممتدة من جزيرة الروضة الى جزيرة الدهب ثم جنوبا حتى اسوان.. يتلوى فيما بينها مجرى النيل تاركا بينها فواصل من ماء أيام التحاريق.. إنها «الاخوار» المجارى القديمة للنيل المصدر الاساسى فى الصعيد للاسماك مادامت محتفظة بماء النهر الذى هجرها.. أما الجزر فهى المجال الاول لزراعة البرسيم اكسير حياة الماشية، والقمح

عنوان الرخاء، ثم خضراوات وفاكهة من البطيخ والشمام والخيار ، تساوى ، عند فلاحي الصعيد، النقود ذاتها ، لأنهم لايخزنونها فى الحواصل أو فى الصوامع ولا يأكلونها غذاء بل يبيعونها «لأهل البندر» فى أسواقهم نقدا. ولايخلو الأمر من افتتاحيةعذاب.. اذ حين تنحسر مياه الفيضان عن «جزيرة» لا تتركها خالية من كل نبات بل عن نبات مائى فى تجمعات متشابكة كثيفة الجذور قصيرة السوق طويلة الاوراق الشائكة.. انه نبات «الحلفاء» أو «سوت» رمز الوجه القبلى قبل توحيد الوجهين. ويكون على الفلاحين ان يخوضوا فى الطين قبل ان يجف ليجتثوها من أعماق جذورها الغائرة فى الطين.. أما اقتلاعها شدا من سوقها القصيرة أو أوراقها الطويلة فيدمى الأيدى ويخدش الاذرع والصدور..

ومع ذلك فإن الفلاحين ذوى الخبرة، مرها وحلوها، يراقبون انحسار الفيضان دائبين يستطلعون اطراف ذلك النبات الشائك كعلامات مأمولة عسى أن يكون النيل قد ترك لهم رزقا مباركا، كما يستطلع المسلمون ظهور هلال شهر رمضان المبارك، فإن ظهرت فهى بشرى للفقراء فى الأرض برزق وفير..

ولا يشغل الفلاحون أنفسهم بما يعرفونه من أن النيل الذى يغير اتجاه مجراه خفية إبان الفيضان ويرسى قواعد الجزر التى لم تلبث أعواما ثم تبين يطهر فى الوقت ذاته مجراه الجديد مما

يعترضه من أطراف ارض لا تقاوم هشاشتها تياره، «فينحرها» يجرفها خفية، فإذا ما انحسر الفيضان اختفت كأنها لم تكن قط.. ذلك هو «نحر النهر»، المقابل السلبي «لطرح النهر»، ولما كان وادى النيل كله يمد النهر عاما بعد عام بما يطرحه على ارض مصر القديمة من ارض جديدة.، وكان ماينحره النهر من موقع يطرحه فيما يطرح في مواقع أخرى فإن «نحر النهر» ليس هلاكا للارض الخصبة بل هو تغيير لمواقعها بعد الاضافة إليها، ويبقى النهر مصدر خير كامل غير منقوص، متصل غير مقطوع، بما يطرح وبما ينحر.

لمن طرح النهر؟

ابتدع المشرعون ماظنوه جوابا فصاغوه نظاما في قوانين مصر.. فقد اضافوا الى اسباب «الملكية» ملكية الارض الزراعية في مصر، سببا اسموه «الالتصاق» مؤداه أن ما يطرحه النهر من ارض على جانبي مجراه يصبح «ملكا» لاصحاب الارض التي وقع عليها فالتصق بها، وأن ماينحره النهر من ارض يلقيه، افتراضا، على ارض القرية التى تليها شمالا، فيعوض الطرح «ملاك» النحر.

يبدو حلا منطقيا، ولكنه مثل كل الافكار المجردة القائمة على فروض غير واقعية، ولو كانت منطقية، فشل في حل مشكلات واقع حياة الفلاحين في مصر.. اول اسباب الفشل ان احدا في

مصر، منذ ان جرى النيل فى مصر، لم يكن يدرك معنى «ملكية الارض» الزراعية، ولم يعرفها نظاما حتى منتصف القرن الماضى.. نعنى بالملكية الحق العينى الخاص على التربة ذاتها بمكوناتها المعدنية والكيماوية ، بما يتضمنه من سلطة التصرف (الرهن والبيع والهبة والايجار والاتلاف والترك)، كان الحق الممكن والمفهوم فى الارض الزراعية مقصورا على «الانتفاع» بما يتضمنه من زراعة أو مزارعة حتى عهد سعيد باشا والى مصر الذى اباح لنفسه ان يوزع ارض مصر على الامراء والاميرات والجوارى والباشوات والبكوات «أبعديات» مملوكة ملكية عينيه، أما الفلاحون فلم يفهموا ابدا كيف إذ يفيض النيل حاملا الطمى من منابع لايعرفها احد، ويضيف اليه ما ينحر من مواقع لايعرفها احد، ويضع حمله فى مواضع لايعرفها احد ، يأتى احد فيزعم ان الطمى قد إلتصق بالارض فاصبح ملكا لاصحاب الارض التى وقع عليها فالتصق بها، يبيعونه ويرهنونه ويهبونه ويؤجرونه، أو يتلفونه ويتركونه لايزرعون وهم لايعرفون حتى من اين جاء فوقع. ثم يسخر الفلاحون فيقولون من ذا الذى سيجرى على شاطىء النيل متتبعا ما نحر من ارضه فذاب فى الماء ليرى اين يطرحه النهر ليمتلكه تعويضا. ثم من ذا الذى ينتمى الى قرية قبلية سيهجر قبيلته الى قرية قبلية اخرى سعيا وراء قراريط معدودة قيل له إنها تعويض عن طرح النهر عما نحر النهر من قراريطه

المعدودة إن غامر فهاجر فسيقول له اهل القرية الشمالية إن ما طرحه النهر على ارضنا قد التصق بها فهو ملك لنا «حسب القانون»..

لم ينفذ القانون اذ فشل ..

أيا ما كان رأى واضعى القوانين، وايا ماكان الراوى فى ملكية الارض وعلاقتها بالنظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فهو يروى مذكرات القرية.. ولقد كان لاهل القرية رأى فى طرح النهر (الجزيرة) ورؤية لعلاقتهم به او بها، صاغه مثلا الحاج سيد عبد النبى الذى تجاوز المائة عمرا فشاع إذ يأخذون الحكمة فى القرية من افواه الشيوخ.. قال رحمه الله : «اللى يحط الطين فى الميه يبقى هوه صاحبه، واللى يحط الطين على أرضه يبقى هوه رزقه».. أما رؤية أهل القرية لعلاقتهم بطرح النهر و «الجزيرة» فعقيدة موجزة التعبير فى غير حاجة الى تبرير مثل كل العقائد:

إنها رزقهم، كذلك أراد الله مالك الارض ومقسم الارزاق أن يستولد الماء طينا من اجلهم ، فالحمد لله.

(٢)

ولقد كانت للهمامية منذ ان كانت كفرين متجاورين «النطره» و«الشيخ جابر» تابعين لبلدة قاو الكبيرة (العتمانية)، جزيرة من طرح النهر أو أكثر من جزيرة لسبب طبيعي، ففي تاريخ غير معروف غير النيل اتجاه مجراه وانحرف شرقا بعيدا عن ارض مديرية جرجا فاصطدم تياره بجسر النيل الشرقى الذى يحرسه الرجال سخرة أو تطوعا وتسانده من خلفه كتلة مسطحة من الارض الصلبة تستمد صلابتها من اتكائها على سفح الجبل الشرقي ذاته.. انها وجسر النيل مستعصيان على النحر . فارتد عنهما النهر واتجه مجراه «غربا ـ شمالا» . وافرغ كثيرا مما يحمل من الطمي قبل ان يرتد ، وهو مرتد ومازال يصطدم فيرتد فيطرح عاما بعد عام حتى بانت فى تاريخ غير معروف ، ثم نمت ثم اتسعت جزيرة اسميت «قبالة الدير» اذ كانت مقابلة فى النهر «للمغارات» التى كان يسكنها رهبان النصارى فى الجبل الشرقي.. ثم اسميت «جزيرة نزلة همام» قبل ان تسمى القرية الهمامية إذ هى موازية ومحاذية لتلك القرية وواقعة فى زمامها . خرج إليها أهل «النطرة» وأهل «الشيخ جابر» مع أهل «قاو» التى أصبحت لكثرة أهلها واتساع أرض الجزيرة بالاضافة الى أرض حياضها عاصمة اقليم «رأس خط» كما جاء فى الخطط التوفيقية، قبل الغارة.

ويبدو مما تتداوله الاجيال من مذكرات القرية وذكرياتها ان

أهلها قد عاشوا حقبة طويلة من الزمان فى رخاء عميم مصدره الجزيرة، فمايزال المعاصرون ينقلون عن المعاصرين مكونات الرخاء وعلاماته . كانت «بوابات» البيوت الكبيرة ذات المطاحن الخاصة من حجر يكفى ارتفاعها واتساعها دخول الجمل بما حمل. مباريات التحطيب بعصى الشوم بين الافراد كانت تقوم بعصى طويلة من الخيزران بين فرسان على ظهور الخيل المطهمة.. شباب يمتطون الجمال «الهجن» في مواسم الفيضان ، حيث لا عمل يزورون قبائل عربية يزعمون أن بينهم وبينها قرابة عرقية فى الفيوم وفى الشرقية، ويستقبلون شبابا منها زائرين «الشيخ جابر» فى العام التالى.

ثم الغلال والماشية والانعام و «الذهب المشغول» خلاخيل واساور واقراطا واخزمة من حلقات فى أطراف أنوف الصبايا من الذهب الخالص . منها رمزها الذى انقرض. حليه تسميها الذكريات «لِبّة» وتنسبها الى اكثر النساء المحصنات من العائلات.. يصفها الرواة بإنها شبكة عريضة من الجنيهات الذهبية، «البنتو» المتلاصقة تعلقها المرأة فى رقبتها فتغطي صدرها من نحرها الى سرتها، تصدر «شخشخة» مسموعة كالوشوشة حتى لو سارت حاملتها مدثرة بشقتها.

أيما ما كان من مبالغة ذكريات القرية الفقيرة او من دقتها فإن ظهور الذهب فى مذكراتهم المروية يوحى بان قد فاض الثراء عن احتياجاتهم فادخروه زينة فى «الذهب المشغول» ففى سنين الرخاء الخوالى، والبيوت الكبيرة، والتفاخر القبلى، والجزيرة ،

كانت مهور الزواج مباريات بين الصبايا والشباب فيما يقدم إليهن منهم من ذهب مشغول ، ولم تكن أية عروس أو أى عريس فى حاجة الى بيع المهر لشراء بقرة، كانت الماشية كثيرة وفائضة العدد واللبن والجبن والدهان ظهور فيض، «الدهان» فى مذكرات القرية ينبىء عن صدق ما تضمنته ذكريات القرية من رخاء تلك الأيام، إذ الدهان هو الخلاصة القليلة للبن كثير.. ومع ذلك فما يزالون فى القرية يعتبرون أن شرب الرجل دهانا افطارا من مفاخر الرجال وغذاء للرجولة.. انهم لايشربونه اذ هو قليل ولكنهم يتفاخرون بان أباءهم وجدودهم كانوا يشربونه اذ هو كثير، ويصلون بينه وبين مواقف الرجولة فى معارك الغارة.. يحفظون رثاء أخ أخاه ممن اعدموا فريا على الخوازيق يقولون انه قال:

ياخسارة كان لى خَىْ وَلَدْ ابويا شقيق..

يتغدا بخروف ويفطر دهان ع الريق

قعد اربعين يوم سادد لوحده طريق..

لحد ما تكسر السيف وخلصت المزاريق

فاضل عدو الله جاب ألف رجاله..

كتروع الجدع حطوه على الخوازيق

تِحْرم علىّ النسا لحد ما آخد تاره..

واشرب من دم فاضل باشا بريق .

ويذكرون مايتذكرونه نقلا عن ذاكريه من أن قد كان الذهب

المشغول الخاص بنساء كل عائلة يحفظ عند «كبيرة العائلة» زوجة كبيرها، في حرز واحد من جلد رقبة الجمل وبطولها، وديعة وكنزا للعائلة جميعا، ولكل عائلة كنزها، ، فرض عليهم الاكتناز أن أرض الجزيرة لم تكن في مذهبهم قابلة البيع او الشراء نقدا ولو كان النقد ذهبا، إنما يقسمونها زراعة وانتفاعا على امتداد الخطوط المفترضة التي تفصل مساكن العائلات ونخلها وارض حياضها ثم عابرة الخور الى ارض الجزيرة ذاتها.

ويقسم كثير من المعاصرين «بالله ثلاثة» على متى وكيف داهم أهل العقال البحرى بيوت النطرة والشيخ جابر وما نقلوه اغتصابا من رقاب الجمال المليئة بالذهب المشغول من بيوت العائلات وحملوه على ظهور الجمال الى بيوتهم، وقد تبالغ الذاكرة في دقتها فتذكر مفردات كل كنز منقول.. ولا عتب على الراوى.

أيا ما كان الحال فقد دك الكفران دكا ونهبت الاموال غصبا ، واعدم كثير من الرجال فريا ، وتشرد من بقى منهم والنساء والصبية والاطفال سنين طويلة الى حيث لايريدون ان يذكروا ولو تذكروا . فلما شملتهم «المراحم الخديوية» ، وعاد من عاد منهم يبنون بيوتا متحاضنة على سفح الجبل زالت بهجتهم وعمتهم الفاقة .

تخلو ذكريات القرية عما بعد العودة من ذكر الجزيرة . لايذكرون ولا ينكرون بل يصمتون كموقفهم من كل حدث يعتبرونه عارا . يتحدث السيد عبد النبى ، وله عذر من شيخوخته ، حديثا

خافتا متقطعا فيقول انهم حين عادوا بعد ست سنوات وجدوا ان الخديوى قد انعم بالجزيرة على لطيف باشا مدير جرجا وقائد يوم الغارة فتغير اسمها من قبالة الدير إلى "انعام لطيف باشا" . وأنه قد أوفد اليها من أقام فى "نزلة همام بك" شخصا تركيا غليظا اسمه محمد أغا شماشرجى لطيف باشا . جمعوا كل ما يملكون واشتروا الجزيرة . ولكن أية جزيرة ؟.. يضيف بعد صمت طويل . لقد غضب النيل من أجل أهل الشيخ جابر وانتقم من لطيف باشا فمازال يقضم كل عام اجزاء من غرب الجزيرة ويلقيها فى تيار الماء الى أن عاد المطرودون فتوقف وقد أبقى لهم أقل من خمس الجزيرة . الجزء الشرقى المرتفع ومافيه من شجيرات قليلة . ولقد عاد الى مابقى أهل الشيخ جابر رجالا ونساء وصبية وهم يدقون الطبول كالفاتحين يحملون "بيرق" الاشراف ، وهناك ذبحوا عجولا وأقاموا ذكرا وبشرهم الامام محمد معتوق بأن الله سيسخر البحر ليعيد لهم باقى الجزيرة كما سخره ليخفيه فى الماء انتقاما من الظالمين .. فاقتسمت العائلات الجزيرة شرائح ممتدة من الشرق الى الغرب على امتداد بيوتهم وغيطانهم القديمة . اقتسموها بالتساوى بين العائلات التى دافعت عن البلد فى الغارة وطردت منها ، مع أن عائلة المشاهرة (أولاد مشهور) قد دفعوا أغلب الثمن . اعترافا لهم بما قدموا كتبوا حجة شراء الجزيرة باسم كبيرهم الشيخ محمد اسماعيل الذى اختاروه شيخا

للمشايخ . عادت الحياة ولم تعد العافية فكفوا عن الحديث عن الجزيرة . غير أن الصمت لن يطول .

تستأنف الجزيرة عودتها الى مذكرات القرية بقوة متصاعدة يرويها جيل جديد لم يشهد الغارة ولكن نقلا عن آباء وأمهات وأعمام وجدود شهدوها وذلك على مدى الاعوام الاولى من القرن الحالى التى انشغلت مصر خلالها بمشروع بناء خزان أسوان . لقد كان من آثاره المبكرة ، المتوقعة ، ثبات أرض "الجزر" على امتداد صعيد الوادى فوق مستوى الفيضان العادى والتحكم فى مياهه فى غير موسم الفيضان على وجه قطع الاتصال بين مجرى النهر وبين كثير من الاخوار التى تفصل بين الجزر فجفت الاخوار وتحولت الى أرض زراعية طوال أشهر التحاريق أو أغلبها .

.فى تلك السنوات أجرى "فك الزمام" . حصر الارض الزراعية والقابلة للزراعة ووضع حدودها بواسطة لجان حكومية قررت فى النهاية أن جزر طرح النهر ، ومن بينها " جزيرة الهمامية" هى "ملك الحكومة" . وأن على من يريد أن ينتفع بأرضها أن يستأجرها من الحكومة بعقد مكتوب مساحة واحدة لمن يعرض أعلى ايجار فى يوم معلوم تجرى فيه المزايدة بين الراغبين بديوان المديرية .

فى اليوم المعلوم لم يتقدم أحد من أهل القرية "للتعامل" مع الحكومة . كانت القرية لا تزال تعيش مرحلة "الخائفين" منذ

الغارة، ولاسباب أخرى .

تقدم عبد الرحمن بك محمود ابن «الباشا» منفردا، أو هكذا قيل، فأجرت له مقابل مائتى قرش عن كل فدان سنويا لمدة أربع سنوات قابلة للتجديد مددا أخرى. لم تطأ قدم أحد من بيت الباشا أرض الجزيرة ولم ترها عينه، ولم تسلم الى مستأجرها، فأناب عبد الرحمن بك عنه شابا من الهمامية شديد الذكاء شديد القسوة اسمه صديق محمود حماد. زكته الادارة اعجابا وجزاء على دور مخادع وجسور فى الايقاع بسند عثمان وعصابته. وقد استطاع ذلك الشاب الذكى أن يشيع حنين أهل القرية إلى «رزقها» القديم بما أتاح لكثير من أهلها من رزق جديد مصدره الجزيرة. فقد استخدم من شبابها ورجالها القادرين القابلين، فى حفر بئر ارتوازية عميقة. ثم فى نقل عشرات من الصناديق التى جاءت اليها محمولة على صنادل عائمة فى النيل، ثم فى إفراغ مافى جوف الصناديق من حدائد منها الغليظ ومنها الدقيق، ثم فى مساعدة «خواجات جاءوا من مصر» وأقاموا حول البئر خياما أقاموا فيها وهم يركبون أجزاء ماحملت الصنادل فاذا هو «بابور» بخارى جسيم يلقمونه حطبا كثيرا وفحما وفيرا فينفث دخانا كثيفا، ويدير عجلات ثقيلة تمتد منها الى قاع البئر سيور طويلة فتدير عجلات أخرى تمتص الماء من جوف الأرض فيخرج الى سطحها دافقا رائقا ليروى ارض الجزيرة. ثم حملوا الطين على رءوسهم وضربوه طوبا، واستجلبوا الحجر من الجبل على ظهور رجالهم ثم على طوفات من البوص عبر الخور ثم على

اكتافهم الى حيث «البابور» فانشأوا حوله سورا عاليا من حجر وطين ومنازل لمن سيقيم .استغرق كل ذلك موسمين حابى فيهما النيل «بيت الباشا » فلم يدرك فيضانه موطىء البناء وإن كان قد اعاقه. وعوض اهله الهمامية أجورا من النقد عن محاصيل الارض فحمدوا الله على كل حال.

فلما أن استقر الوضع وبدأ تدبير استقرارالزرع قال صديق محمود حماد لعبد الرحمن بك محمود حسين قابله فى «السلاملك» ،أن الاصطفاء يستوجب الوفاء. وقد اصطفيتني سعادتك لأكون رجلك وخادمك في قريتي وأن اختار من بينها من يحتاج اليه الزرع. ولكن مع الوفاء اولى بالحق أن يقال. والحق يا باشا أن أهل الهمامية كما يؤمنون بالله يؤمنون بأن أرض الجزيرة أرضهم . فلو زرعوا فيها لانزرعوا فيها ولن نستطيع ان نقلعهم منها . لقد رضوا حتى الآن لانهم يتقاضون اجورا ولكنهم لن يرضوا أن يدفعوا ايجارا . فأرى ، والرأى لسعادتك، أن ننقل الى الهمامية من يحرس الجزيرة مسلحين، ومن يزرعها فلاحين من فائض ما أفاء الله على سعادتك من جزر وأرض وعاملين. وأنا قمين بأن أكون هناك عينك ويدك وحارس الحراس والفلاحين اجمعين. بغير هذا لن نستطيع أن نحتفظ بالجزيرة. اللهم إلا فى حالة واحدة.

سكت صديق. وانتظر الباشا ذكر تلك الحالة الواحدة. فلما طال السكوت، قال : ما هى تلك الحالة ياصديق. أنت تعلم أن اقتراحك غير عملي ومفرط التكاليف .

قال : أعرف ياباشا ، ولكنى أخشى أن أذكر الحل الأخير فتتهم مقاصدى .

قال : قل ولا تخف من الاتهام .

قال : أهل القرية ، وأنا أعرفهم ، يخافون الحكومة ، ولا يخافون أحدا غير الحكومة، بل أنهم يجتنبون التعرض لكل من ينتمى الى الحكومة. ولايزالون يقفون احتراما لكل مايمت الى الحكومة بصلة ولو كان حصانا يمتطيه عسكرى ، وحتى لو لم يكن أحد يمتطيه ..

قال يستعجله : الحل يا صديق .. ماهو الحل .

قال : أن يصبح رجلك وخادمك من الحكومة . أن أعين عمدة . والعمودية شاغرة منذ «استعفى» محمد إسماعيل جودة ، ويقوم بأعبائها نائب شيخ ضعيف .

ضحك عبد الرحمن بك محمود ضحكا عاليا وقورا ثم قال : خلقت المشكلة يا صديق لتصل الى الحل. فليكن. مثل ذكائك يستحق المكافأة. ستكون عمدة الهمامية إن شاء الله. أول عمدة . اصبر فقط وانتظر . وقدم لى دليلا على كفاءتك فى الزراعة من محصول الجزيرة فى العام القادم. ولك أن تستخدم فيها من تشاء ولكن بأجر وليس ايجارا .

أجر أو ايجار فقد اعادت الحكومة وبيت الباشا وصديق محمود حماد، بدون قصد اتصال القرية بالجزيرة بعد انقطاع طويل. فعاد الحديث عنها ماضيا وحاضرا ومستقبلا يشغل قدرا كبيرا متصلا من مذكرات القرية.

ولما كان الحديث دائرا أبدا حول الجزيرة وعلاقتها برزق أهل القرية فقد كان الخلاف فيه خلافا عقائديا حقا . اذ يبين مما ترويه الذكريات وتذكره الروايات أنه كان مثل كل خلاف فى العقائد شديد الاضطراب

والغموض . لا تكاد تبين فيه المواقف الفعلية من المصالح الخفية تحت ركام من المجادلات اللفظية التى توهم، عمدا أو بغير عمد، بأن الخلاف دائر حول الحقيقة المجردة وليس الغايات الشخصية .

فثمة نظرية طاعة أولي الأمر غير المشروطة التى روج لها الامام محمد معتوق ويحتج بها ابنه وخليفته ، يسانده الشيخ شحاته الضرير قارىء القرآن على المقابر. والشيخ عبد الرازق مطهر الاجساد من الجان، وصراف القرية الذى يجمع ضرائب الاطيان. والشيخ مجمود عبد اللطيف نائب العمدة وله فى الترويج لها رأيان ، ولكل رأى وجهان، ثم الذين يعدون أنفسهم لمغادرة الحياة الدنيا ونهرها فى انتظار جزاء الصبر والطاعة فى جنة الرحمن. أولئك جميعا يستنكرون مجرد استنكار أن يفعل أولياء الأمر مايشاءون بالجزيرة فينهون عن ذلك المنكر. وثمة نظرية ملك الله والاستخلاف فى الارض التى روجها فى القرى الشيخ احمد الطيب. أنهم يتذكرون جيدا أن قد قال لأبائهم وجدودهم وقد هموا بالاستيلاء على أراض من قرى أخرى وهم زاحفون تحت قيادته: أن مايفتح الله به عليكم من ارض هو« فيىء » تنتفعون بها زراعة ومزارعة ولكن رقبتها تبقي فى ملك الله الذى استخلف الانسان فيها لتعميرها وحرم ملكيتها.

يضرب لهم مثلا من موقف الصحابة حين فتح الله على المسلمين ارض العراق. أولئك يستنكرون من الحاكمين أن يمتلكوا الارض ولا يزرعونها بل يؤجرونها بمقابل لمن يزرعها كما لو كانوا لها مالكين من دون الله. يستنكرون ملكية ارض الجزيرة وتأجيرها ويبررون ملكيتهم أرض الحياض وتأجيرها بنظرية اولى الامر. فقد فرض اولو الامر نظام

الملكية والتأجير منذ قديم الزمان ولكن الحق أحق أن يتبع. وثمة نظرية تاريخية تستمد من أحداث الغارة ماتحوله الى قاعدة، تحذر الجيل الذى لم يقتل ولم يتشرد من شرور الغرور حتى لا يقتلوا أو يتشردوا كما وقع لآبائهم وجدودهم من قبل نتيجة عصيانهم الحاكمين واستخفافهم بما لإطاقة لهم به من قوة ، ولو كان بتحريض من أولياء الله الصالحين. إن قول الله تعالى أولى بأن يتبع . ولقد قال سبحانه وتعالى : «لايكلف الله نفسا الا وسعها». وقال جل جلاله: «لا تلقوا بأيديكم الى التهلكة» وثمة نظرية «برجماتية» تقول : لقد عادت الينا الجزيرة اذ اتصل بنا رزقها الموفور بعد سنين طويلة فلنحمد الله على ماننتقاضى من أجور ولو قليلة. فيقول من يقول ولماذا وقد عادت الينا الجزيرة يكون رزقنا منها قليلا وهى كلها رزقنا . يعقب آخر فيقول قائلا: كما لو كان رزقنا من جزيرتنا كرزق أولادنا وبناتنا وشبابنا من جمع قطن أهل الغرب. فيقول شيخ حكيم أو رجل يدعى الحكمة : ماهو البديل ، فتختلط الأصوات وتضطرب النظريات ولايكاد احد يعرف مايقول الآخرون. هكذا تقول مذكرات القرية نقلا عمن قالوا ومن يذكرون ماكان يقال .

لا خلاف بين أهل القرية فى أنهم يريدون أو يتمنون أو ينتظرون أن يستردوا رزقهم ، جزيرتهم المرتبطة فى مذكراتهم القديمة بالرخاء والرفاه أيام أن كانت علاقتهم بها بسيطة. علاقة الفلاحين بالارض. انما دب الخلاف بعد أن أصبحت علاقة مركبة متعددة الاطراف . ظهرت الحكومة وظهر بيت الباشا كل يزاحم أهل القرية فى رزقها اذ يحرمهم منه ويتخذه له رزقا. الحكومة تسميه «ملكية» وبيت الباشا يسمونه ايجارا وما اضطربت أراءُ أهل القرية إلا لأن مفهومهم «للحكومة»

ومفهومهم «لبيت الباشا» كانا مضطربين شديدى الاضطراب .

(٣)

يتضح بعد جهد غير يسير فى دراسة وتحليل ماصيغت به ذكريات القرية من ألفاظ وجمل وأساليب تعبير أن أهل القرية لم يكونوا يعرفون ماهى «الحكومة» على وجه التحديد . فالحكومة ، هذا اللفظ العام المجرد لم يكن يعنى عندهم نظامـا عـامـا لادارة شـئـون الناس بما يحـقق مصالحهم طبقا لقواعد عامة معروفة او قابلة للمعرفة. تخلو مذكرات القرية خلوا تاما من حضور «الحكومة» بهذه الدلالة. اذ تخلو خلوا تاما من «حضور الحكومة» إليهم لتطعمهم من جوع او تأمنهم من خوف او تقضى لهم امرا عرض او تشفى منهم انسانا مرض. الحكومة غير موجودة فى قريتهم فهى عندهم ذات دلالة لا غامضة فقط بل موهومة أيضا. الموجود ، المحسوس، الملموس، الثابت الوطيد كالجبل الشرقى ذاته هم «الحكام» اشخاص آدميون يحكمونهم فرادى ومجتمعين. وحين ترد «الحكومة» فى مذكراتهم أو ذكرياتهم ينسبون اليها افعالا لا تنسب إلا إلى أشخاص طبيعيين ، آدميين يعرفونهم بأسمائهم ووظائفهم معرفة المحسوس بالبصر والسمع واللمس. «الحكومة» أخذت الاولاد الى الجهادية يعنى أن الخفراء فلان وفلان والعمدة فلان ابن فلان اخذوا الاولاد الى المركز فى البدارى ليرسلهم المأمور الى الجهادية ومابعد هذا غير معروف. ستحضر الحكومة غدا الى القرية لتحصل الاموال الاميرية يعنى أن الصراف احمد افندى شيخون سيحضر غدا من المركز الى القرية ليحصل الضريبة المفروضة على الاطيان . يحمل فى حقيبته ورقتين لكل ممول. الورقة الاولى محضر حجز على زراعة الممول أو

ماشيته وتعيينه حارسا عليها وتحديد تاريخ لبيعها فى المزاد العلنى للوفاء من ثمنها بما هو مستحق عليه من أموال. فى رأس الورقة تاريخ قديم وفي ذيلها ملحوظة : رفض الحراسة فكلفناه بها وتوقيع الصراف وشيخ القرية. الورقة الثانية محضر تبديد يتضمن حضور الصراف بصحبة شيخ القرية للشروع فى بيع المحجوزات فتبين أنها غير موجودة وأن الحارس بددها فتحرر هذا اثباتا لما تقدم ويحال الى السلطة المختصة لمحاكمته عن جريمة التبديد. ليس لهذه الورقة تاريخ فى رأسها ولا توقيع فى ذيلها. الحكومة تستدعى الممول، فأما السداد بما يترتب عليه من «تقطيع الورقتين» وأما وضع التاريخ والتوقيع على الورقة الثانية (محضر التبديد) واحالته الى المحاكمة حيث الحبس «مضمون» وتدور مساومة بين الحكومة والممول حول مسألة التاريخ. يستأجل فإن قبلت الحكومة اجلت تاريخ التبديد الى يوم متفق عليه واستحقت شكر الممول . والحكومة صادقة بشهادة ذاتها المدونة فى أوراقها . فبالرغم من أن أحمد أفندى شيخون لم يحضر ولم يحجز ولم يعين حارسا فان "الحكومة" قدرت المستحق فى دفتر تسميه الجريدة . وعاينت زراعة الممول وماشيته وحجزت على ما يوفى ثمنه بمستحقاتها وأكثر ضمانا ثم حضرت فاكتشفت جريمة التبديد ، أو لم تكتشفها بعد حسب ما يتم من مساومة حول المفاضلة بين "الحبس أو الدفع" . غير هذا غير معروف . حينما يحضر الشويش عتريس الي القرية راكبا حصانه لجمع رجال مطلوبين لحماية قرية أخرى من مخاطر الفيضان فقد حضرت الحكومة راكبة حصانها ، فوجب أن يقف أهل القرية للحصان وراكبه احتراما للحكومة .

هكذا تعنى كلمة "حكومة" فى مذكرات القرية "صفة" تطلق على أفراد معينين بأشخاصهم مختلفين أسماء وأدوارا ، ولكنهم متميزون عن باقى "خلق الله" بأن لهم ، ولكل واحد منهم "سلطة" الحكومة ، اذن ، فالحكومة وعلى وجه الدقة ، "سلطة" يمارسها متعددون فكل منهم حكومة . ماوراء ذلك غير معروف .

وتبرز بوضوح شديد هذه الدلالة السلبية لكلمة "الحكومة" فى ذكريات القرية من سير ابطالها ، الذين تغنى لهم البنات ويرسل اليهم الرجال أموالا قليلة من قليلة ، ويزعم بعض الشباب أنهم على علاقة بهم، ويحلم كثيرون بأن يكونوا مثلهم ، من أمثال سند عثمان بطل الشراقوة الشهير وخلفائه الاقل شهرة . محور بطولتهم أنهم "تحدوا الحكومة" ، تمردوا على طاعتها ، ورفضوا أوامرها وقاوموها وهزموها مع أن أحدا منهم لم يشعل ثورة ولا شارك فى انقلاب ولا حتى رأى مصر العاصمة . ولكنهم على وجه اليقين تحدوا مأمور وضباط وعساكر وعمد وخفراء مركز البدارى الذين كانوا "يطاردونهم" ويسمونهم "مطاريد" للقبض عليهم فلم يستطيعوا . أولئك الذين لم يستطيعوا هم "الحكومة" التى تحداها سند عثمان ومن جاء بعده . أما غيرهم فغير معروف .

ولما كانت تلك "الحكومة" كما يعرفونها فى القرية أفرادا كثيرين ، يمارس كل واحد منهم سلطته بطريقته فى دائرة عمله ، فان مذكرات القرية تكاد تخلو من أى ادراك واضح للعلاقات بين أولئك الكثيرين المتفردين . تتردد فيها مقارنات من واقع الخبرة - خبرتهم - بالمقدرة على ممارسة السلطة فيدركون ادراكا غامضا أن أولئك الافراد

الحكومات درجات بعضهم أقدر من بعض . هنا تكشف مذكرات القرية عن أغرب مفاهيمها . سلم التدرج الرئاسى عندهم مقلوب . أو ربما معدول . فالاكثر اقتدارا على ممارسة السلطة عليهم الأعلى اعتباراً . يعرفون أن فى البدارى مأمورا وفى أسيوط مديرا . وفى مصر وزيرا ، ولكن الف وزير لا يحركون شعرة من رأس أى قروى . أما الشويش عتريس رئيس نقطة نجوع الجزيرة فهو حاضر بكل سلطته فى وعيهم ولو كان غائبا . يضبط مسالكهم على ما يرضيه إذا ما طلب وتقشعر الابدان خشية غضبه إذا ما غضب . تماما كما لا ينسى الجزار وهو يقسم لحم الجدى يوم السوق ويوزعه بالقرعة بين المشترين ان يضم الى نصيب العمدة نصيبا خارج القرعة . ليس العمدة فى حاجة الى مزيد من اللحم ، ولكنها تذكرة ماضى سحيق لمن شاء ذكره بأن العمدة حكومة ذات سلطة ، والقرعة قاعدة مساواة ، والسلطة تنفى المساواة . لقد حصل العمدة على ما اشترى مقترعا كالآخرين ، اما ما اضيف فهو نصيب السلطة .. حتى الخفير هو حكومة ذو سلطة ولو لم تزد عن تزوير مخالفات صيد العصافير .. ولكل سلطة احترام وتقدير بقدر ماتتماس مع المسلطة عليهم ، فلا يستحق اى وزير من الاحترام او التقدير ما يستحقه أى خفير .

الآن، يقال لهم أن الجزيرة ملك الحكومة . فلا يعرفون من "هو" الحكومة الذى ملك الجزيرة وهى رزقهم . فتبدو المقولة غير معقولة فيضطربون فى تبريرها أو تفسيرها . لا تتعبوا أنفسكم فى جدل لا يفيد . حكومة أو لا حكومة انها "الغارة" عادت من جديد . والخبرة عبرة لكل رشيد. لا ينقذنا من أية حكومة الا من انقذونا من فاضل باشا .

فلنلتمس الضمان والامان من بيت الباشا، الذين ضمن جدهم جدودنا.

فيزداد الموضوع تعقيدا ..

ذلك لأن مفهوم القرية لتعبير "بيت الباشا" ليس أكثر وضوحا من مفهومها للحكومة . فأهل القرية يعرفون أن "بيت الباشا" اشارة الى عائلة عريقة كثيرة العدد يقيم أغلبهم فى موطنهم قرية ساحل سليم التى تبعد عن قريتهم بنحو ثلاثين كيلو مترا شمالا ، ويقيم كثير منهم فى مصر العاصمة اقامة دائمة . ويقال أنهم كلهم متعلمون ، وأن منهم باشوات وبكوات وأفندية . كل هذا لا يعنى شيئا خاصا بالنسبة الى القرية فلا تعنى مذكراتهم به كثيرا . "فبيت الباشا" فى ساحل سليم مثل "بيوت باشا" كثيرة يسمعون عنها فى أبوتيج وفى النخيلة وفى طما وفى طهطا وفى جرجا وبلاد أخرى كثيرة لا يذكرون أسماءها ، ولا يعنون بذكرها كثيرا . ولكنهم يعرفون ويذكرون أن بيت "الباشا" يمتلكون آلاف الافدنة من الارض الزراعية ، ومئات الافدنة من حدائق الفاكهة الغناء المحاطة بأسوار من الاحجار ، اقيمت داخلها سرايات تصل اليها الكهرباء "بسلك مخصوص" من ابوتيج عبر النيل ، وأن الطريق البرى اليها مرصوف من اسيوط حتى ساحل سليم ثم يتوقف عندها إذ لا يوجد جنوبى ساحل سليم على امتداد مركز البدارى بيت باشا آخر . حتى هذا لا يعنيهم كثيرا . فالله يرزق من يشاء بغير حساب . وهكذا تخلو مذكرات القرية خلوا تاما من أى لفظ صريح أو اشارة ضمنية الى معنى من المعانى المرتبطة بالعلاقات الاقطاعية بين ملاك الاراضى والفلاحين . فليس الفلاحون اقنانا ولا تابعين وليس بيت الباشا سادة ولا أصحاب سيادة على غيرهم من الفقراء. إنهم عائلة

مثل كل العائلات وإن كانت أكثر العائلات ثراء . والثراء رزق فلا اعتراض .

ثم أن أهل القرية لا يعرفون من "بيت الباشا" الا عبدالرحمن بك محمود . فمحمود باشا سليمان ليس الا والد عبدالرحمن بك . ومحمد باشا محمود ليس الا أخ عبدالرحمن بك . وكذلك حفني . أما أولاد صالح ، عبدالمجيد وعبدالحميد وخليل فهم أولاد عم عبدالرحمن بك ليس الا . وإذ يتجسد "بيت الباشا" في عبدالرحمن بك محمود ، فانهم ينسبون الى "بيت الباشا" ما يعرفونه عن عبدالرحمن بك .. وهم لا يعرفون عنه الا كل ماهو فاضل ونبيل فيجلونه في مذكراتهم اجلالا كبيرا حين يذكرونه وهم يذكرونه كثيرا .

عبدالرحمن بك محمود رجل فارع الطول ، أبيض البشرة لا يحمل من مميزات بيت الباشا الا الشفاه الغليظة . يقيم اقامة دائمة في دواره في حديقته الشاسعة الواقعة غربي ترعة قاو . يلبس ملابس الميسورين من أعيان الريف. العمامة والكاكولة والقفطان الشاهي ذا الحزام الحريري ، ويمسك عصاة من الابنوس الاسود ذات مقبض أبيض على شكل "فيل بزلومة" . فهو فيما بين أعيان البداري لا يتميز مظهرا ولكنه يمتاز مخبرا . فهو يعرف أغلب الناس في ثلاثة مراكز من مديرية أسيوط . البداري وأبوتيج وصدفا . يعرفهم معرفة شخصية. لا يعرف أحد كيف تيسر له هذا ولكن مذكرات القرية تنسبه الى فرط محبة الناس. باب دواره مفتوح لكل من يريد . يستقبل الزائرين في "السلاملك" المعد لاستقبال عشرات . تقودهم اليه مجموعة من الكتبة والاتباع ، الحافظين الاسماء العارفين الاحوال ، عبر ممرات طويلة بين أشجار البرتقال . يستقبلهم في مضيفة مجاورة وكيل الدائرة ثم

يصحبهم فرادى أو جماعات فى ترتيب يختاره الى السلاملك . ما أن يدخل زائر أو زائرون حتى يقف عبدالرحمن بك محمود ويتقدم خطوة أو خطوات . يصافح كلا منهم . يناديه باسمه . لا يفلت يده الا بعد أن يسأله بتعاطف رقيق كأنه صديق ، عن حاله وعائلته وزراعته وما بلغه من حادث وقع له قريب . ثم يدعوه الى أن "يتفضل" بالجلوس على أقرب مقعد شاغر من مقعده . يكرر هذا مع الاخرين بينما لا يكف الخدم عن تقديم الشاى الى الوافدين . التدخين فقط ممنوع بأمر الاطباء المشرفين على صحة عبدالرحمن بك . ليس ثمة أية فرصة في مجلس عبدالرحمن بك لاى إنسان ولو كان من الاعيان فى أن يحظى بترحيب أكثر حرارة أو أن يسبق غيره الى مقعد أقرب الى جواره . إذا تحدث زائر فكل عبدالرحمن بك أذان صاغية . لا يقاطع المتحدث أحد فى مجلس عبدالرحمن بك أيا كان مضمون الحديث الا عبدالرحمن بك باستفسار، يتحول الحديث به الى حوار يدعو عبدالرحمن بك الى المشاركة فيه من يختار . حين يحين موعد الغداء يفتح الخدم الكثير أبوابا جانبية كثيرة تؤدى الى مائدة عامرة يدعو اليها الزائرين ، وهنالك يتعرف الزائرون على نعيم الثراء حين يعم . من حين الى حين يأكل معهم بيديه مثلهم حتى يجنبهم حيرة اختيار أدوات الطعام المناسبة . ولكنه لا يأكل كثيرا.. يستأذنهم فى الانسحاب بأدب شديد معتذرا بأوامر الطبيب . ويتركهم وما يأكلون . لا يرونه بعد ذلك مجتمعين . فاذ ينسحب عبدالرحمن بك تاركا ضيوفه "على راحتهم "يأوى الى غرفة يصحبه فيها حفظة الاسماء وعارفو الاحوال ووكيل الدائرة فيعرف منهم أصحاب "المصالح" وافكارا مجملة عنها . بعد الغداء والشاى والسجائر لمن

يدخنون ، يستدعي وكيل الدائرة كل صاحب مصلحة وحده أو كل اصحاب مصلحة واحدة الى مقابلته . هنالك يطلبون منه ان يقضى لهم من المصالح ما يشاءون ولو كان محالا فلا يجادلهم فيه بل يأمر أحد الكتبة بان "يأخذ" مذكرة بالموضوع ، ويكلف آخر بأن يتذكر أن يذكروه به ، ثم يسأل الطالبين ان كان ثمة "خدمة" أخرى يسعده أن يؤديها فيتقبل الشكر والدعاء. يقف مصافحا مودعا حتى باب المكتب . تتكرر تلك الطقوس مع كل من لديه حاجة يريد أن تقضى ثم ينصرفون .

تتنوع المصالح وتختلف المطالب التي وعد عبدالرحمن بك بتحقيقها ولكنها تنطوى جميعها علي مطلب مشترك : الانصاف . من ظلم واقع أو موهوم. فوراء كل مطلب شكوى من ضياع مصلحة مادية أو أدبية صحت الشكوى أو لم تصح . والمشكو واحد دائما . انه "الحكومة" كما يعرفونها : عمدة أو ضابط أو مأمور أو صراف أو شويش . وهم يلجأون الى "بيت الباشا" متجسدا فى عبدالرحمن بك لانهم يعتقدون أن "بيت الباشا" هم الذين يتحكمون فى أداء هذه "الحكومة" التى لا يعرفون غيرها . وإذ لا يجادلهم عبدالرحمن بك فى صحة ما يشكون منه أو فيما يطلبون ، ثم يعد بالتحقيق فى الشكوى وتحقيق المطالب ، يؤكد يوما بعد يوم صحة اعتقادهم بأن "بيت الباشا" حاكمون فوق الحاكمين . عبدالرحمن محمود لا يفى بكل ما وعد به ولكنه يفى بكثير منه ويسعى في ذلك جادا ولو استعان برءوس الاسرة فى القاهرة أو فروعها فى المديرية . ذلك لانه يعلم وهم يعلمون أن أحدا منهم لن يدخل مجلس شورى القوانين ، أو الجمعية التشريعية او مجلس المديرية، ممثلا للبدارى او ابو تيج او صدفا إلا إذا رشحه للناس عبد الرحمن

محمود. وهو يرشحهم فينجحون ، لا اصطفاء ولا شراء ولا رياء. ولكن رضاء من قوم يعتقدون أن «بيت الباشا» حاكمون فوق الحاكمين. فلا بد لبقاء العقيدة من الوفاء بما يطلبون. وهكذا يجد أهل القرية فى «بيت الباشا» ملاذا لهم من ظلم الحكومة، وإذ يلوذون به يجدون مالا يوجد فى «أى حكومة» المساواة فى الاهتمام والاحترام والاكرام. يجدونه فيمن يعرفونه من «بيت الباشا» أو فى «بيت الباشا» كما يعرفونه فيه ، عبد الرحمن بك محمود، فحمدوه وشاع حمده فى مذكراتهم .

الآن يقال لهم أن عبد الرحمن بك محمود ، وليس احد غيره ، هو الذى يزاحمهم فى رزقهم إذ ا استحوذ على جزيرتهم ويريد لهم أن يخدموا فيها اجراء وهم اصحابها. فهم هذه العلاقة الجديدة أو تفسيرها أو تبريرها يقتضى هدم تمثال «بيت الباشا» الذى نحتته سنوات طويلة فى رءوسهم على صورة عبد الرحمن محمود. والرءوس اكثر صلابة من أن تشق ليهدم فيها تمثال المساواة فى الاهتمام والاحترام والاكرام الذى أجلوه خبرة ولا يريدون أن يفقدوه طفرة .

فازدادت المشكلة تعقيدا والآراء اضطرابا .

وهكذا كان يكفى من يريد أن يقطع الصمت الرهيب الذى كثيرا مايرين على الجالسين على المصاطب ان يسأل شيخا منهم عن ماضى الجزيرة او حاضرها أو مستقبلها، حتى يستيقظ النيام، وينتبه الغافلون، ويشارك القعود والقيام فى تلاوة مذكرات القرية والجزيرة منذ قديم الزمان . تختلط الاصوات وتختلف الروايات ، تبعا للانتماء القبلى

الي العائلات أو تبعا للمصالح والغايات. لقد أصبحت سيرة الجزيرة قصتهم الاثيرة لا تزاحمها حتى سيرة بنى هلال ..

(٤)

قال عزيز حسين :

في ذلك الوقت كان عبد الرحمن بك محمود قد استأجر الجزيرة وشاع الخبر. ولم يكن أحد يعرف كيف سيستلمها وكيف سيديرها بعد أن تنزل مياه النهر. كثر اللغط والخلاف بين الناس في البلد . قال الشيخ احمد معتوق أنه لا ينقذ البلد من ضياع الجزيرة إلا من أنقذ جدهم جدودنا من التشرد. فاجتمع رؤساء العائلات وذهبوا، وعلى رأسهم الشيخ محمد اسماعيل، الى ساحل سليم ليتفاهموا مع عبد الرحمن بك لعله أن يقبل الاستغناء عن الجزيرة وتركها لأهل البلد. قابلهم الرجل مقابلة حسنة واستمع اليهم ووعدهم بأن يفكر في الأمر. دخل عليهم صديق حين سمع آخر الكلام. كان مختبئا في بيت الباشا. فلما سمع قول عبد الرحمن بك أنه سيفكر في الأمر دخل وقال وهو واقف بجرأة . أى أمر ستفكر فيه يا باشا . هذه أمور صغيرة لا تشغل بال سعادتك بالتفكير فيها. انتم سادة الارض والناس. ندخركم للمسائل الكبيرة. وقد كان اولى ببلدياتى الحاضرين أن يلجأوا الىّ ليتفاهموا معى اذ أنا الوكيل والمدير. تبادلوا النظرات. ضحك عبد الرحمن بك وقال للشيخ محمد تفاهموا مع صديق يا شيخ محمد . قال الشيخ محمد ماهو مفهوم لا يحتاج الى تفاهم يا باشا. وانصرفوا إلا صديق .

فى طريق عودتهم قابل الشيخ محمد مأمور المركز . كنت أنتظره فكنت معه. قدم استقالته من منصبه . قال له المأمور هكذا بدون اسباب ياعمدة . قال ليس من المناسب ذكر الاسباب فى ورقة رسمية. قال المأمور قل لى اذن لأعرف بصفة شخصية . قال لقد تعرضنا لاهانة لا نستحقها فى سلاملك عبد الرحمن بك محمود. قال المأمور مندهشا، كيف هذا إن عبد الرحمن بك لا يهين احدا يا شيخ محمد . قال الشيخ محمد عليه رحمة الله ولكنه لم يمنع كلبه من أن ينهشنا . قال : من . قال : صديق ..

شاع ماحدث فى القرية فتحدث به الناس وتجادلوا كثيرا فى كيف يردون الاهانة وترددت فكرة استرداد الجزيرة تحت ضغط الشعور بوحدة الاعتبار ووحدة العار. ولكنه تردد بقى مستورا فلم يعد مذكورا. تلاشى فى ظلام الستر .

(٥)

بعد استعفاء المرحوم الشيخ محمد اسماعيل كان عدد سكان القرية قد زاد فاستحقت أن تتحول «مشيخة المشايخ» إلى عمدية . اختارت الحكومة الشيخ محمود عبداللطيف ، شيخ عائلة "أولاد عيسى" ليكون "نائب عمدة" . وأصبحت أنا وكيل شيخ الخفراء . اختارته لانه أكبر المشايخ سنا . الشيخ محمود عبداللطيف رجل طيب ولكنه ضعيف . يكفى أن تعرف أنه لم يمارس سلطته كقاض لا قبل انشاء محاكم الخط ولا بعده ، كان يفضل التراضى والتوفيق ولو بين المتناقضات فإذا لم يستطع لا يحسم الامر بل يمرض ويعتكف فى داره ويبقى مريضا، معتكفا حتى تحل المشكلة أو تتفاقم . أصبحت القرية فعليا بغير عمدة .

فظهر الخلاف وتفاقم بين المشايخ وعجز كل شيخ عن أن يحقق ارادة عائلته ، فتولى كبير كل بيت من عائلة الدور الذى كان يقوم به الشيخ كحكم في الخلاف بين الاسر . وشاع اختلاف كبار البيوت فاستقل كبير كل اسرة بالتعبير عنها . ولم تلبث الاسر نفسها ، كثير من الاسر ، أن شاع الخلاف بين أفرادها . فاضطربت الحياة فيها اضطرابا شديدا بسبب الجزيرة وصديق محمود حماد .

فقد اتخذ صديق من العمل فى الجزيرة كمورد للاجور وسيلة للسيطرة على كثير من شباب القرية ورجالها . فاضت الاجور في ايديهم فجنح الشباب الى الاستئثار بأجورهم دون اسرهم وجنح الرجال الى الاستقلال بأموالهم عن زوجاتهم ، فجنحت العرائس الي الحرص علي مهورهن لانفسهن فلا يبعن "صيغتهن" من الذهب والفضة لشراء بقر كما كن يفعلن من قبل ، فاختفت البقرة كأساس لبناء بيت الزوجية ، فاختفي اللبن والجبن والدهان ، فأصبح على كل زوج ينشيء أسرة أن ينفق من "جيبه" نقدا علي بيته ولو اشترى "القيضى" من السوق. فارتفع ثمن "القيضى" فباعه كثيرون من غير المأجورين ففرغت قبل الأوان الصوامع والحواصل من المصدر الاساسى للغذاء ، فتهافت شباب ورجال وكهول آخرون على طلب العمل في الجزيرة مقابل أجور مضمونة فانخفضت الاجور ، فتنافسوا طلبا للعمل فأصبح منهم العاملون والعاطلون يتبادلون مواقع الشبع والجوع تبعا لاختيار صديق محمود حماد ، وقد أصبح له من كل أجر نصيب مدفوع . ولما كان كل ذلك نقضا لاركان "البيت" فقد كان حديث النساء فجر كل يوم فى اجتماع الموردة . فبدأ خراب البيوت حين بدأ رفض الزوجات مسئولية

إدارة بيوت فارغة من القوت ، فعرفت القرية "الغضب" الطويل الذى ينتهى غالبا بالطلاق. هكذا سقطت القرية رجالا ونساء فى جوف دوامة من الشقاء لا يعرفون منفذا منها الا استرداد الجزيرة ولكنهم لا يعرفون كيف يستردونها فيختلفون في هذا اختلافا ممزقا .

(٦)

وقد أصبحنا نحن الخفراء أكثر حرية في الاختلاط بالناس والمشاركة في مجالسهم والمساهمة في الحديث عن مشكلات الحياة التى يعانونها ونعانيها معهم . وكنا ، بفضل ما تعلمنا أثناء التدريب ، نعرف أن هناك قانونا وانه يساوى بين المواطنين . كما كنا نعرف أن طرح النهر يصبح ملكا لمن التصق بأرضهم وان اغتصاب الارض من مالكها جريمة . وكنا حينئذ "نذاكر" الدروس لنحفظها ونستعين على حفظها بما كنا نحفظه من الجزيرة وتاريخها منذ الغارة، ولكننا لا نتحدث به . استرجعنا كل ما تعلمناه . وخضنا به ، وبمثله ، فى الجدل القائم حول وسيلة استرداد الجزيرة . وكان أقصى ما بحنا به من رأى قربا الى ماكنا نفكر فيه ولا نجرؤ على الحديث عنه هو أن من يسترد ما اغتصب منه لا يرتكب جريمة . بدأت تتكون فى القرية شبكة من الجيل الجديد يعجبهم ما نقول وينقلون عنا ماقلنا الى غيرهم فى مركز تجمعهم "تاية" سطوحى عبدالمنعم عند الصليبية . ولكنهم يتوقفون حيث وقفنا نحن فلا يعرفون وسيلة واضحة محددة لاسترداد الجزيرة . ويسألنا بعضهم مستنكرا ، ألستم أنتم الحكومة ومعكم العمدة ، وحتى لو كان معكم رئيس النقطة ومأمور المركز فلماذا لا تردون الجزيرة الى أصحابها . لا نرد ..

(٧)

ثم عاد الشيخ عباس ولد محمد اسماعيل من مصر وبدأ يتحدث في "منضرته" الى من يحضر أحاديث غريبة في جرأتها عن الملوك والامراء والباشوات والبكوات ، وعن الانبياء والصحابة ، وعن الاغنياء والفقراء وعن "الحكومة والرعية" . يقرأ الجرائد ويحرض الناس على أن يأخذوا حقوقهم بأيديهم وأن يقاوموا الظلم ويروى لهم قصة الشيخ جمال الدين. قال لهم مرة الظالم مأواه جهنم ومعه المظلوم إذا رضى بالظلم . هذا في القرآن . وقرأ أية لا أذكرها . هل تتذكرها ياإمام ؟ قال محمد أحمد معتوق ولد الامام وخليفته ، أتذكرها ولو أنى كنت صغيرا حين سمعتها وأعرفها . إنها قوله تعالى : "الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيما كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها أولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا" . صدق الله العظيم .

قال عزيز حسين : تمام . هذه هى الآية التى قرأها الشيخ عباس فى منضرته . لا أنسى حكايتها . فقد جمعنا الشيخ محمود عبداللطيف يومها وحرم علينا الذهاب الى منضرته . قال لنا ان ابن عمته عباس ولد محمد اسماعيل "ثورجى" وربما يكون الخديوى عباس قد أرسله ليحدث فتنة فى البلاد وأمرنا بأن نتحاشاه فتحاشيناه. قامت الحرب وبدأت السلطة "تأخذ الانفار" تصدى الشيخ عباس لحماية البلد من السلطة فأعجب به الشيخ محمود نائب العمدة سرا وقال لنا ان الخديوى عباس الذى كان يعرفه الشيخ عباس قد طرده الانجليز فلا مانع من أن تحضروا مجالسه وتتحدثوا اليه وعنه فيما هو مشغول به من فعل

وحديث. فكنا نذهب مع الذاهبين . وفوجئنا بأن مسألة الجزيرة واغتصابها واستردادها لم تكن خاطرة علي باله . لم ينشغل بها فلم يتحدث عنها قط ولم يتحدث الناس عنها فى مجلسه . كان الناس قد اعتادوا الاستماع اليه ولا يسألونه حديثا .

مع ذلك .

فمن خلال ماكان يقول ويعيد ويزيد عرف الناس في القرية أن ليس أحد من الخفراء أو العمد أو العساكر أو الضباط أو المأمورين أو حتى المديرين ، حكومة . ولا هم كلهم بعضهم مع البعض الآخر ، حكومة ، وانما هم خدم الحكومة في مقابل أجور . أما الحكومة فهى مجموعة قليلة من الباشوات المقيمين في مصر يسمونهم وزراء . هؤلاء الوزراء أنفسهم ليسوا إلا خدما اذلاء للانجليز كشف لهم الصنم ثم حطمه حين كشف حقيقة الحكومة ثم حطم هيبتها . واضحكهم حين قال لهم أن جد السلطان كان بائع دخان مثل محمود أبو الحسن. ثم أنه كان يقرأ على الناس أخبار الحرب فى الجريدة، وكلما قرأ خبرا عن القتال فى دولة يقول للناس أن الوزراء لا يقاتلون ولا يموتون من أجل حماية الأرض أو العرض. الذين يقاتلون ويموتون هم الناس مثلكم . وهم يقاتلون ويموتون من أجل الدفاع عن أرضهم وأعراضهم واولادهم واموالهم . وهذا مايفعله الانجليز فى كل بلد يدخلوها لولا أن يقاتلهم

رجالها أن كانوا رجالا حقا. بمثل هذا الكلام كان يتحدث الشيخ عباس يوما بعد يوم وشهرا بعد شهر والناس يستمعون ولا يتحدثون فى مجلسه ، ولكن خارجه يتحدثون وينقلون ماحدث الى من لم يسمع الحديث حتى النساء فى البيوت . ويصلون بين مايتحدثون عنه وبين استرداد الجزيرة فتتجه أفكارهم الى التقارب يوما بعد يوم وشهرا بعد شهر .

لم تزدهم الحرب فقرا على فقر، ولكنها زادت من شعورهم بالفقر حين تجاوزت آثارها الاقتصادية حدود الحاجات المادية الأساسية فأشاعت الإضطراب فى علائقهم الاجتماعية المستقرة فتمردت النساء وخربت البيوت. كان لابد لهم من موارد مالية ليعود إليها الاستقرار فتطلعوا إلى الجزيرة التى خرجت من أحلامهم. اختلفوا أولا فى جدوى ذلك التطلع الذى يناقض واقع خوفهم المزمن من الحكومة، وقد عرفوا أن الحكومة سلطة عليا عليها سلطان هو خليفة الخديوى وليست أفرادا ذوى سلطة ممن كانوا يحسبون. يناقض الولاء الأدبى الموروث لبيت الباشا كما يعرفونه فى عبدالرحمن بك محمود، يناقض الموروث الفقهى الذى كان يردده أمامهم عن طاعة أولى الأمر. فما زالوا مختلفين. اختفت الحكومة فجأة بقيام الثورة. واختفت هيبة بيت الباشا منذ أن قبض على محمد محمود باشا وحبس كما يحبس غيره من الناس فتلاشى الخلاف حول جدوى التطلع إلى استرداد الجزيرة وحلت محله إرادة موحدة على استردادها.

مع ذلك بقي الخلاف قائما حول وسيلة استردادها، لايع
كثير من أهل القرية كيف تسترد الجزيرة، وعند كثير غيرهم
تكون القوة هي الوسيلة الوحيدة. وكلهم بشر جاهلون أو خائ
وهما فريقان من الناس لايعترفون على أنفسهم بما هم ع
فتراهم جميعا نزاعين إلى الإبقاء على الخلاف واللجاجة فيه إ
المجهول أو المعلوم. من يجهل يتعلم من خلال الحوار، أما الذ
فلا يزايله خوفه إلا في جوف كثرة وحدها المصير، وقد تو
الكثرة تدريجيا مصاحبة الحرب التي لا يعلم أهل القرية أسب
إنما أثرت في الكثرة فوفرت ظرف الوحدة خلال معايشة
القرية يوما بعد يوم لمدة سنين أخبار القتل والقتال وال
العنيف. ثم ما أن انتهت الحرب حتى جاءت أخبار الثورة،
الثورة مصدر للفخار إذ قوتها الضارية في الأرض من الفلا
مثل أهل الهمامية. كل هذا أذاب في أفئدتهم إنكار العنا
استنكاره بل نزع بهم شوق إلى ممارسته كشوق المريض
الاستمتاع بالصحة إذا ماتم الشفاء. وكان شفاؤهم من الد
متوقفا على أن يتوفر لهم من السلاح ماتصل إليهم أخبار
يوم.

وقد حصلوا عليه من حيث لم يحتسبوا.

كيف؟

اسأل نعمان ولد الشيخ عمار زيدان فعنده الجواب.

(٨)

قال نعمان:

كان والدى، عليه رحمة الله، يكره صديق محمود حماد لسبب أصيل يكتمه إلا عنى إذ أنا أكبر أبنائه، حين استقال المرحوم الشيخ محمد إسماعيل، اختارت الحكومة الشيخ محمود عبداللطيف ليخلفه كنائب عمدة إلى أن يولى على القرية عمدة يرشحه المشايخ. اختارته لأنه أكبر المشايخ سنا. لم يكن والدى يرى أن ثمة علاقة تفضيل بين السن وتولى المنصب. كان يرى أن أولى بالفضل أن يكون لشيخ أكبر العائلات مالا وأكثرها رجالا، فكان، يرى أنه أحق بالعمدية من غيره. ثم أنه هو وحده الشيخ الذى يقرأ ويكتب ويحفظ القرآن. مع ذلك، لم يكره الشيخ محمود عبداللطيف. ربما لأنه لم يسع إلى المنصب الذى اختير له، وربما لأن عائلتنا وعائلته من جدين أخين شقيقين وأن كانا أخين غير شقيقين لباقى الجدود، والراجح إن والدى قد رأى «نائب العمدة» شاغلا منصب العمدية مؤقتا إلى أن يعين للقرية عمدة أصيل. لن يكون حينئذ غيره لولا صديق محمود حماد.

علاقته ببيت الباشا الذين يختارون العمد فى كل قرى المركز، وكالته عن بيت الباشا وكالة رسمية، إدارته مزارع بيت الباشا فى الجزيرة، كل ذلك يجعل لصديق عليه درجة، فيضعه منه موضع الغريم الأصيل فهو يكرهه ويخشاه معا، لكنه يكتم كبرياء

ولايتحدث به حياء إلا حين ينفرد بولده الكبير، فكأنه يشكو إليه.

إلى أن جاء يوم.

فوجئت وأنا جالس مع والدى منفردين في منضرتنا بأن دخل إلينا صديق. السلام عليكم.. رددنا السلام واقفين. صافح والدى فرحب به ودعاه إلى الجلوس بجواره. جلس. هممت بأن أنصرف فإذا بصديق هو الذى يستوقفنى ويدعونى إلى البقاء. التمست رأى والدى بنظرة فأذن لى بإيماءة. فسمعت حديثا عجبا.

قهوة؟

بعد العتاب ياشيخ عمار فقد جئت عاتبا ومعاتبا..

خير إن شاء الله؟..

قال صديق: ياشيخ عمار أنت من أعيان بلدنا المرموقين، ثم أن عائلتك أكبر العائلات فى القرية، ولايخفى علىّ ولا عليك أننى أنتمى إلى بيت قليل الرجال.، فلا يخفى على حكمتك أننى وقد اخترت زوجتى من أكبر عائلات قاو الكبيرة، قد قُبلت لأن أهلها يعرفون أن عائلتكم قد قبلت منذ قديم الزمان تزويج ابنتهم بهية لجدى حماد، وأننا منذئذ نعتبر فرعا من عائلتكم، ولقد دعوت عائلتكم فى شخصكم الكريم لحضور فرح زفافى لتشرفونا وترفعوا رءوسنا أمام عائلة أصهارى الذين حضروا جميعا وكانوا يتوقعون حضوركم، فلماذا قاطعتم الفرح ياشيخ عمار، لا أهمية

عندى لمن لم يحضر من العائلات الأخرى، ولكن عدم حضوركم أنتم أصهارنا منذ الجدود قد أخل بصورتى فى أعين أصهارى الجدد، فما الذى حدث منى يبرر مقاطعتكم فرحي..

قال والدي: يا صديق حدث مالم يحدث..

ماهو؟

لم توجه دعوتك إلا إلى عائلتنا وأولاد عيسى فلم نحضر لا نحن ولا هم، لأنك ياصديق لم توجهها إلى باقى العائلات كما هو متبع فى بلدنا. إن كانت بقية العائلات غير ذات أهمية عندك فهذا شأنك، ولكن المساواة فى التعامل مع العائلات وخاصة فى المجاملات ذات أهمية كبرى بالنسبة لكل العائلات. وقد تحدثت مع الشيخ محمود عبداللطيف عن دعوتك الغريبة واتفقنا على أن حضورنا سيكون موافقة منا على بدعة تفضيل عائلة على عائلة التى ابتدعتها، ولقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن كل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار، فلم نحضر لا نحن ولا هم. إن الله لايستحى من الحق.

وجم صديق. فخفف والدي من حدة كلامه وقال باسما: على أى حال مبروك «وعقبال ماتفرح بجواز أولادك». ومد يده مباركا فتصافحا.

قال صديق: الله يبارك فيك و«عقبال أولادك». إنما فقط أريد أن تعرف أنت بالذات أنها ليست غلطتى. إنها غلطة على حامد ولد

عمى الذى عهدت إليه بتوجيه الدعوات إلى كل العائلات.

حصل خير.

لايكون خيرا إلا إذا سامحتنى والمسامح كريم.

وأنت تكرم فى دارنا ياصديق.

هناك أمر آخر أرجو أن يكون عنوان إكرامك لى ألا ترد رجائى فيه.

تفضل..

منذ أن صاهرت أكبر عائلات قاو الكبيرة لاحظت أن قد كثرت السرقات من زراعة القمح، يسرقونه أخضرا ليأكلوه فريكا، ويسرقونه ناضجا قبل أن يحصد. ويسرقونه من الأجران قبل أن يدرس.. ويسرقونه حبا بعد الدراسة.. ويسرقون التبن بعد نقل الحبوب. كما لاحظت أنها كلها سرقات «حسنة» كما نقول، ناس جوعانة تسرق لتأكل ومايسرقون إلا قليلا، لكنها على أى حال سرقة وقد تحريت الأمر فعرفت أن فقراء العائلة الكبيرة التى زوجتنى بنتها عددها كبير. وأن كثيرا منهم يظنون أننى لو أمسكت أحدهم وهو يسرق فسيشفع له عندى أصهارى. فاجترأوا على الزرع ثم تجاوزت جرأتهم حدها فأصبحت استهتارا. والاستهتار باب مفتوح للعدوان. ولما كان الحارسان القادمان من ساحل سليم مشغولين بما كلفا به حصرا وهو حراسة الوابور

والماشية، ولست أريد أن يعرفوا مدى فداحة السرقات حتى لاتنتقل أخبارها إلى بيت الباشا فتنتقص عندهم مما يعتقدون فيّ من هيبة، فإنى فى حاجة إلى «شاب جدع» يتولى حراسة الطرف الجنوبى من الجزيرة، ويختار من يساعده واحدا أو اثنين، سأوفر له ولمن يختار المأوى والسلاح وأجرا مجزيا، ثلاثة جنيهات كل شهر على مدار السنة وجنيهين لكل واحد من مساعديه. على أن يقيموا جميعا فى الجزيرة إقامة دائمة.

ولقد استخرت الله فاخترت أجدع أولاد بلدنا، ولدك نعمان، فأرجو موافقتك إذ جئت إليك مستجيرا من الجيران. وضحك.

قال والدى: سأرد عليك غدا، ومافيه الخير يعمله الله.

قال : مارأيك؟

قلت : لا أقبل أن أكون أجيرا عند رجل تكرهه.

قال: بل تقبل. أنني أكرهه وهو غير صادق فهو غير أمين. لا حاجة بصديق إليك فلست أفضل من كثيرين يتمنون ماهو معروض عليك. إنه يريد أن «يربط» نفسه بعائلتنا وبى عن طريقك، كما ربط نفسه بأكبر عائلات قاو عن طريق الزواج بعانس شمطاء. إنه يعد من الآن مسوغات تعيينه عمدة ومن بينها صلاته الاجتماعية بالعائلات. ومع ذلك تقبل. بل تقترب منه أو تلتحم. لأنك حينئذ ستعرف كيف يفكر وماذا يدبر وتحيط بأسرار علاقته المريبة ببيت الباشا، وقد يكون كل هذا مفيدا فى يوم لا نعرف متى

يجىء. وما نعرفه اليوم هو أنك لاتستطيع أن تنقل «تليس القيضى» من مكانها إلا إذا احتضنتها ورفعتها منه ولاتستطيع أن تنحر الذبيحة وأنت بعيدا عنها. ثم أنه منذ أن قامت الحرب وارتفعت أسعار كل شىء اختلت الأمور وأصبحنا نبيع قدرا من المحصول بدلا من إدخاره للغذاء. وأصبحت الزوجات يحتفظن بالمهور ذهبا وفضة: فما ستقبضه أجرا سيعجل بزواجك إن شاء الله، وهو بعد أكثر من مرتب وكيل شيخ الخفراء، تقبل إذن، وتحذر وعلى بركة الله..

هذا ما أتذكر مما ذكر، ذلك لأنه قال كلاما كثيرا تلقيته بعيون مفتوحة وآذان مغلقة بحلم اقتناء سلاح منذ أن ذكر صديق السلاح ومنذ أن قال والدى: إقبل.

انتقلت إلى الجزيرة ورابطت فى مربض فى جنوبها، لحق بى ولدا عمى الزهرى عبدالله وأخوه محمد عبدالله، ثم فكرى عبدالنبى بعد مقتل محمد ظرظور، لم يمدنا صديق بسلاح إلا بعد أن انضم إلينا فكرى عبدالنبى. كان ذلك بعد زراعة القمح عام الفيضان الذى أغرق القيضى، أمدنا صديق بأربعة بنادق رمنجتون وذخائرها. عرفنا أنه اشتراها من فكرى عبدالنبى.

ثم كثر السلاح..

فقد كانت الجزيرة طوال سنوات الحرب تزرع قمحا. يعبأ القمح فى أكياس يسع كل منها أردبا، ويجمع التبن فى «بالات»

ضخمة مغطاة بالخيش ومحزمة بالحبال. فى وقت معلوم تحضر فى البحر صنادل تجرها غلايين، تحمل القمح والتبن وتتجه شمالا، يحرس كل صندل منها أربعة جنود وضابط من الانجليز، استمر هذا سنة وراء سنة إلى أن قالوا انتهت الحرب. بعد أن قالوا بشهر جاء خبر هز المركز كله ولم يكن من الممكن أن نصدقه لولا أن بيت الباشا كلهم، كبيرهم وصغيرهم، وصديق، وخفراء الوابور قد غادروا الجزيرة وساحل سليم إلى مصر. فقد قيل أن الإنجليز قبضوا على محمد باشا محمود ورحلوه إلى بلد بعيدة تدعى مالطة وحبسوه هناك. فكرى عبدالنبى أكبرنا سنا تولى الرياسة فى الجزيرة وباشرنا الزراعة بعد أن استأجرنا «أسطى» من طما لتشغيل الوابور. فلما اقترب الحصاد احترنا فيما نفعل بالقمح والتبن، إذ لم يكن من المتوقع أن الانجليز الذين قبضوا على محمد باشا وحبسوه سيعودون إلى شراء القمح والتبن من أخيه عبدالرحمن بك كما كانوا يفعلون من قبل.

قال فكرى عبدالنبى ، ننتظر ونرى.. انتظرنا.

باع فكرى عبدالنبى من المواشى فى سوق طما ما وفر أجور العاملين فى الحصاد والدراسة والأكياس والتعبئة، لم نقبض نحن أجورنا، قال ننتظر ونرى.. انتظرنا.

فى موعد كل عام جاءت الصنادل وحراسها الانجليز. لم نعرف ماذا نفعل وصديق غير موجود. قال لنا ريس الصندل أن الانجليز

يقولون أن وكيل دائرة بيت الباشا منتظر وصول الغلال والتبن فى أسيوط، قلنا نذهب معهم إلى أسيوط لنتأكد مما يقولون. قالوا واحدا فقط. قال فكرى عبدالنبى أذهب أنت معهم وستجدنى قد سبقتكم بالقطار. فقابلنى فى المحطة، ذهبت بدون سلاح. فقد كانت تعليمات صديق أن نخفى السلاح كلما حضر الانجليز، وصلنا إلى أسيوط بعد المغرب. رسونا قبلى «الحَمَرَة». غادرنا الانجليز على أن يعودوا إلينا فى الصباح، قبل أن تمضى ساعة، أى قبل صلاة العشاء، تحول الليل فى أسيوط إلى نهار، حريق فظيع امتدت ألسنة لهبه إلى السماء فأنارت الأرض والسماء، قلت أذهب لأستطلع الخبر. ما أن اقتربت من الحمرة حتى رأيتها محاصرة، أحاط بها الانجليز. آلاف من الانجليز. يقبضون على الناس، كل الناس كبارا وصغارا، ويرصونهم فى صفوف طويلة تبدأ من النهر حتى الحريق. تتبادل أيديهم جرادل الماء وتنتقل من خلالها حتى تصل إلى النار ثم تعود من يد إلى يد لتمتلأ من جديد، الناس يصرخون والانجليز يضيحون والرصاص يدوى، فزعت فهربت جريا مع الجارين بعيدا عن الحمرة ونارها، وجدتنى مع عدد كبير من الناس يتزاحمون على دخول مركز البوليس القريب من الحمرة، زاحمت ودخلت، امتلأ المركز أناسا يتساءلون. عرفنا أن جبالا من التبن كان الانجليز يخزنونها قريبا من الحمرة إلى أن تنقلها القطارات قد احترقت «بفعل فاعل». طلع علينا

المأمور ونحن وقوف في الحوش، هالني أنه لم يكن مهتما بل كان مبتسما.

لا أنسى طلعته وهيبته وابتسامته، ولا أنسى اسمه.

رفع يديه فتوقفنا عن الهمهمة. قال: يا إخواني. ما بالكم هلعون. حريق مثل كل الحرائق اشتعل في تبن مثل كل التبن. فما بالكم هلعون، التبن ليس تبننا بل سرقه الانجليز من إخواننا الفلاحين، فما بالكم هلعون، إن يكون صوت رصاص الانجليز فإن رصاص الانجليز يدوى في مصر المحروسة منذ شهور. فما بالكم هلعون، إن كنتم تخافون الموت فقد قال الله تعالى لأفضل خلق الله محمد رسوله ونبيه «إنك ميت وإنهم ميتون» فما بالكم هلعون، إن يكن منكم من يأسى على أن تلك خسارة تصيب بلدنا مصر، فمصر لم تعد بلدنا منذ أن استولى عليها الانجليز، وأني لناقل إليّ أمرا تلقيته إن كنتم لاتصدقون، يقتل بالرصاص عمدا من ينتقل من قرية إلى قرية ابتداء من مغرب هذا اليوم إلى أن يسمح لكم الانجليز بالانتقال في بلدكم. على كل منكم إذن أن ينصرف فورا إلى بيته، انصرفوا سريعا وفورا، انطلق الناس يجرون إلى منازلهم حتى خلوا من المركز وبقيت أنا لا أعرف إلى أين أذهب، استدعاني محمد بك كامل وقال لي برقة لماذا لم تنصرف فقلت أنا لا أعرف إلى أين أذهب وحكيت له حكايتي، قال هل تعرف كيف تنظف الخيول، قلت أعرف، قال فأنت معين منذ اليوم للمساعدة

فى تنظيف خيول المركز حتى يأتينا فرج الله.

قضيت الليلة مع الشاويش النوباتشى سمعان بخيت الذى قدم لى، الله يستره، عشاء وشايا، قلت له ما الحكاية يا شاويش، قال لقد قامت الثورة فى مصر وامتدت إلى المديريات والمراكز والبنادر والقرى، وسقط كثيرون قتلى مصريون وانجليز، وربنا يستر، والسبب؟ قضى الليل يحكى لى أسبابا لم أفهم أكثرها ولكنى فهمت أنها مثل ما قال: «جاء ضيف غريب وأنت فى الغيط وطلب إليك أن تجيره مؤقتا للضرورة، فأقام عندك إلى أن أصبح آمنا. قلت له «تفضل من غير مطرود» فقال بل الأرض أرضى فماذا تفعل؟ قلت بحماس شديد: «يوه أندب رصاصه فى عينه. دى الأرض زى العرض». قال هذه هى الحكاية. أنت المصرى ومصر أرضك وجاء الانجليز يحتمون من الحرب، انتهت الحرب، قال لهم سعد باشا «تفضلوا من غير مطرود» قالوا بل مصر لنا، فقام المصريون يقاتلونهم فى كل مكان فهل تحب تشترك فى القتال.

قلت طبعا.. ألم أقل لك أن الأرض مثل العرض.

قال سأقدمك غدا إلى البك المأمور.

فى صباح اليوم التالى أدخلنى إلى حجرة المأمور وتركنى وخرج بدون كلام.

قال لى محمد بك كامل هل أنت متزوج؟. قلت لا. هل لك أخوة، قلت أربعة. قال: هل تريد أن تكفر عن ذنبك؟ قلت يابك أنا لم

أرتكب ذنبا. قال: أليس ذنبا أن تقدم خيرات البلد إلى الانجليز. قلت: أنا لم أقدم إليهم شيئا. إنها أرض الحكومة وقمح عبدالرحمن بك محمود. قال: لو لم تكن أنت وباقى الفلاحين قد زرعتم الأرض هل كان عبدالرحمن محمود يزرعها؟. قلت لا. هل كان الانجليز يحصلون على خيراتها؟. قلت، لا تؤخذنى يا بك الأرض أرض الحكومة. قال أجلس. أغلق الباب واجلس. أغلقت الباب وبقيت واقفا، قال اجلس يا نعمان. قلت العفو يابك. نهرنى وقال اجلس فجلست. قال مبتسما من الذى قال لك أن الأرض أرض الحكومة. قلت الحكومة. قال طيب يا نعمان افترض أنه لاتوجد حكومة فلمن تكون الأرض؟ قلت لأهل البلد. قال عظيم، هل تعرف من هو رئيس الحكومة، قلت لا... ضحك ثم قال: آه نسيت أن أسألك عما إذا كنت تقرأ الجرائد. قلت أنى لا أقرأ ولا أكتب مع أن والدى يقرأ ويكتب ويحفظ القرآن. أنى أقيم منذ سنين فى الجزيرة ولا أغادرها فلا أعرف مايدور فى الدنيا. قال رئيس الحكومة يا نعمان اسمه حسين رشدى باشا هل سمعت عنه. قلت لا. قال استقال . استعفى. فلم تعد هناك حكومة فى مصر. قلت بلهفة فرحة الحمد لله يابك. قال على ماذا تحمده. قلت الحكومة غارت وكبير بيت الباشا محمد باشا محمود محبوس فى آخر الدنيا، وأخوه سافر إليه، يبقى خلاص والحمد لله. قال: خلاص من ماذا يا نعمان. قلت خلاص من الذين أخذوا الجزيرة من بلدنا

وحرموا أهلها من خيرها. والله لو كان أحد قد قال لى أنه لاتوجد حكومة لكنت وزعت المحصول على أهالى البلد. «لكن ماحدش قاللى». قال: لا يا نعمان لن تعود إليكم الجزيرة إلا بعد طرد الانجليز لأنها جزء من أرض مصر ومصر كلها تحت يد الانجليز، فماذا تقول. قلت، يقال أن رجلا اسمه سعد باشا يقاتل الانجليز ليطردهم من مصر. قال هذا صحيح ومعه الشعب كله. قلت وهل إذا انتصر سعد زغلول باشا وطرد الانجليز من مصر تعود الجزيرة إلى الهمامية، قال إن شاء الله، المهم الآن طرد الانجليز. قلت خلاص. قال ماذا تريد أن تقول، قلت أنا وبلدنا كلها مع سعد زغلول باشا، قال ما الذى تستطيع أنت أن تفعله. قلت ماتأمر به يا بك. قال عظيم. انتظر فى حجرة السلاحليك إلى أن أدعوك.

بعد ثلاثة أيام ألبسنى الشويش سمعان بخيت بدلة عسكرى قديمة من غير طربوش وأدخلنى فى جوف «البوكس فورد» حيث وجدت ثلاثة آخرين لم أتبين وجوههم بسبب الظلام. غلق السائق الباب الخلفى وسار بنا البوكس حتى وقف فى حارة ضيقة ومظلمة لا أعرفها. جاء السائق مسرعا وأنزلنا مسرعا، وفتح باب الحديقة مسرعا، ودفع بنا إلى داخله ثم غلقه وغادر المكان مسرعا، خرج إلينا من بين الشجر شخص يحمل فانوسا باهت الضوء. قادنا على ممر قصير انتهى بنا إلى باب من حديد. أدخلنا منه وصعد بنا سلما ضيقا انتهى إلى باب من خشب فتحه، ودخل أمامنا

فدخلنا إلى حجرة مضيئة مليئة بالحلل والأطباق «وبوابير» الجاز، قال لنا انتظروا هنا إلى أن تتناولوا العشاء وغادر المطبخ إلى داخل الدار. قدم شخص آخر من باب جانبى فقدم إلينا طبيخا وخبزا ولحما وأرزا وشايا بدون أن ينطق كلمة أو يسألنا سؤالا ثم انصرف. عاد إلينا الذى قادنا فى الحديقة من الباب الذى خرج منه وقال اتفضلوا الباشا منتظركم. دخلنا إلى حجرة كبيرة مليئة بالمقاعد الوثيرة مضاءة بكلوب قوى النور. الباشا على أحد المقاعد وأمامه سبعة أشخاص آخرون جالسون على السجاجيد. لمحت بينهم فكرى عبدالنبى فأسرعت إلى الجلوس بجواره، أخيرا شعرت بالاطمئنان. هممت بأن أسأله همسا فأشار بأصبعه أن أسكت. سكتُ. كلهم ساكتون. بعد وقت قصير دخل إلينا من باب كبير محمد بك كامل، قام الباشا ورحب به وتعانقا، تأملنا محمد بك وحين وقعت عينه علىّ ابتسم. قام فجأة وهمس للباشا بما لم أسمعه فقال له تفضل وأشار إلى باب حجرة جانبية، جاء الذى قادنا فى الحديقة وقال للجالسين تفضلوا وسبقهم إلى الباب الذى دخله محمد بك. هممت بأن أتبع الاخرين فشدنى فكرى عبدالنبى فبقيت جالسا بجواره. صعد الباشا سلما دائريا عريضا إلى الدور العلوى. قبل أن يغيب عن نظرى حضر الذى قادنا فى الحديقة قادما من باب المطبخ ومعه الذى قدم لنا العشاء يحمل كل منهما خمس بنادق وأكياس ذخائر ودخلا بما حملا الحجرة التى

كان قد دخلها محمد بك ومن معه. بعد نحو ساعتين استدعانا محمد بك، أنا وفكرى عبدالنبى، فإذا بى أجد الغرفة خالية إلا منه. اختفى الرجال واختفت الأسلحة، أبوابها كثيرة، خرجوا من أحد الأبواب.

قال محمد بك لمن قادنا فى الحديقة يا مقدس وهيب أطلب لنا ثلاثة أكواب شاى. جاء الشاى وشربناه. قال محمد بك استمعا إلىَّ جيدا. غدا. الساعة السابعة صباحا، سيمر البوكس خلف السراى ويقف عند الباب الذى دخلت منه يانعمان. تركبا فيه. ستجدان بداخله أحد العساكر. سيقيد أيديكما بكلابشات، وسيحملكما إلى البدارى، ومعه استمارة ترحيلكما إلى محكمة البدارى حتى إذا تعرض البوكس لتفتيش الانجليز فى الطريق لايقبضون عليكما، ولكنه قبل أن يصل إلى البدارى سيفك قيدكما ويترككما بجوار حديقة «الزوايدة» التى لا سور لها، وعليكما التسلل والهرب إلى بلدكما. سأترككما الآن وسيحضر إليكما من يوقظكما الساعة السادسة صباحا.

الباقى فكرى عبدالنبى يعرفه. السلام عليكم. نهض فجأة وبقينا وحيدين. أنا مذهول وفكرى عبدالنبى يتأملنى ويضحك ويضحك ضحكات مكتومة.

ما الحكاية يا فكرى ؟

ضحك وقال نم وسأحكى لك كل شىء غدا. فى البوكس..

قلت منفعلا: عليَّ الطلاق إذا لم تحك لى الآن. قال: هل تزوجت من أسيوط لقد افترقنا وأنت أعزب. قلت ضاحكا برغمي على الطلاق ممن سأتزوجها. قال فكرى: أهدأ وسأحكى لك.

(٩)

ركبت من طما قطار الليل القادم من قبلي على أمل أن أسبقك ونلتقي في محطة أسيوط صباحا كما اتفقنا. حين اقتربنا من أسيوط رأينا النار مشتعلة فيها غربى الحمرة، وعندما وصلنا إلى المحطة وجدناها شعلة نار فلم يتوقف القطار واستمر فى طريقه بأقصى سرعة حتى اقترب من ديروط. فرمل فجأة حتى أن الركاب وقعوا على الأرض. ذهبت مع بعض الراكبين إلى سائق القطار أو الكمسارى، من نجده، لنستطلع الأمر. اعترضنا نحو عشرة من الانجليز كانوا يركبون معا عربة خاصة. نزلنا من القطار وعدونا نحو سائقه. قال لنا أن القضبان قد انتزعت. بينما كنا نتحدث اجتمع كثير من الركاب، وحضر ثلاثة من الانجليز. تحدثوا بغضب شديد إلى سائق القطار، لا أعرف ماذا قال لهم ولكنى شاهدت واحدا منهم يطلق عليه الرصاص. فهجم الواقفون على الانجليز وذبحوهم، وهموا بأن يذهبوا إلى من بقى من الانجليز فى العربة فقلت لهم لاتفعلوا. ننتظر إلى أن يحضروا واحدا واحدا أو اثنين اثنين ليستطلعوا أخبار زملائهم، وهذا ماحدث. قتلنا واحدا، ثم اثنين، ثم لم ننتظر. هاجم الرجال عربة القطار فوجدوا الباقين

منتظرين فقتلوهم برصاص بنادق من سبقوهم وبالسكاكين. جمعنا الجثث وأركبناها القطار ووضعناها عارية في العربة. أعجبتني بندقية أحد القتلى أولا فاشتركت بها مع من قتل الأخيرين. عدت جريا على الطريق إلى أسيوط. ما أن غادرت القطار حتى فوجئت باثنين من الانجليز هاربين. لا أعرف أين كانوا أو من أين أتوا. رأوني ورأيتهم إذ تقابلنا وجها لوجه. أحدهما يحمل طبنجة والاخر لايحمل سلاحا. قبل أن يرفع يده بالطبنجة كنت قد أطلقت عليه رصاصة أصابته في ذراعه، انشغل رفيقه به وجريت أنا عائدا، قبل الفجر كنت قد وصلت إلى الترعة الإبراهيمية. دفنت البندقية في جسرها، وخلعت ملابسي، رفعتها بذراع وعديت الترعة بالذراع الآخر. لبست «هدومي» وتقدمت مشيا إلى المدينة، حين اقتربت من المستشفى الأميرى وجدته محاصرا بالانجليز. فاتجهت رأسا إلى الكنيسة القريبة منه. وجدتها مليئة بالناس. منهم قساوسة ومشايخ معممون وتلاميذ كثير يهتفون باسم سعد باشا، بقيت معهم حتى هدأت الأمور ظهر اليوم التالي. تسللت ذاهبا إلى سراى بيت ويصا. كنت قد جئت إليها مع المرحوم محمد ظرظور قبل أن يقتل. عرفني ويصا بك واستقبلني وتحدث معي عن حديقته وعرض عليَّ حراستها، بعد أن سمعت حكايته سمع حكايتي وقال لي لاتغادر هذا المكان قبل أن أقول لك. في الظهر ركبت الكمبيل الملاكى وراء السواق. السواق

رخى ستائر على شبابيك الكمبيل. قلت للسائق إلى أين يابيه. قال ستعرف. دخل بالسيارة فى حديقة سراية جورج بك خياط، هذه التى نحن فيها وأنزلنى ويسلمنى لأحد الخدم الذى صعد بى السلاملك، فى المساء حضر أشخاص لا أعرفهم وانتظروا حتى حضر البك المأمور، كون منهم فرقا، كل فرقة من ثلاثة، وأمدهم بالسلاح، وطلب منهم الانتشار فى شوارع أسيوط وحواريها ومهاجمة الدوريات الانجليزية والاستيلاء على سلاحها والعودة بها إلى المركز فرادى قبل الفجر ووضعها فى البوكس الذى سيكون واقفا أمام مدخل المركز، ثم الانصراف والالتقاء فى هذه السراى بعد ثلاثة أيام.

بعد أن انصرفوا بدأ التحقيق معى. سألنى ألف سؤال ليعرف ويتأكد من شيء واحد. هل يكون أحد الانجليز من الذين واجهتهما قد تحقق من شخصيتى، وهل إذا قابلنى يتعرف على، وهل إذا لم يقابلنى يستطيع أن يذكر أوصافى، وهل وهل. قلت إجابة على كل الأسئلة إننى لا أعرف فقد كان الوقت ليلا ولم يكن ضوء القمر كافيا، قال انتظر إذن إلى أن ندبر لك وسيلة تعود بها إلى بلدك سالما.

وقد سمعت أنت الوسيلة.

قلت ما شاء الله، ونخرج من المولد بلا حمص.

قال ماذا تقصد؟

قلت : نريد سلاحا .

قال. لاتعجل. انتظر وسترى فترضى.

عدنا إلى البدارى مكبلين، وعدنا إلى الهمامية سائرين على الأقدام بمحاذاة شط البحر إلى أن وصلنا إلى الجزيرة. بعد أسبوع حضر صديق. لم يسأل عن القمح أو التبن. سألناه نحن. قال ليس هذا من شأنكم. الثمن يدفع عادة فى شارع الفلكى وقد دفع. تحاسبنا وأخذنا أجورنا. قال فكرى عبدالنبى استأذن أنا ياصديق فقد رزقنى الله عملا آخر. قال أى عمل وأين. قال: لقد عيننى ويصا بك خفيرا لحراسة حديقته فى الريانية حينما علم أننى صديق المرحوم محمد طرطور، قال غاضبا أنت حر، فقط لاتنسى أنك أنت الذى اخترت مفارقتى حين يأتى اليوم الذى تندم فيه على ما اخترت.

تركنا فكرى عبدالنبى بعد أن اتفق معى على أن أزوره فى الرياينة إذا أرسل إلىَّ رسولا. بعد نحو شهر أرسل إلىَّ والدى من يبلغنى أنه يريد أن أذهب إليه. ذهبت. دخلت الدار. خير. قال خير إن شاء الله. جاء رسول من عند فكرى عبدالنبى يقول إنه يريد أن يراك، توجهت ساعتها إلى الريانية على أن أعود قبل المغرب، قبل أن يمنع الانتقال بين القرى، ذهبت فرأيت فذهلت، قال فكرى عبدالنبى اختر لنفسك أية قطعة تريد فقد وعدتك بالسلاح وها هو أمامك، الدار التى كان يسكنها محمد طرطور وسكنها فكرى

عبدالنبى مليئة بالصوامع، كانت امرأة محمد ظرظور تهوى وتتقن إنشاءها. الآن تحولت الصوامع إلى مخازن أسلحة من كل نوع وعلى أن اختار. اخترت قطعتين. قال فكرى عبدالنبى قطعة واحدة فقط إلا إذا كان السلاح مطلوبا لأمر محدد. إنه أمانة. استلمته بالعدد واستأذنت فى قطعة لك وقد أرده بالعدد لمن أنا مسئول أمامه.

قلت من هو يافكرى؟

قال لم تسأل. ما فائدة السؤال. لو سألتك أو سألك أحد غيرى عما جرى لنا فى أسيوط، ومن آوانا، ومن كلبشنا، ومن أوصلنا إلى البدارى فهل تقول. قلت لا والله. وقد سألنى والدى عن سر غيابى فقلت له أننى مرضت فى أسيوط. قال ممتعضا: «وين فى سيوط، فى الوسعة، غور من وشى». فغرت. ضحكا. قال فكرى عبدالنبى: إننا نحضر ليوم كبير وإلا فلماذا استخدمنى ويصا بك، إنه رجل عظيم من رجال سعد باشا وقد اعتاد أن يحضر إلىّ هنا كل أسبوع بالكمبيل وفيه سلاح.

قلت ألا يخاف أن يمسكه الانجليز؟

قال لا يستطيع الانجليز مساس شعرة من رأسه.

لماذا يافكرى من هو.. ملك؟

قال: لا. بس قنصلاتو أمريكانى.. حماية أمريكانى.

قلت: سبحان الله. ربنا قادر على كل شيء. هل سيساعدنا في استرداد الجزيرة.

قال: بعد الثورة لن يسترد أحد السلاح منا فنسترد جزيرتنا بإذن الله إذا لم يردوها لنا. فقلت سمعت في أسيوط أن قد سقطت حكومة الباشوات التي يرأسها رشدي باشا. وغدا تنتصر الثورة وتقوم حكومة الفلاحين.

قلنا معا. آمين....

(١٠)

قال الشيخ عباس كانت تلك أسوأ أيام حياتي، فعلى الطريق إلى الهمامية، وأنا غارق في مستنقع الحزن على يونس عبدالله، عاجز عن انقاذه، تحدث عزيز حسين حديثا قائدا، آمرا، موجها، مؤنبا، ساخرا، ولكنه صادق في دلالاته جميعا. كانت كلماته ونبرات صوته كأبر مسنونات يخرق بها قربة منتفخة فتفرغ محتواها الكريه. حتى إذا ما داهمني بأنني لا أعرف شيئا عن الجزيرة، ولم أهتم بأن أعرف شيئا عنها وهي فردوس القرية المفقود، بالرغم مما أدعيه غرورا من علم بما ينفع الناس وما أظهره اصطناعا من اهتمام بهم، بدأت أشعر بأنني أتلاشى، وتمنيت لو أنه رحمني فتوقف عن الحديث. ولقد كدت أرجوه لولا

ما ربتني عليه القرية من أن استجداء الرحمة من غير الخالق هو قاع هاوية الذل وشرك بالله. ولقد أصبح حديثه ساخرا كما لو كان يستمتع به حين قال أن والدي قد باع أغلب ما كان يملك واشترى الجزيرة فاستردها لأهل القرية بعد عودتهم من الشتات وإن في بيتكم ذاته حجة البيع والشراء تستطيع أن تقرأها لو استبدلت بقراءة الصحف قراءة أوراق والدك.

قلت لوالدتي فور عودتي بصوت واهن متوتر استنكرته أريد أن أرى أوراق والدي. فدست يدها المعروقة داخل «السحارة» العتيقة وأخرجت أنبوبة غليظة من الصفيح الصدىء ودفعتها إلى بغضب صامت. حملتها مهرولا بخطي مضطربة إلىّ «منضرتي» وغلقت على الباب ونبشت أوراقها وأنا أرتجف أو أكاد. كنت في أعماقي أتمنى ألا أجدها لأجد نفسي الضائعة.

وجدتها ..

ورقة كالحة، ممزقة الحوافي، عطنة الريح، عليها كتابة تقول:

بسم الله الرحمن الرحيم

[illegible] في يوم [illegible] سنة ١٢٨٦ [illegible] رسول [illegible]

[illegible] الشيخ محمد اسماعيل [illegible]

[illegible] المشهور [illegible]

[illegible] الشيخ حسن اسماعيل [illegible]

[illegible]

[illegible] من الشيخ اسماعيل [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] المشهور [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

حسن اسماعيل [illegible]

محمد [illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم

«إنه فى يوم ٧ شوال سنة ١٢٨٦ بعد هجرة الرسول عليه السلام بدار الشيخ محمد إسماعيل جودة شيخ مشايخ بنزلة همام بك المشهورة باسم الشيخ جابر قسم صدفا أسيوط «كلمة غير مقروءة» وبوجود الشيخ حسن إسماعيل ووجود معوض مسعود قد قبض واستلم محمد أغا شماشرجى لطيف باشا المقيم الآن فى نزلة همام بك من الشيخ محمد إسماعيل جودة مبلغ قدره ستين جنيه بنتو ومائة جنيه فرنكي وقد باع له ستون فدانا والمنزل الذى بها والشجرات الكائنة فى قبالة الدير فى زمام العزبة المنوه عنها المشهورة بإنعام فخامة لطيف باشا حضرتلرى وقد قبض المبلغ بالتمام والكمال وأصبح البيع باتا فروغا ونزولا لا رجوع فيه والمشترى استلم الأطيان وعليه دفع أموال الدوان. وقد تحرر هذا للعمل بموجبه عند اللزوم».

شاهد بذلك	شاهد بذلك	المقر بما فيه
حسن اسماعيل	معوض مسعود	
« ختم »	« ختم »	كاتبه
		محمد أغا شمشرجى

قرأتها عدة مرات حتى شعرت بعرق بارد يتصبب على بدنى، وجفاف فى حلقى، وكأن «الكاكولة» قد أطبقت على صدرى فضاق

نفسى لولا أننى خلعتها، ثم تراخت يداى حتى سقطت الورقة فانتبهت مذعورا وأعدتها إلىَّ ثم دسستها بين أوراق المصحف وأعدته إلى مكانه بين الكتب ونمت نوما أقرب إلى الإغماء.

ولقد عرفت حين أفقت بعد نحو أربعين يوما أننى قد مرضت مرضا كاد يفقد أهلى الأمل فى الشفاء. وأنه كانت نوبات متصلة من الإغماء كان جسمى خلالها يكاد يحترق من الحمى، وأنهم قد عالجونى بكل مايعرفونه من الأعشاب، وحمامات الخل، وعصير الليمون، وأحجبة شفاء كتبها مشايخ مشهورون فى القرى القريبة والبعيدة، وأن والدتى التى نقلت مقرها إلى منضرتى قد أصرت على ألا أنتقل أو أنقل من دارى لألتمس الشفاء فى أسيوط عند الأطباء، فهى تحس بقلبها، وقلب الأم لايخطىء، أننى لو انتقلت من هذه الدار سأنتقل إلى الدار الآخرة خاصة أنها لن تكون معى لضعفها كيفما يكون الانتقال، وقيل لى أن أهل القرية كانوا يسألون عنى ولايزورونني لأن أمى قد منعت الزوار من غير بيت إسماعيل حتى لايقول أهل القرية أننى جننت، ذلك لأننى قضيت أغلب أيام مرضى الطويلة لا أكف عن «الهلوسة» سرا أو جهرا وأننى كنت أردد كلمات لايجوز أن يسمعها غير أمى أو أخوتى الذين صبروا علىَّ صبر أيوب..

إلى أن زغردت نعيمة..

قالت والدته بخاتى بنت عبداللطيف لقد صعب علىَّ أن يرى

أحد ولدى فيما كان عليه من مرض وجنون فانتقلت إلى «مطرحه» لأرعاه بنفسى ومنعت زيارته، منعت زوجتى أخويه، وأعمامه وأولادهم وأولاد خاله، كل الناس منعتهم سترا لمصيبته، مرسى وإسماعيل فقط كانا يدخلان عليه كل يوم ينظران إليه من بعيد ويسألانه عن حاله ثم ينصرفان وهما يبكيان. لا. مرسى هو الذى كان يبكى، ولما تفاقمت حالته وعجزت منفردة عن أن أقضى ماهو فى حاجة إليه أرسلت إلى نعيمة بنت جاد الكريم التى كنت قد آويتها وداويتها يوم أن عادت من الريانية بعد مقتل زوجها، فحضرت فاتفقت معها على أن تبقى معى ونرعى معا ولدى عباس وتكتم سر مرضه، وافقت، الله يسترها، وظلت مقيمة تخدمه وتخدمنى ورسول بينى وبين صفية وبخيتة طوال الشهر الأخير، فلما بدأ يسترد عافيته اتفقت معها على أنه حين يفيق ويقعد ويأكل ويتكلم تخرج من المنضرة إلى الحوش وتزغرد زغرودة تسمعها كل البلد، فوعدت وأوفت فعرف هل البلد أن عباس بخير وتوافد الزائرون.

كان أول الوافدين مرسى واسماعيل وعمه الحاج مشهور وعمه عبدالرحيم أحمد وولد خاله أحمد عبداللطيف فتركت لهم المنضرة وعدت إلى «مطرحى» داخل الدار تساندنى نعيمة فزغردت صفية وبخيتة ونعيمة مرة أخرى.

(١١)

بعد نحو أسبوع زارني الشيخ محمود عبد اللطيف نائب العمدة والشيخ عمار زيدان وأحمد عبد اللطيف وعزيز حسين وسيد عبد النبى وعمي مشهور وعمي عبد الرحيم أحمد معا ، قادمين من المسجد بعد صلاة الجمعة، فاستقبلهم مرسى أخي وقد وجدني جالسا وبخير، ذكرت لهم طرفا مما كنت أعانيه واذكره من كراهية الأكل وشعور كاذب بانتفاخ فى البطن والكوابيس المتكررة فحمدوا الله على أنني نجوت من الحمى ، وتطوع عزيز حسين فقال أن سبب كل هذا ضربة شمس تحولت الى حمى لأن الشيخ عباس كان قد نزع العمامة طوال المشوار من البدارى والشمس حارقة ولما هموا بالانصراف قلت لعمى مشهور أريد أن أتحدث معك يا عم وأنت كبير عائلتنا وفى حضور كبار العائلات. أريد أن أعرف منك ومن كل من يتذكر ماهى حكاية الجزيرة «من طقطق لسلاموا عليكم » صمتوا جميعا وهم يتبادلون النظرات . وقام الشيخ محمود عبد اللطيف وقال مادام الأمر كذلك فانصرف أنا لانني لا أعرف شيئا عن حكاية الجزيرة ثم خرج . خرج على أثره عزيز حسن . قال عمي مشهور ممتعضا : أولا تعرف يا ولدى؟ كيف إذن عرفت أباك وأمك وأخوتك وعائلتك وبلدك .. قال سيد عبد النبي لاتقسو عليه يا مشهور لقد عاش مغتربا فى مصر . قلت خجلا : أريد فقط أن أعرف فقد وجدت بين أوراق والدى «حجة» شراء الجزيرة فكيف بدأت الحكاية من البداية أى من قبل الغارة .

تحدث عمى مشهور وعمى عبد الرحيم أحمد وروى أحمد عبد اللطيف ما سمعه من أخيه ومن والده . وأسهب سيد عبد النبى أكبرهم

سنا فى سرد تفاصيل أحداث الغارة . وختم الشيخ عمار زيدان الحديث بما حدث حين زيارتهم الساحل ومقابلة عبد الرحمن بك محمود وأكد أن عبد الرحمن بك كان سيترك الجزيرة لأهلها لولا صديق حماد. وهكذا عرفت قصة الجزيرة ، لما أن وقفوا لينصرفوا قال لى عمى مشهور بحدة : لكن يا ابن أخى ما فائدة هذه الحكاية . الجزيرة أخذتها الحكومة وأعطتها لمن اعطتها . ولا ننسى نحن العواجيز ما فعلت بنا الحكومة حين عارضناها . وقد سمعت من عمك سيد عبد النبى بعض ما حدث من بهدلة ، فأرجو ألا تتهور وتكتب عرائض ضد الحكومة فتعرضنا لما لا طاقة لنا به ، ثم ساخرا ، أم أنك تعرف طريقا سحريا لتأخذ الجزيرة فى غفلة من الحكومة . قلت أردت فقط أن أعرف المشكلة ولكنى لا أعرف كيف يكون حلها فلا تغضب يا عم . قال لست غاضبا ولكنى خائف عليك. نهض مرسى فجأة وواجهنا قائلا : أنا أعرف . نظر اليه الجميع وقال عمى عبد الرحيم أحمد ماذا تعرف يا مرسى وضحك ساخرا وشاركه إسماعيل . قال مرسى بحزم قاطع . ألستم تقولون أن الحكومة أخذت الجزيرة . ثم بجدية واثقة : «يبقى مافيش طريقة غير أننا ناخد الحكومة فترجع لنا الجزيرة » تحول الضحك الى قهقهة وانصرفوا جميعا بينما بقى مرسى واقفا منفعلا غاضبا من أن أحدا لم يفهم ما قال :

(١٢)

فى مكتب الاستاذ أبو شقة . أصبحت لى ، أخيرا ، قضية هى ذات قضية أهلى .

رويت له ملخصا وافيا لقصة الجزيرة ورجوته فيما يشبه الاستغاثة

أن يرفع قضية ترفع ظلم الحكومة عن أهل القرية وترد اليهم جزيرتهم . وأكدت له أنني المسئول عن أتعاب المكتب ايا كان مقدارها ، وأن لدى الدليل القاطع على حقنا فى الجزيرة ، وقدمت اليه الورقة .

قرأ الابوكاتو عبد الكريم أبو شقة الورقة مرة ثم مرة . ثم فى المرة الثالثة أخذ يكتب ، كلما قرأ ، اسطرا على ورقة من عنده ، مد يده الى صوان كتب وراء مكتبه وأخرج كتابا صغيراً ذا غلاف أسود . تصفحه ثم أعاده وعاد يقرأ الورقة. ثم كتب اسطرا على ورقة ثانية من عنده وألقى بالورقة الأولى فى سلة المهملات ، أخيرا رفع رأسه ونظر الىَّ نظرة ثاقبة ثم قال ، قبل أن يقرأ من ورقته ، يا شيخ عباس أجب بصدق واختصار :

– هل تعرف لماذا لم يوقع والدك أو يختم على العقد وهو المشترى ؟

– لا .

– هل لديك اعلام وراثة بوفاة والدك وأسماء الورثة ؟

– لا .

– هل تعرف حدود الأرض المبيعة على الطبيعة ؟

– لا .

– هل لديك إثبات رسمي بأن نزلة همام بك هى الهمامية الحالية.

– لا .

– هل لديك أثبات رسمي بأن الجزيرة كانت تسمى قبالة الدير ؟

– لا .

- هل لديك شهادة رسمية بوفاة كل من حسن اسماعيل ومعوض مسعود ؟

- لا .

- هل لديك شهادة رسمية بوفاة محمد أغا شمشرجى ؟

- لا .

- هل تعرف اسم ومحال اقامة ورثته ؟

- لا .

- هل تعرف من أين تستطيع الحصول على هذه الأوراق الرسمية ؟

- لا .

يا شيخ عباس ، هذه الأوراق لازمة لانها الحد الادنى لاثبات جدية المطالبة. بعد هذا يأتى تطبيق القانون . وفي قضيتك هذه تتوقف النتيجة على اثبات وضع يدكم على الأرض لمدة مستمرة لاتقل عن خمس سنوات من تاريخ العقد. دعنا الآن نركز على جدية المطالبة خاصة وأن خصمك في الدعوى ستكون الحكومة وورثة محمد أغا شمشرجى . وانى لارد اليك مستندك أسفا . يمكنك العودة الى المكتب اذا رغبت بعد استيفاء مستندات الاثبات . هاهى مكتوبة على ورقة من مكتبى يمكنك الاحتفاظ بها لتهتدى بها الى أن تستوفيها .

قلت لا أعرف من أين استوفيها .

قال : كلها ماعدا البند الأول أوراق رسمية . وكل أصول الاوراق الرسمية تحت يد الحكومة تجدها فى «الحفظخانة» بالقلعة فى مصر ،

ان أردت فاذهب الى مصر واطلب صورا رسمية من تلك المستندات . ولأسهل لك الأمر بقدر ما استطيع خذ هذه البطاقة وقابل الاستاذ محمد علي بك علوية المحامي . عنوان مكتبه مكتوب على البطاقة . وقد كتبت اليه على البطاقة أوصيه بك خيرا وان كان لايحتاج الى توصية حين يتصل الامر بأحد أبناء أسيوط فهو «بلدينا» بالاضافة الى ما هو معروف عنه من الشهامة والشجاعة والكفاءة .

قلت : هل تسمح لى بسؤال .

قال : طبعا تفضل .

قلت : مادامت أصول هذه المستندات تحت يد الحكومة فلماذا أطلبها منها ولا تقدمها هى .

قال : لأن القانون يضع عبء الاثبات على عاتق المدعى وليس المدعى عليه وأنت فى موقف المدعى .

قلت : ما الذى يحدث لو أن المدعى لم يتمكن من الحصول على المستندات من الحكومة .

قال مبتسما ابتسامة ساخرة : يخسر قضيته .

قلت وأنا عاجز عن الفهم : حتى لو كان الحق معه .

قال ضاحكا : حتى لو كان الحق معه شيخ عباس .

شعرت بأننى اثقلت على الرجل الكريم فأخذت أوراقى واستأذنت فى الانصراف وأنا أتذكر حكمة الشيخ محمود عبد اللطيف حين سخر من غفلة الذين «يشتكون الحكومة إلى الحكومة» .

قال الشيخ عبد الجواد وهو يرحب بى فى فندقه هل قرأت جرائد

اليوم ؟ قلت : لا ، هل ثمة أخبار جديدة . قال نعم . لقد انكسر الجيش التركى ودخل اللينبى فلسطين واستسلمت تركيا . قلت قبل أن أفكر : الحمد لله . قال أتحمده يا شيخ عباس على هزيمة دولة الخلافة . قلت : دولة الخلافة لم تكن طرفا فى الحرب يا شيخ عبد الجواد انما هى دولة الاتحاد والترقى ، واللهم لا شماته ، ولكنى أحمده على عودة يونس عبدالله ألف حمد . قال : ومن هذا المسمى يونس عبد الله . قلت : واحد ممن اخذتهم السلطة ، أعز واحد عندى . قال بسخرية : الله يشفيك وهم بالانصراف فرجوته أن يأتينى بإحدى جرائد اليوم .

قرأت : انتصار حاسم لجيوش الحلفاء . جيوش الحلفاء تجتاح العراق وتدخل بغداد . اللينبى يكتسح الحشود التركية على الحدود الشرقية ويتقدم فى فلسطين . ايقاف عملية الجمالة (المتطوعون) . مائة وسبعون ألف متطوع يعودون الى الوطن .

(١٣)

حملت الصحف وعدت الى القرية أكاد أطير فرحا لولا أن الحمار الذى حملنى وراء صاحبه العائد من البدارى مبالغ فى بلادته . حمار . لو لم يكن حمارا لادرك أننى أحمل الى القرية بشرى «قرب» عودة ابنها يونس عبد الله فطار . ولكنه حمار . أما صاحبه فهو انسان عديم الاحساس . سألنى ما سبب فرحتك ، قلت له أن يونس عبد الله سيعود من السلطة . قال ببلادة باردة هل أنت متأكد . قلت قرأت فى الجرائد أن كل الذين أخذتهم السلطة سيعودون . قال ببرود بليد هل ذكروا يونس عبد الله فى «الجرنان» قلت لا ، قال : هل قالوا فى «الجرنان» إن

الذين ماتوا سيعودون . قلت لا : طبعا ، قال : اصبر اذن الى أن يعود يونس عبدالله ثم افرح كما تريد . كما لو كان قد صب على رأسى دلوا من الماء البارد. انكتمت بعد صمت طال حتى وصلنا الى «الملصى» وبانت القرية من بعد ، قال يا شيخ عباس هل «زعلت» قلت بحدة طبعا ان يونس عبد الله عزيز عليَّ . قال بذات البلادة الباردة : يا شيخ عباس أنا لا أقرأ ولا أكتب فلا أعرف ما تقوله «الجرانين» ولكنى أعرف بلدنا وكيف تفكر أنصحك، لمصلحة البلد لا لمصلحتك ، أن تكتم الخبر حتى يعود يونس عبد الله . انك اذ تذيعه كما صدقته ستدق الطبول وتقام الافراح لان أهل بلدنا قد اعتادوا تصديق ما تقول . «فلنفرض» أن يونس عبد الله قد مات ، فهل يرضيك أن تتحول أفراح البلد الى جنائز وكيف يكون موقفك . أصبر يا شيخ عباس ، الصبر جميل وان الله مع الصابرين . لا مانع من ان تقرا لهم الجرائد كعاداتك ولكن لا تبشرهم بعودة يونس ولا تضيف الى الجرائد إمنياتك الشخصية انت رجل متعلم فكيف يغيب عنك كل هذا .. لقد وصلنا و سأتركك عند «تاية ولد سطوحى» لانى ذاهب الى الجزيرة ، وتكمل انت طريقك الى بيتك مع السلامة و«لاتزعل» منى.

قابلت كثيرين فى الطريق الى بيتنا النظرات باردة والتحيات مقتضبة ، كما لو كانت القرية غاضبة . دخلت دارنا الى منضرتى فوجدت عمى مشهورا وأمى يتحدثان، وامرأة «تزغنفت» وخرجت جريا فلم أستطع تبين من هى. احتضننى عمى مشهور حامدا الله على سلامة عودتى وصافحت يد أمى وهى تصافحنى، ثم قلت «جلسة فى الحرم» قالا معا: عقبالك وصمتا. قلت قاطعا الصمت، من هذه التى

جرت «مزغنفة» خارجة حين دخولي. قالت أمي «دى نعيمة» قلت مستغربا ولماذا تجرى نعيمة وتتزغنف كأنى غريب.

قالت أمي وعلى غمها ابتسامة عريضة : يرد عليك الحاج عمك مشهور، أما أنا فسأترككما لحديث لا يدور الا بين الرجال..

قلت : ايه الحكاية يا عم مشهور.

قال : ياولدى لقد كنت مرضت «مرضة وحشة» لمدة طويلة فقدت فى أغلبها وعيك، فانتقلت والدتك الى هنا لتكون معك ولتحجبك عن عيون الآخرين حتى لو كانت عيون زوجتي اخويك .. ولقد كنت تقول مالا يقوله عاقل . ولم تكن قادرا على ان تتحكم فيما يدخل جسدك أو يخرج منه ، وكنت فى حاجة متكررة للاغتسال واستبدال الملابس فلم تستطع امك بحكم سنها أن تؤدى لك ماكنت فى حاجة اليه وأن تسترك . فاستعانت بأرملة محمد ظرظور على ما كنت عليه . ولقد صاحبتها – الله يسترها – أغلب أيام مرضك وأشدها حرجا . ولم يكن كل هذا أو حتى بعضه يعجب الناس أو يتفق مع علاقات بلدنا وعاداتها . ولقد بدأ الحديث همسا وتردد جهرا فى لقاءات الموردة حيث لم ينسبوا اليك ولا اليها ما يشين فقد كان مرضك شائعا ولكنهم توقفوا عند عجز امك منفردة عن أن تقوم بجهد اغتسالك المتكرر واستبدال زوجتي ولديها بنعيمة. ويعلم الله أنها لو استعانت بزوجتي ولديها لما اعانتاها على ما هو غير مباح الا للامهات والزوجات. فشاورتنى فى كيف تقطع ألسنة السوء، وانتهينا، هى وأنا وأخوك مرسى الى أن نخطب لك نعيمة على أن يكون الزواج بعد نجاتك من المرض. فذهبت أنا وأخوك وتحدثنا فى هذا مع الشيخ محمود عطية كبير عائلة أولاد عمران. عائلة نعيمة. شاورها فى

الامر فوافقت . وقرأنا الفاتحة. شاعت الخطبة في البلد ولكن صدقها بقى، فى الضمائر معلقا على مصيرك. فلما «زغردت» نعيمة وعرف الناس أنك قد عوفيت انتظروا الزفاف ولكنك ما أن عوفيت حتى شوهدت خارجا من البلد الى حيث لا يعلمون، فظنوا وبعض الظن إثم انك «مشيت» من البلد واعادوا ذكر ما فعلت في مطلع شبابك. ولقد تفاقم الشك حتى كاد يكون اتهاما صريحا دعتنى أمك فحضرت لنتدبر ماذا نقول أو ماذا نفعل وانضمت الينا خطيبتك نعيمة ولقد دخلت فجأة سعدنا بعودتك وحجبت نعيمة وجهها وانفلتت خارجة كما تحجب كل خطيبة عن خطيبها . فأرجو الا نكون ، أنا و أمك وأخوك ، قد حملناك ما لا تحتمل.

قلت صادقا: لا والله ياعمى ، اننى قابل وسعيد بأن أتزوج «أنيسه».. وضحكت. قال عمى وقد تجهم وجهه فبرزت غضونه : أنيسه من ياولدى نحن نتحدث عن نعيمة فضحكت حتى كدت أثير غضبه .

قال بحزم ليس فى الزواج ضحك ولا هزل ياولدى . نعيمة محمد جاد المولى من عائلة أولاد عمران الذى هو أخ جدك الكبير مشهور أولاد فرج قداح فماذا تقول.

قلت : أقول يا عمى نعم أتزوج نعيمة.

فانفرجت أساريره كما لو أننى أخيرا صححت خطأ ارتكبته.

قال : على بركة الله . متى نكتب الكتاب.قلت : خير البر عاجله .. أرجو فقط أن تراعى (وحكيت له بالتفصيل قصتى مع الجزيرة، بما فيها خاتمتها مما قاله الاستاذ أبو شقة من ضرورة الذهاب الى مصر

لاستخراج المستندات من دار المحفوظات ، وما يحتاجه ذلك من وقت طويل ومال وفير).

قال عمي مشهور : بارك الله فيك. سنكتب الكتاب يوم الخميس القادم بإذن الله . وقد عرفت من أمك أنها منذ خطبت لك نعيمة والمهر جاهز. أما تكاليف سفر مصر والقضية فستشترك فى توفيره العائلة كلها ويكون جاهزا بعد المحصول الشتوى .

ضحكت وقلت : وماذا عن تكاليف الفرح يا عمى.

فقال ساخرا : لازلت غريبا عن الهمامية يا عباس . ألا تعلم يا ولدى أن أفراح الزواج لا تقام فى الهمامية إلا للبنات الأبكار . مبروك يا ولدى . حمدا لله على سلامتك ، سأقوم لأذهب وأقابل الشيخ محمود عطية لأبلغه بالموعد .

توقف وقال : كم ستكون المصاريف ؟ قلت لا أدري ولكنى أعتقد أن مصاريفى ومصاريف استخراج الاوراق وأتعاب المحامى لن تقل عن مائة جنيه . قال : لن تتوافر إلا بعد ضم المحاصيل فلا تضم إليك زوجتك إلا بعد أن تعود من مصر منتصراً بأذن الله لانك إذ تخرج من جوارها بعد مدة قصيرة إلى غيبة قد تطول تسئ إليها بما لا تستحقه ، أما والدتى فقد قالت جادة : «يا ولدى أريد أن أرى» قبل أن أموت ، ما يقولون عنه أنه سرير بأعمدة من الحديد ودولاب بمرآة كبيرة . وزواجك آخر فرصة لى» اصطنعت الجدية وقلت لها : «أنى ذاهب إلى مصر بعد جمع المحاصيل فلابد ، إذن ، من إرجاء «الدخلة» إلى أن احضر هذه الاشياء من مصر» .

وافقت وهى سعيدة . ولم أر زوجتى إلا بعد نحو عام . والواقع أننى لم أنكر على القرية أن اختارت لى ، بأساليب شتى ، الزواج والزوجة وموعد الزواج . بل أعترف بأننى «ارتحت» حين اجابت عنى على أسئلة كثيرة عن رغبتي الزواج : متى ، وممن ، أين ، ولماذا ؟ وكيف كانت تراودنى من حين إلى حين وتبقى بدون أجوبة .

وتفرغت لهمى المقيم : كيف ومتى يعود يونس عبد الله من حيث ذهب بديلا عنى .

(١٤)

كنت أتوقع ما أتمنى أن يعود يونس قريبا فكأننى أردت أن أكون أول مستقبليه ، وهكذا قضيت أكثر من شهر أذهب ثلاث مرات كل اسبوع إلى البدارى . أرابط كل يوم فى المقهى المواجه للكوبرى ، مدخل المدينة ، متوقعا أن أراه قادما ، جامعا كل ما يصل إلى البدارى من صحف أقرأ كل كلمة في كل واحدة منها لعلى أجد خبر عودته منشورا مع العائدين . كدت أيأس من عودته ففكرت ألا أعود إلى القرية لولا الزوجة التى تنتظر .

ثم كدت أيأس من حياتى فتمنيت لو لم أكن حيا . ثم يأتى خبر منشور فى الصفحة الأولى من كل جريدة يعيد إلىّ الأمل وحب الحياة . انتهاء الحرب والاعداد لمؤتمر الصلح قرأته وعدت أستحث حمارى لادرك القرية سريعا وأعلن الخبر لأهل القرية ، أو أسر به لأم يونس عبد الله خاصة ، لولا أنني تذكرت حديثا «بارداً» سمعته من قروى حكيم من قبل فاكتفيت بأن اصطنع الحكمة فأتلو على أهلى

خبر انتهاء الحرب وأتجاهل من سأل عن مصير الذين «أخذتهم السلطة» .

وتراكمت الأخبار يوما بعد يوم حتى طردت من ذهني يونس عبد الله وسيرته وبعثرت كل ما كان يشغلنى من أفكار متفائلة عن استرداد الجزيرة . وقد شغلنى ما توالى نشره عن كل شئ ما عدا تلاوة أخبار الصحف التى احضرها ، كل يوم ، من البدارى لأقرأها على من يريد من أهل القرية وأذيعها وأعلق عليها لمن يريد . وقد كان المريدون يتكاثرون يوما بعد يوم كما تطوع كثيرون باحضار الصحف أكثر أيام الاسبوع .

كانت أخبار الأيام الأولى محيرة :

قرأت أن الأنجليز قد قبضوا على سعد زغلول ومحمد محمود واسماعيل صدقي وحمد الباسل ونفوهم إلى مالطة . ليه ؟ لم استطع إلا أن أذهب إلى المأمور ، ذات المأمور الذى زج بى فى السجن من قبل ، فإذا به يرحب بى كأنه يرانى أول مرة ثم يسألنى ما شأنك ، فلما أن عبرت له عن رغبتي في فهم ماهو منشور أو ماوراءه، لم يجب . مد إليّ يدا بحزمة من الأوراق المطبوعة وقال: من أجل هذا «خذها واجمع عليها توقيعات» ، ثم ضحك وقال فإن لك خبرة فى هذا ولا أقول «سابقة» .

أخذتها وخرجت بدون استئذان أو تحية .

قرأت فى المقهى : «نحن الموقعين على هذا قد أنبنا حضرات سعد زغلول باشا وعلى شعراوى باشا وعبد العزيز فهمى بك ومحمود

باشا وأحمد لطفي السيد بك وعبد اللطيف المكباتي بك ، ومحمد بك أعضاء الوفد المصري ولهم أن يضموا إليهم من يختارون في أن يسعوا بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجدوا سبيلا لاستقلال مصر التام» .

أحفظه طبعا كما حفظه كل جيلي .

حيرني أن يكون من بينهم سعد زغلول ، عدو الحزب الوطني ، الساخر من مصطفى كامل صديق الأميرة نازلي فاضل مدمن لعب القمار ووزير مصطفى فهمي خادم الانجليز كما حيرني أن أعرف هل محمد علي بك هو الابوكاتو محمد علي علوبة الذي أسعى لمقابلته لاسترداد الجزيرة أو شخص غيره .

إن يكن هو فقد خاب مسعاي وانهارت آمالي وآمال أهلي . ولقد دفنت تلك الآمال بعد يومين . نشروا قائمة أسماء قيل أنهم أعضاء في الوفد . قرأت واستعذت بالله من الشيطان الرجيم ودعوت الله أن يلطف بنا ، رئيس الوفد محمود سليمان باشا ومعه خمسة وأربعون كلهم باشوات وبكوات ، والأدهى أن من بينهم عبد الرحمن بك محمود . لا حول ولا قوة إلا بالله . لا أدري لماذا اعتبرتها مسلمة أن أعضاء الوفد هم ملاك الأراضي في بر مصر ميراثا أو ايجارا أو استيلاء ، مادام الرئيس محمود سليمان والعضو الرئاسي محمد محمود، والعضو العادي عبد الرحمن محمود حارم قرية الهمامية من جزيرتها وأن غايتهم استقلال مصر ليستقلوا هم بأرضها دون الفلاحين .. فاستعذت بالله ..

لم أذع تلك الأخبار وإنما أذعت غيرها التى غيرتنى ..

اضراب الطلبة . اضراب المحامين . قطع المواصلات فى المديريات . مظاهرة السيدات . مذبحة فى قطار فى ديروط . ثورة فى زفتى . طائرات مائية تسقط قنابل على أسيوط ، مذبحة فى العزيزية ، ابن القباقيبى الطفل يقتل فى طولون . كل الأمة تقاتل الانجليز . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا تجتمع أمتى على ضلالة» . إنها إذن الثورة التى سمعت الدعوة إليها منقولة عن جمال الدين الافغانى يوم أن كنت أتردد على مقهى متاتيا ، ثورة ضد «السلطة» ، فعاد إلى ذاكرتى يونس عبد الله والشهيد محمد ظرظور والغلابة الذين نهبت أموالهم والمساجين فى زنازين التراحيل حتى رحلوا .. واذعت كل تلك المعانى فى الهمامية حتى جاء يوم جمعة فخطبت فى المصلين عن الثورة وختمت الخطبة صائحا : يسقط الانجليز ، رددها المصلون ثم اضفت «يحيا سعد» فزأر بها المصلون ، ثم ذهبت إلى منضرتى وبقيت حتى صباح اليوم التالى أنسخ التوكيلات بخطى فيوقعها أو يبصمها من أدعوه ، أما من لم أستطع دعوته فقد «بصمت له» وذهبت بها إلى ساحل سليم وسلمتها إلى محمود باشا سليمان فى «الدهبية» .. وقد كنت أعرف من الأخبار أن الانجليز قد أمروه بأن يغادر القاهرة فغادرها إلى ساحل سليم .

(١٥)

حددت يوما لزواجى بدون الاعداد «لفرح» كما هى التقاليد . غير أن الله أراد أن يكون ذاك اليوم فرحا للقرية جميعا ،لعلعت الزغاريد فى كل البيت . ودقت الطبول فى الرهبات .

وصدحت البنات بأغاني عودة الغائبين في الرهبات ، وتبادل الاهالي التهاني على المصاطب ، لا فرحا بزواجي ولكن لأن يونس عبد الله قد دخل القرية في ذات الليلة التي «دخلت» فيها .

بعد يومين طلب مني نعمان ولد الشيخ عمار زيدان وفكري عبد النبي أن استمع إليهما في خلوة . لماذا ؟ قال فكري عبد النبي حتى لا يعرف أحد . قال فكري أنه سرنا ونحن نأتمنك عليه . هل تتذكر ما ذكرته عن قتل الانجليز في قطار ديروط ؟ قلت نعم وما شأنك في هذا . قال كنت معهم هناك واشتركت في القتال وقتلت . لم أعرف ماذا أقول ، فقال نعمان :

«عليَّ الطلاق» صح . فقبلت جبين فكري ومسحت على ذراعه الأيمن وقلت له «يسلم دراعك» . وحكى نعمان قصتهما وانتهيا إلى أنهما يملكان الآن السلاح اللازم لاسترداد الجزيرة بالقوة . ويطلبان رأيي . قلت لهما : نفكر في هذا بعد طرد الانجليز واسترداد أرض مصر ومنها الجزيرة . قالا معا . هل هذا مؤكد ؟ قلت .. المؤكد يا فكري ، يا نعمان ، أن الله قد خلقنا لنعيش ونتمتع بالحياة في الأرض التي استخلفنا فيها لا أن نلقي بأنفسنا إلى التهلكة . وستعود إلينا الجزيرة لانها حقنا طال الزمان أو قصر إذ لا يضيع حق وراءه مطالب . قلت كل هذا بلغة أزهرية مقعرة لتكون أكثر تأثيرا ، وقد تأثرا فعلا ولكنهما لم يتراجعا صراحة . قال فكري متى تعود الجزيرة وإلى متى يمتد الصبر على الفقر. قلت

لهما من ذا الذى كان يستطيع أن يقول قبل يومين متى يعود يونس عبد الله وإلـــى متى تمتد غربتـه . إن هناك ألوفـــا من الناس يقـاتلون الانجليز بكل سلاح لتعود إلينا أرض مصر . بعدها سنسترد الجزيرة .

بعد بضعة أشهر جاءتنى رســـالة من الشيخ عبد الجـــواد بأن أوافيه «فوراً» فى أسيوط ، ذهبت . ما الخبر ؟ قال ألا تريد أن تستأجر جــزيرة الهمامية . قلت أنها مؤجرة إلى عبد الرحمن محمود . قال ساخرا : هل توقفت عن قراءة الجرائد . قلت لا ولكني لا أرى لهذا علاقة بالموضوع . قال : ألم تقرأ في الجرائد خروج محمد محمود على سعد باشـــا والوفد . قلت قرأت . قـــال إذن ستفهم ما أقول . كل الناس مع ســـعد باشا وضد الخـوارج عليه ومنهم محمد محمود وعبد الرحمن محمود . وقد آن أوان تجديد تأجير جزيرتك لعبد الرحمن محمود. أعضاء اللجنة . لجنة الايجارات فى المديرية كلهم وفديون . وهم يعتبرون أن من يخون سعد باشا يخون الثورة ويخون مصر فهم مصممون على ألا يجددوا الإيجار لعبد الرحمن محمود ، فإن كان لديك ' يكفى ولو ايجـــار سنة ، احضر به الاسبوع القادم واحضر المزاد ولن يحضر عبد الرحمن محمود وسيرســـو عليك مزاد الجزيرة فتستأجرها . كيف هذا . كيف لن يحضر عبد الرحمن محمود . قال إنهم يطبقون الـــدروس التى تعلموها منه . فقد كانت تؤجر له ، وتجدد، بدون أن يحضر .

عدت إلى القرية . ثم عدت إلى المديرية بعد أسبوع ومعى فكرى ونعمان . وذهبت بهمـا إلى ديوان المديرية . قـال فكرى إلى أين نحن ذاهبون . قلت له لنسترد الجزيرة فبهت الاثنـــــان . بعد أقل من ربع ساعة كنت أحمـــل فى يدى عقد ايجـــار الجزيرة لمدة أربع سنوات

قابلة للتجديد إذ لم يحضر المـــزاد أحـــــد غيرى . قال فكرى كيف تم هـــذا سهلاً . قلت له شجرة الثـــورة الصعبة قد طرحت ثمرة سهلة و«يا ما هتطرح» .

عدنا إلى الهمامية . وعادت إلينا الجزيرة .

عادت إلى أهل القرية «كلاتهم» كما كانت من قبل لأن «ما فيش حد أحسن من حد» .

قال الراوى :

إن تزر تلك القرية، «النطرة» نسبة الى قبيلة «عرب مطير» كما يزعم اهلها ، أو «الشيخ جابر» نسبة الى الشيخ الصحابى جابر بن عبد العزيز الذى اعتكف فيها حتى توفي ودفن فى مقامه كما يزعم احفاده الاشراف من سكانها، أو «الهمامية» نسبة الى همام بك عميد عائلة اقطاعية من قرية «ساحل سليم» كما اسمتها الحكومة فى أواخر القرن الماضى، ستلفتك ثلاث مقابر من حجرات غير ذوات ابواب أو نوافذ تعلوها قباب ، متناثرة بين مصاطب القبور فاقرأ الفاتحة عند كل منها كما يفعل أهل القرية حين يزورون تلك المقابر . ستعرف ممن تسألهم ، إن المقبرة التى تكاد تنقض من القدم هى مدفن فرح قداح مؤسس القرية وجد نبيها ، بناها أولاده الخمسة منذ مالا يدرى أحد من السنين. المقبرة الثانية هى مدفن «الشيخ ابو حسوب» قائد المقاتلين من أبناء القرية دفاعا عنها ضد الغارة منذ ١٤٠ عاما وأشجع المقاتلين كافة. المقبرة الثالثة هى مدفن الشيخ «عباس» المدافع عن القرية فيما بين الحرب والثورة الذي استرد لهم جزيرتهم .

عليهم رحمة الله جميعا .... آمين ...

الفهـــرس

رقم الإيداع
٥٠٤٨ - ٩٦
I. S. B. N.
977 - 07 - 0477 - 6

الهـــلال

المجلة الثقافية الأولى فى مصر والعالم العربى
مايو ١٩٩٦ .. تقرأ فيها :

فـكـر وثقافـة

- الابداع وقيـاداتنا الاجتمـاعية .... د. مـصطفى سـويف
- حدود حرية التعبير .... د. نصار عبدالله
- (القـفـز على الاشـواك) ملحـمـة صـحـراوية .... د.شكرى عياد
- قـرن القـومـيـات والايدلوجيـات، القرن الحـادى والعـشـرون .... جميل مطر
- فـرانكلين ديلانو روزفلت .... د.رشدى سعيد
- الفكر الاقـتـصـادى المصـرى فى ظل عـبـدالناصـر .... د.جلال امين
- غـول التكنولوجـيـا والفكر الاجـتـمـاعى .... عبدالرحمن شاكر
- رحـيل الدكـتـور عـصـمت سـيف الدولة، شـيخ جـبل البـدارى .... مصطفى نبيل
- الوسطية الاسـلامـية .... د. محمد عمارة
- شـيـوخ الاسـلام فى الدولة العـثـمـانية .... سليمان فياض
- المسلمـون والاسـلام فى المجـر.......... .روبرت كازمير مانياس
- حقـيقة قصـة المكـارى والمالطى! قـبائل سـيناء تقتل بالمـر فى صـحـراء التيه!! .... .سلمـان ابو سـتـة
- هل خـدع نابليـون اهل مـصـر المحـروسـة ؟!... حلمى النمنم
- ثلاثيـة غــرناطة .... د.احـمـد عـبـدالرحـيم مـصطفى
- عالم يشار كمال – قضية الهوية فى تركيا .... محمود قاسم
- هوى صـرح شـامخ، رحـيل الدكـتـور حـسـين مـؤنس .... د. محمود على مكى

كتاب الهـلال القادم

الحملة الأمريكية على الشرق

المستعربون .. الرحالة .. السفراء

تأليف

روبرت كابـــلان

ترجمة

محمــــد الخــولى

يصدر : ٥ يونيو ١٩٩٦

هذا الكتاب

ما بين نشر الجزء الأول من مذكرات قرية فى كتاب الهلال ١٩٩٥ وبين نشر الجزء الثانى الذى بين يدينا الآن فى مايو ١٩٩٦ رحل عنا .. د. عصمت سيف الدولة راوى هذه المذكرات .. والكتاب بين يديه يراجعه وتركه لنا وكأنه ترك لنا وصية .. وهى خلاصة حكاية قريته ، التى تقدم نموذجا لكل قرى مصر ، وإن اختلفت بعض القسمات من قرية لأخرى .

وتؤكد تجربة قرية « الهمامية » على المساواة بين جميع أهل القرية ، فسكان القرية جميعا يعودون إلى أصل واحد ، ومن عائلة واحدة ، وعانت القرية طويلا من فساد السلطة وتحيزها أحيانا للمستعمر البريطانى ، وأحيانا للإقطاع ، الذى انتزع أرض الجزيرة من أصحابها .

ورغم شيوع الخوف من السلطة إلى حد فرار شباب القرية إلى الجبل ، أو حقول الذرة أو القصب ، بمجرد اقتراب رجل بملابس رسمية من القرية ، فإن المقاومة الذكية ، التى قادها الشيخ عباس ، نجحت فى حماية شباب القرية ، من اصطيادهم ، وترحيلهم لخدمة المجهود الحربى البريطانى ، خلال الحرب العالمية الأولى ونجحت القرية مرة أخرى مع قيام ثورة ١٩١٩ ، فى استرداد أرض الجزيرة ، وبقى الصراع مع الطبيعة والفيضان ، والجفاف ، ورمال الجبل ، وفى مواجهة الفقر والظلم .

وتقدم تجربة الهمامية التى نقلها د. عصمت سيف الدولة وسائل كسب هذا الصراع .

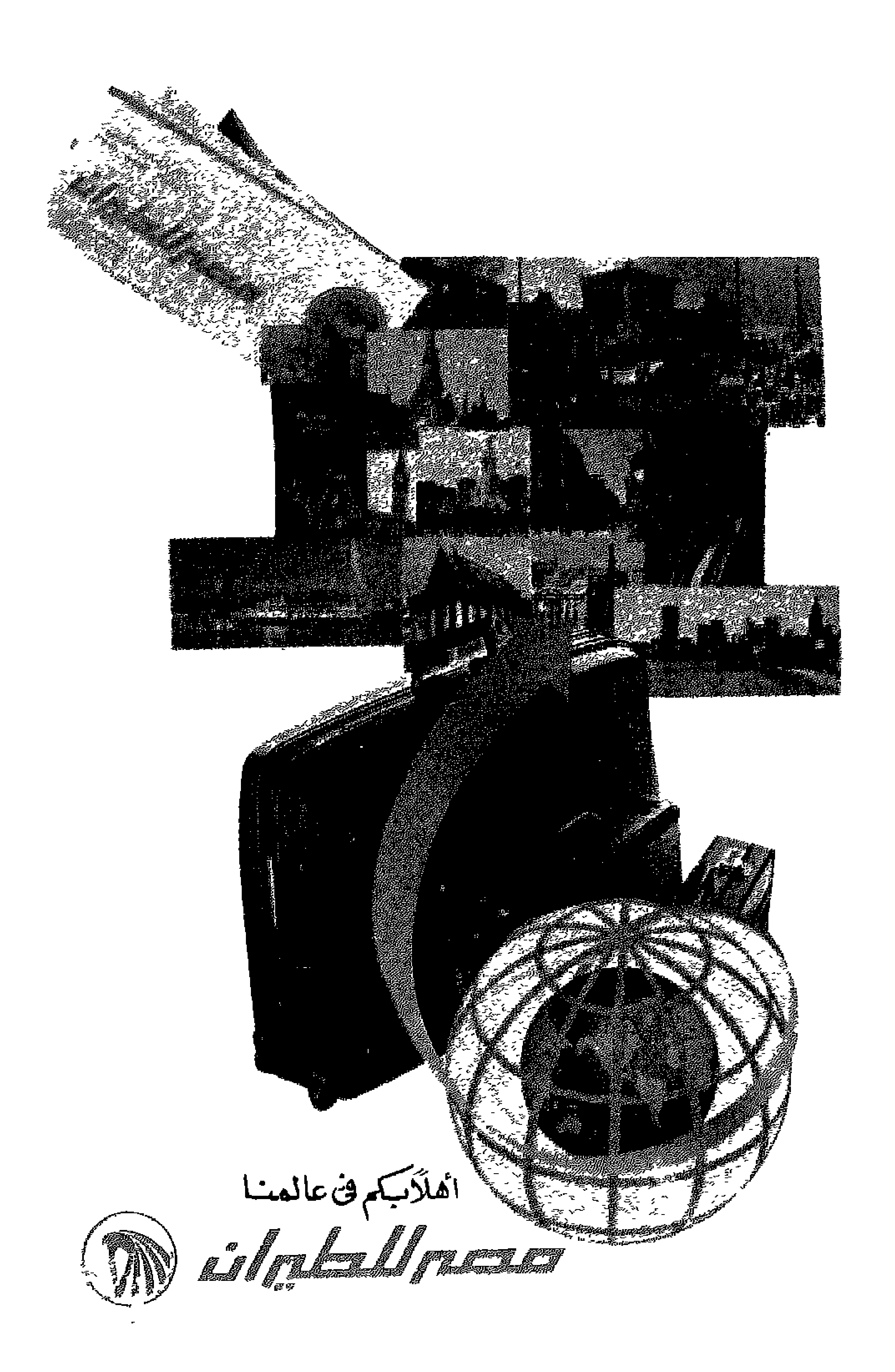
الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٣٦ جنيها داخل ج . م .ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٠ دولارا - امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٤٠ دولارا - باقى دول العالم ٥٠ دولارا .

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لآمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣
للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N


أهلاً بكم في عالمنا
مصر للطيران

